المكتبـــات

في الحضارة العربية الإسلامية

إعداد

الدكتور ربحي مصطفى عليان

أستاذ علم المكتبات المشارك

جامعة البلقاء التطبيقية

الطبعة الاولـــى

1999م - 1420هـ

دار صفاء للنشر والتوزيع - عمان

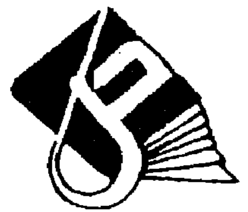
رقم الايداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (١٦٦ /١٩٩٩/٢)

رقـــم التصنيـــف :٠٢٠,٩٠٢
المؤلف ومن هو في حكمه: ربحي مصطفى عليان
عنـــوان الكتاب : المكتبات في الحضارة العربية الإسلامية
الموضـــوع الرئيـــسي : ١- المعارف العامة
٢- علم المكتبات والمعلومات
بيانـــات النـــشر : عمان: دار صفاء للنشر والتوزيع
* - تم اعداد بيانات الفهرسة الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

حقـوق الطبع محفوظة للناشر

Copyright ©
All rights reserved

الطبعة الأولـى
1999 م - 1420 هـ



دار صفــــاء للنشر والتوزيع
عمان - شارع السلط - مجمع الفحيص التجاري - هاتف وفاكس ٤٦١٢١٩٠
ص.ب ٩٢٢٧٦٢ عمان - الاردن
DAR SAFA Publishing - Distriuting
Telefax: 4612190 P.O.Box: 922762 Amman - Jordan
ISBN - 9957 - 402 - 12 - 7 ردمك



طبع في مطابع الارز ٠٥٣٦١٠٠١١

مقدمة الكتاب

يرجع اهتمامي بموضوع (المكتبات في الحضارة العربية الإسلامية) إلى مدة تزيد عن العشرين عاماً (1979م)، عندما كنت طالباً في دبلوم الدراسات العليا في علم المكتبات والتوثيق، ودرست مقرراً يحمل نفس العنوان، وقدمت بحثاً للمقرر بعنوان: (صناعة الورق في الحضارة العربية الإسلامية) نشر فيما بعد في مجلة (رسالة المكتبة) التي تصدرها جمعية المكتبات الأردنية. ومنذ ذلك التاريخ، وأنا أتابع الكتابة حول المكتبات في الحضارة العربية الإسلامية، الذي أعتقد أنه من الموضوعات التي لم تعط حقها من الدراسة والبحث.

وقد قمت بنشر عشرات المقالات حول الكتب والمكتبات في الحضارة العربية الإسلامية في الصحف والمجلات الأردنية والبحرينية والإماراتية والسعودية والعمانية وغيرها. وقدمت هذه المقالات في شكل برنامج إذاعي أسبوعي للإذاعة الأردنية بعنوان: المكتبات في الحضارة العربية الإسلامية، ولإذاعة البحرين بعنوان: نافذة على الحضارة العربية الإسلامية.

بعد ذلك صدرت معظم المقالات عام 1996م في كتاب ضمن سلسلة (المنتخب) التي يصدرها بيت القرآن في دولة البحرين. وقد تابعت الكتابة والنشر حول الموضوع في الصحف والمجلات العربية المختلفة، ويسرني أن أقدم لطلبة علم المكتبات في الكليات والجامعات العربية والإسلامية، ولجميع المهتمين بالحضارة العربية الإسلامية هذا الكتاب الذي جمعت فيه ما قمت بنشره حول الموضوع.

يبدأ الكتاب بالتعريف بمكتبات ما قبل الإسلام، كما يناقش موضوعاً في غاية الأهمية وهو: حريق مكتبة الإسكندرية القديمة والتهمة الباطلة الموجهة للمسلمين في هذه القضية. بعد ذلك يعرض الكتاب العوامل المؤثرة في ظهور مكتبات الحضارة العربية الإسلامية وهي على النحو التالي:

- تطور الكتابة العربية.
- الخط العربي.
- صناعة الورق في الحضارة العربية الإسلامية.
- حركة الوراقين في الحضارة العربية الإسلامية.
- حركة التدوين والتأليف في الحضارة العربية الإسلامية.
- المخطوط العربي الإسلامي.

ويتناول الكتاب في الجزء الثالث الأنواع المختلفة للمكتبات في الحضارة العربية الإسلامية وهي مكتبات المساجد، ومكتبات الخلفاء والمكتبات الخاصة، ومكتبات المدارس، والمكتبات العامة. كما يعرف بأشهر المكتبات في الحضارة العربية الإسلامية وهي مكتبة بيت الحكمة في بغداد، ومكتبة دار العلم في القاهرة، ومكتبة قرطبة.

ويقدم الكتاب فصلاً في إدارة وتنظيم المكتبات في الحضارة العربية الإسلامية، وفصلاً آخر حول تصنيف العلوم عند العرب والمسلمين. ويضم الكتاب قائمة غنية بالمصادر والمراجع في موضوع المكتبات في الحضارة العربية الإسلامية، كما يقدم عرضاً لكتابين رئيسيين في الموضوع، اعتمد عليهما المؤلف

To: www.al-mostafa.com

اعتماداً كبيراً وهما:

- المكتبات في الإسلام للدكتور محمد ماهر حمادة.

- المكتبات في العصور الإسلامية للأستاذ منصور سرحان.

أتمنى أن أكون قد وفقت في تقديم مادة جديدة ومفيدة وشيقة للقراء والباحثين بشكل عام، ولطلبة علم المكتبات بشكل خاص، وأن أكون قد نجحت في إلقاء بعض الضوء على هذا الموضوع المتجاهل في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية.

والله الموفق ،

المؤلف

عمان في 1999/2/1م

إهـداء

* إلى كل الذين يعملون على إحياء الـتراث العربـي الإسـلامي في كافـة مجالاته.

* وإلى كـل الذيـن عمـلـوا في المكتبـات العربيـة الإسـلامية وأسـهموا في تطويرها بغض النظر عن الزمان والمكان.

* وإلى جميع المهتمين بتاريخ المكتبات العربية الإسلامية.

* وإلى طلبة علم المكتبات في البلاد العربية والإسلامية.

المؤلف

المحتويات

مكتبات حضارات ما قبل الإسلام

مقدمة:

يشكل تاريخ الكتب والمكتبات جانباً مهماً في علم المكتبات. والجدير بالذكر أن هذا التاريخ طويل -لأنه يبدأ مع بداية الحضارة الإنسانية- وواسع لأنه يسير مع مراكز هذه الحضارة ويتنقل معها. ولهذا ليس من السهل تحديد الزمان والمكان الذي بدأت فيه الكتب والمكتبات بالظهور. ولكن ما كشف عنه التاريخ الإنساني حتى الآن وأكدته الحفريات الأثرية يدل على أن أولى المكتبات قد ظهرت في العالم العربي وبالتحديد في بلاد ما بين النهرين ووادي النيل.

لقد اختلف مفهوم المكتبة وتطور مدلولها عبر العصور، وذلك لأن المكتبات القديمة لم تكن كالتي نراها هذه الأيام من حيث تعدد أنواعها ومقتنياتها وطرق تنظيمها وخدماتها. فالسومريون سموها بيت اللوحات الكبير لأنها كانت مليئة بالألواح الطينية. أما الفراعنة فقد أطلقوا عليها قاعة كتابات مصر ومكان إنعاش الروح.وإذا انتقلنا إلى اليونان لوجدنا كلمة (Bibliotheca) للدلالة على المكتبة، والكلمة تعني المكان الذي توضع فيه الكتب، ولا تزال الكلمة شائعة في فرنسا والدول التي تتكلم اللاتينية. أما الرومان فقد استعملوا كلمة (Libri) وتعني الكتاب نفسه ومنها جاءت كلمة (Library) والتي تعني مكتبة للبحث والمطالعة. وتعتبر كلمة مكتبة كلمة حديثة في العالم العربي ولم تستخدم إلا في القرن التاسع عشر. فقد استخدم العرب كلمة دار وكلمة خزانة للدلالة على المكتبة.

ويمكن القول أن أعظم ثلاثة إنجازات حضارية كان لها أكبر الأثر في تطور

الكتب والمكتبات هي:

أولاً: اختراع الحروف الهجائية وبالتالي الكتابة. ويعتبر اختراع الكتابة أعظم اختراع في تاريخ البشرية. فالتأريخ يبدأ بالكتابة، بالإضافة إلى أن اختراع الكتابة هيأ للإنسان إمكانية تسجيل المعرفة والأفكار، وبالتالي نقلها إلى الأجيال القادمة. ولذا فإن تراث البشرية العظيم في العلوم والآداب لم يكن من الممكن أن يصلنا لولا الكتابة. وقد مر اختراع الكتابة في ثلاث مراحل رئيسية هي: الكتابة التصويرية والكتابة الرمزية والكتابة الأبجدية أو الهجائية والتي يرجع الفضل في اختراعها إلى الفنيقيين منذ أكثر من ألف عام قبل الميلاد. وقد انتقلت الكتابة الهجائية إلى بقية أنحاء العالم ومنها تطورت اللغات اليونانية والرومانية وغيرها من اللغات العالمية.

ثانياً: اختراع أدوات الكتابة وخاصة الورق. يجمع كثير من المهتمين على أن الطين كان المادة الأولى للكتابة، كما كتب الإنسان على المعدن وخاصة النحاس والبرونز وعلى الحجر والشمع وغيره. وقد كان البردي أكثر أدوات الكتابة شيوعاً عند قدماء المصريين، حيث استمر استخدامه حتى العصر الأموي. وفي مطلع القرن الثاني قبل الميلاد انتشرت الكتابة على الجلود، وبقيت منتشرة حتى جاء الصينيون فاخترعوا الورق، وعنهم انتقلت صناعته إلى سمرقند، ثم إلى بغداد وعن طريق العرب انتقلت صناعته إلى أوروبا.

ثالثاً: اختراع الطباعة على يد الألماني غوتنبرغ في القرن الخامس عشر، ومن ألمانيا انتقلت الطباعة إلى بقية أوروبا والعالم. وكان شكل الكتاب عند اختراع الطباعة يمتاز بكبر حجمه حتى تطورت آلات الطباعة بشكل واضح في القرن

العشرين حيث ظهرت الآلات الميكانيكية والطباعة الملونة. وقد ساهمت الطباعة -وما زالت- مساهمة فعالة في سرعة انتشار الكتب وغيرها من المصادر، وبالتالي في الانفجار المعرفي والذي كان من نتائجه المباشرة ظهور وانتشار المكتبات بمختلف أنواعها وفي جميع أنحاء العالم.

المكتبات في بلاد ما بين النهرين:

يجمع المؤرخون على أن السومريين هم أول من جمع المحفوظات والسجلات الخاصة. إلا أنه لا يمكن القول أن دور الحفظ تلك كانت مكتبات بالمفهوم الحديث، ومع ذلك فقد حفظت ذلك التراث. ومن المرجح أن أولى المكتبات في بلاد ما بين النهرين هي تلك التي وجدت في المعبد الرئيسي بمدينة كلش والتي تسمى مكتبة تللو (Telloh) حيث ضمت أكثر من 30 ألفاً من الألواح الطينية. كذلك وجدت في معابد مدن أور ونيبور وغيرها حجرات لحفظ الألواح الطينية المسجل عليها أخبار الآلهة والأحداث التاريخية والملاحم الشعرية والسحر والأساطير وغيرها.

ولقد كانت مكتبات الحضارة البابلية والآشورية كالمكتبات السومرية لا تتعدى كونها دوراً للمحفوظات والسجلات. وكانت هذه المحفوظات ترتب موضوعياً في كثير من الأحيان أو حسب أحجامها. أما المشرف على المكتبة فقد كان كاهناً عالي المرتبة في مكتبات المعابد ومن أبناء العائلات النبيلة في مكتبات القصور. وبشكل عام فقد عرفت بلاد ما بين النهرين الأنواع التالية من المكتبات:

1- مجموعة المعبد وتعتبر أولى المكتبات التي عرفت في التاريخ وكانت تشتمل على القوانين المقدسة والطقوس والتراتيل الدينية وسيرة الآلهة وغيرها.

2- دار المحفوظات والسجلات الحكومية، وتأتي في الدرجة الثانية من حيث

الأهمية بعد مجموعة المعبد، وكان يحفظ فيها كل ما يتصل بالضرائب والتشريعات والقوانين وأعمال الملوك والحكام ومصادر الواردات والاتفاقيات والمواثيق.

3- مجموعة سجلات أنساب العائلات والمكتبات الخاصة. وهي عبارة عن سجلات تتضمن شتى الموضوعات التي تهم الأسر كمعاملات التملك والميراث. ومن هذا النوع أيضاً المكتبات الخاصة بالملوك والحكام.

4- سجلات المعاملات والوثائق التجارية كمعاملات البيع والشراء والعقود التي كانت تحفظ لأهميتها والرجوع إليها عند الضرورة.

5- المكتبات المدرسية، وقد وجدت لتدريس النساخ والكهنة والذين كانوا يتابعون الدراسة لعلوم ومعارف عصرهم وخاصة في مجال الشرائع والقوانين.

وبشكل عام فإن المكتبات في بلاد ما بين النهرين قد وجدت في المعابد والقصور والهياكل وكانت تضم ألواحاً طينية في الموضوعات المختلفة كالتاريخ والقانون والعلوم والسحر والعقائد والأساطير، وكانت منظمة أحياناً. ومن أشهر المكتبات التي عرفتها حضارة بلاد ما بين النهرين كلش في تللو ومكتبة نيبور ومكتبة نينوى. أما مكتبة آشور بانيبال فتعتبر أشهر وأعظم مكتبات بلاد ما بين النهرين.

مكتبات وادي النيل (مصر القديمة):

لقد كانت كافة الظروف مهيأة لوجود المكتبات على ضفاف النيل منذ آلاف السنين. فالمصريون القدماء عرفوا الكتابة منذ ما يقرب من خمسة آلاف

عام، حيث سجلوا بها وصاياهم وتعاليمهم المختلفة، والفراعنة المصريون كانوا يشجعون الآداب والفنون. بالإضافة لهذا فقد كانت مادة الكتابة متوفرة للمصريين القدماء من خلال توفر ورق البردي. ولهذا فقد عرفت الحضارة المصرية الأنواع التالية من المكتبات:

1- مكتبات المعابد وتحفظ فيها لفائف البردي التي تتعلق بالطقوس الدينية والأحداث التاريخية بالإضافة إلى أخبار الآلهة والتعاويذ.

2- مكتبات القصور وكانت تضم رسائل الملوك الرسمية والمعاهدات والقوانين والأنظمة وما يتعلق بنظام الحكم.

3- المكتبات الخاصة بالنبلاء والرجال البارزين وكانت تضم أخبار العائلات والمراسلات الشخصية وقصص المغامرات والحروب والأسفار.

ويمكن القول أن ما وصلنا عن المكتبات المصرية القديمة لا يكفي لإعطاء صورة واضحة عن مقتنياتها وتنظيمها، إلا أن المصادر تذكر أن رجال الدين والكهنة كانوا يشرفون عليها. وقد وجدت مكتبات مصرية قديمة في الجيزة وممفيس وطيبة وغيرها من المدن المصرية القديمة.

المكتبات اليونانية القديمة:

تاريخ الكتب والمكتبات عند اليونان ليس واضحاً، وذلك لأن رطوبة الجو كانت عاملاً رئيسياً في تلف وفساد آثارهم المكتوبة. ومع ذلك فقد عثر في جزيرة كريت على ألواح تؤكد أنهم عرفوا الكتابة منذ أيام هوميروس. ولعل نواة المكتبات اليونانية القديمة كانت تلك المجموعات الخاصة التي كان قادة الفكر

اليوناني يحتفظون بها لأنفسهم. فقد ذكر أن ويموقريطس كان يمتلك مكتبة خاصة. وبالرغم من أن مركزاً للوثائق قد وجد في أثينا منذ القرن الخامس للميلاد، إلا أن مكتبات البحث والمكتبات العامة لم تظهر إلا في عهد أفلاطون أي في القرن الرابع قبل الميلاد. ولم تكن مدرسة أفلاطون الوحيدة التي تمتلك مكتبة خاصة فقد سبقتها المدرسة الأبيقورية. إلا أن عصر أرسطو يعتبر العصر الحقيقي للمكتبات اليونانية القديمة. وقد كانت هذه المكتبات مقتصرة على فئة متخصصة كالباحثين والدارسين. وتعتبر هذه المكتبات نقطة البداية في تاريخ المكتبات الأوروبية.

أما البطالسة فقد أنشأوا أول مكتبة عامة في سنة 285 قبل الميلاد وهي مكتبة الإسكندرية في مصر والتي تعتبر أشهر وأضخم المكتبات في العصور القديمة. وبغض النظر عن صاحب فكرة المكتبة، إلا أنها كانت مركزاً ضخماً ومنظماً للتراث الإغريقي ضم ما يقرب من نصف مليون مجلد، وقد كانت المكتبة مقسمة إلى قسمين رئيسيين هما:

1- القسم الأكبر (مكتبة البروكيوم) وأسسها بطليموس الأول.

2- القسم الأصغر في معبد سيرابيس (مكتبة السيرابيوم).

وقد تعاقب على إدارة المكتبة جماعة من كبار العلماء والفلاسفة. كان من أبرزهم كاليماخوس الذي لعب دوراً هاماً في تاريخ المكتبة. فقد كان مسؤولاً عن الفهرس، كما أسندت إليه مهمة جمع التراث اليوناني واستطاع أن يضع فهرساً مصنفاً لأكثر من 90 ألف مجلد من مقتنيات المكتبة.

وقد اختلفت الروايات حول النهاية التي آلت إليها مكتبة الإسكندرية بعد

أن عاشت عدة قرون ذهبية. وتذكر المصادر أنها أحرقت سنة 47 قبل الميلاد على يد يوليوس قيصر أثناء إحراقه مدينة الإسكندرية. وهناك روايات أخرى متعددة ومنها أن المسلمين قد أحرقوها أثناء الفتح الإسلامي لمصر سنة 642م.

المكتبات الرومانية القديمة:

ارتبطت المكتبات الرومانية بالتربية الرومانية، والتي كانت تركز على دور التربية البيتية، على خلاف التربية اليونانية التي أكدت على دور المدرسة والمعلم، وكنتيجة طبيعية لهذا الاتجاه في التربية فقد ظهرت المكتبات الخاصة في بيوت الطبقة المثقفة والغنية وأصبحت سمة بارزة للحضارة الرومانية. وقد فتحت بعض هذه المكتبات الخاصة أبوابها للعلماء والباحثين إلا أنها أصبحت فيما بعد مظهراً من مظاهر الترف.

أما المكتبات العامة ومكتبات الدولة فقد ظهرت متأخرة نسبياً، ولكنها انتشرت بشكل واسع حتى وصل عددها في روما لوحدها في القرن الثاني ستاً وعشرين مكتبة عامة، كذلك ساهم الرهبان في إنشاء الجامعات الرومانية والتي ضمت بين جنباتها مكتبات أكاديمية. بالإضافة إلى هذه المكتبات فقد ظهرت مكتبات في المعابد والهياكل الدينية.

وقد لعبت المكتبات الرومانية دوراً مهماً في حفظها للتراث اللاتيني واليوناني، إلا أنها لم ترق إلى مستوى المكتبات اليونانية لأنها لم تكن ترتبط بمؤسسات تعليمية أو علماء بارزين. وبقيت في ازدهار حتى القرن الرابع الميلادي حيث بدأت الإمبراطورية الرومانية في التراجع أمام ظلمة العصور الوسطى. ومع إطلالة القرن السابع الميلادي اكتسح المد الإسلامي مناطق واسعة من الإمبراطورية

الرومانية ليغرس فكرا وحضارة جديدين.

مكتبات العصور الوسطى في أوروبا:

لقد كان لاجتياح الإمبراطورية الرومانية من قبل البرابرة أكبر الأثر في أفول شمس المكتبات التي كانت تضم خلاصة الفكر اللاتيني والروماني. ولم يسلم من عبث وتخريب البرابرة، إلا المكتبات التي كانت موجودة في الأديرة والكنائس، حيث استطاعت هذه المكتبات المحافظة على بعض الآداب الكلاسيكية اليونانية والرومانية. ونتيجة لهذا فقد أصبحت هذه الأديرة مركزا للدراسات ومكانا لحفظ الكتابات الدينية وغيرها.

وقد ركدت الحركة الفكرية في أوروبا بشكل عام وبقيت نشيطة في بعض المناطق مثل إيرلنده حيث وجد كثير من الأديرة التي كانت تضم قاعات لنسخ المخطوطات. وقد أنشأت الإرساليات التبشيرية الإيرلندية مراكز تابعة للأديرة في شمال انجلترا واسكتلندة وفرنسا وشمال إيطاليا وحتى ألمانيا.

وعندما جاء شارلمان (768–814) ارتفع مستوى التعليم وازدهرت الثقافة حيث أمر بتأسيس المراكز التعليمية والعديد من قاعات المخطوطات والنسخ وخاصة في الأديرة. ومن هذه المخطوطات تمكن المهتمون من معرفة معظم المعلومات عن العالم القديم حيث حفظت الكتاب المقدس وملاحم هوميروس وأشعار فرجيل والمسرحيات اليونانية والأعمال العلمية والقانونية والفلسفية لعمالقة مفكري العصور القديمة.

وقد استخدم الرهبان الرق المجفف كمادة للكتابة واستعملوا أقلاما من ريش الطيور وأنواعا مختلفة من الحبر مختلف الألوان. أما كتاباتهم فكانت عبارة

عن لفافة حيناً ودفاتر تشبه الدفاتر الحالية حيناً آخر. وقد استعملت خزائن ذات أدراج أو دواليب لحفظ الكتب وفي بعض الأحيان كانت هذه الكتب ترتب فوق بعضها وتثبت بسلاسل حديدية خوفاً من السرقة. وكانت ترتب وفقاً لأحجامها أو تاريخ ورودها. وقد استخدمت الفهارس في البداية كقوائم مجردة لأغراض مراجعة الكتب وتفقدها.

ولأن التعليم كان يتم في قاعات الأديرة وتحت إشراف الكهنة ورجال الدين فقد اصطبغ بالصبغة الدينية، وكان لأبناء النبلاء والأغنياء الحظ الأوفر في التعليم. غير أن ظهور المدارس الكاتدرائية في القرن الثاني عشر الميلادي وارتفاع المستوى الاجتماعي والاقتصادي قد نتج عنه ظهور الجامعات مثل جامعة براغ وبولونيا وباريس واكسفورد وكامبردج. وقد لعبت هذه الجامعات دوراً بارزاً في حركة الكتب، إذ أصبحت مراكز لإنتاج وتجارة الكتب، حيث كانت تعين موردين للكتب ونساخين وتشرف عليهم، كما كانت تحتفظ بالكتب التي تدرسها وتؤجرها للتلاميذ. وقد تطورت الأمور مما دعى إلى ضرورة إنشاء المكتبات حيث ظهرت مكتبات الكليات والتي استخدمت في البداية أسلوب الأديرة في التنظيم ثم تحولت إلى الترتيب الموضوعي.

المصادر

1- جيتس، جين. دراسة موجزة في تاريخ الكتب والمكتبات/ تعريب عبد الرحمن عبد الله الشيخ.- الكويت: مؤسسة الوحدة للنشر والتوزيع، 1978.

2- ربحي عليان. المكتبات وأنواعها. (في) المدخل إلى علم المكتبات والمعلومات.- عمان: جمعية المكتبات الأردنية، 1982.

3- سامي مكي العاني. المكتبة.- الموصل: مؤسسة الكتب للطباعة والنشر، 1979.

4- صالح الشريدي. مختصر تاريخ المكتبات. رسالة المكتبة (ليبيا). م4، ع2،4،5 (1977).

5- عامر إبراهيم القنديلجي. الكتب والمكتبات: المدخل إلى علم المكتبات والمعلومات.- بغداد: دار الحرية للطباعة، 1979.

6- عبد الستار الحلوجي. لمحات من تاريخ الكتب والمكتبات.- القاهرة: دار الثقافة للطباعة والنشر، 1985.

7- فؤاد قزانجي. المكتبات والصناعة المكتبية في العراق.- بغداد: دار الحرية للطباعة، 1972.

8- محمد ماهر حمادة. المكتبات في الإسلام: نشأتها وتطورها ومصائرها.- بيروت: مؤسسة الرسالة، 1978.

9- محمد ماهر حمادة. المكتبات في العالم: تاريخها وتطورها حتى مطلع القرن

العشرين.– الرياض: دار العلوم للطباعة والنشر، 1981.

10– همشري، عمر وعليان، ربحي. أساسيات علم المكتبات والتوثيق والمعلومات. – عمان: دار الشروق، 1997.

11– هيسل، الفرد. تاريخ المكتبات/ ترجمة شعبان عبد العزيز خليفة.– القاهرة دار الثقافة للطباعة والنشر، 1980.

12- Johnson, Elmer. Communication: an Introduction to the History of Writing, Printing, Books, and Libraries.- N.Y: Scare Crow, 1973.

13- Olle, James. Library History.- London: Clive Bingley, 1979.

هل أحرق المسلمون مكتبة الإسكندرية القديمة؟

مقدمة عامة:

لقد اتفقت جمهورية مصر العربية ومنظمة الأمم المتحدة للتربية والثقافة والعلوم (اليونسكو) في الفترة الأخيرة على مشروع إعادة بناء مكتبة الإسكندرية القديمة على السواحل المصرية للبحر المتوسط. ويتوقع أن تفتح المكتبة الجديدة أبوابها قريباً. وتهدف المكتبة، في المدى البعيد، إلى ضم ثمانية ملايين كتاب، ليصبح بإمكانها أن تضاهي عظمة مكتبة الإسكندرية القديمة والتي أنشأها اليونان قبل أكثر من 2000 عام.

وسيتم تجهيز المكتبة الجديدة بأحدث الوسائل والتجهيزات لتستقبل فضلاً عن العامة من الناس الباحثين والعلماء في مختلف العلوم. وستشكل المكتبة كذلك مركزاً لترميم ومراجعة المخطوطات النادرة المهددة بالاندثار وبخاصة تلك التي تعود إلى القرون الوسطى وتزخر بها المساجد والأديرة والمتاحف المصرية ولا يوجد حتى يومنا هذا أي دليل شامل لها. ولكي تحقق المكتبة الجديدة أهدافها بكفاءة وفعالية، سوف يتم إدخال الحاسوب (الكمبيوتر) في كافة أعمالها وخدماتها. كما سيتم تطوير قاعدة للمعلومات تقدم خدماتها لجميع الباحثين من مختلف أنحاء العالم.

هذا وتقدر التكلفة الإجمالية لهذا المشروع الهام والضخم بنحو 160 مليون دولار، يخصص 60 مليون منها لإقامة مبنى المكتبة، و40 مليون لتطوير مجموعات الكتب والمصادر والأجهزة اللازمة. كما سيخصص مبلغ 20 مليون دولار لبناء

مركز دولي للمؤتمرات داخل المكتبة. وقد وفرت اليونسكو 60 مليون دولار وستعتمد، بالتعاون مع الحكومة المصرية، في توفير المبلغ المتبقي على التبرعات والهبات. والجدير بالذكر أن اليونسكو كانت قد أطلقت نداءً دولياً لإعادة إحياء مكتبة الإسكندرية القديمة.

وهدفنا هنا إلقاء الضوء على مكتبة الإسكندرية القديمة التي أنشأها البطالسة اليونان في مصر قبل أكثر من ألفي عام، والتي تعتبر أشهر وأضخم مكتبة عرفتها الحضارات القديمة. وسوف نتعرض إلى نشأة المكتبة وأهدافها ومجموعاتها والعاملين فيها. كما نناقش النهاية التي آلت إليها هذه المكتبة الشهيرة.

مكتبة الإسكندرية القديمة:

يقول هيسيل، مؤلف كتاب تاريخ المكتبات، إن إنشاء مكتبة الإسكندرية القديمة يعتبر أهم حدث في تاريخ المكتبات القديمة. وهي أيضاً أشهر مكتبة يونانية، بالرغم من أنها لم تنشأ في بلاد اليونان وإنما في مصر. وقد أنشأها بطليموس الأول عام 285 قبل الميلاد، ثم رعاها بطليموس الثاني رعاية خاصة. حيث مدها بالأموال الضخمة، حتى ضاقت بما فيها من كتب عند منتصف القرن الثالث قبل الميلاد، بعد أن أصبحت تضم مئات الآلاف من لفائف البردي، مما استوجب بناء مكتبة أخرى أصغر منها أنشأها ثالث البطالسة قريبة من المكتبة الأم لتضم حوالي 43 ألف مجلد.

ويقول سترابو أن أرسطو هو صاحب الفكرة وأنه علم المصريين فن تنظيم الكتب. وأن فكرة إنشاء المكتبة قد صادفت هوى في نفس بطليموس الأول، فسارع إلى تنفيذها. وكانت نواتها مجموعة كتب المدرسة الأرسطية التي نقلها

ديمتريوس (350–280 ق.م) بحرا من أثينا إلى الإسكندرية. ومهما يكن من أمر، فإن المكتبة قد وجدت منذ 285 ق.م على وجه التقريب.

ولم تصلنا معلومات أكيدة عن نمط بناء المكتبة. وتقول المصادر أنها كانت على هيئة روضة مكشوفة يحيط بها رواق ذو أعمدة مكونة من طابقين ملحقة به أربع قاعات. وقد خصص الرواق للدراسة والمطالعة أما القاعات الأخرى فكانت مخصصة لخزن الكتب. وقد ضمت المكتبة قاعات للمحاضرات وغرفا للنوم، وأماكن لرصد النجوم ومتحفا. أما مدخل المكتبة فكانت تزينه التماثيل المختلفة لكبار الكتاب والأدباء آنذاك. وكانت هناك حدائق مليئة بالتماثيل تحيط بالمكتبة.

خلال القرنين الأولين من تاريخ المكتبة، كانت رسالتها تقتصر على جمع التراث القومي الإغريقي وحفظه وتنظيمه بحيث يكون في متناول الدارسين والباحثين. ولم تلبث المكتبة أن نهضت بأدوار أخرى هامة في تاريخ المعرفة من ذلك أنها:

أولا– أخذت على عاتقها مسؤولية جمع التراث البشري الموجود في حوض البحر المتوسط والشرق الأوسط والهند وحفظه وتنظيمه.

ثانيا– قامت بترجمة هذا التراث من اللغات المختلفة إلى اللغة اليونانية، وبذلك حفظت لنا ترجمات للتراث الإنساني ومن شتى اللغات.

ثالثا– كانت مركزا للبحوث الأصلية والتجارب العلمية المختلفة.

رابعا– حاولت إيجاد ببليوغرافيا شاملة وموثوقة للأدب اليوناني ولتراث البحر المتوسط والشرق. ولهذا يعتبرها البعض أول مركز ببليوغرافي في العالم.

ومن أجل تحقيق أهدافها استعانت المكتبة بعدد كبير من كبار العلماء والباحثين الذين امتازوا بالثقافة الواسعة والعلم الغزير ليعملوا كأمناء للمكتبة. وكان يعاون هؤلاء في مهمتهم جماعات من الباحثين والجغرافيين والفلكيين والأطباء والرياضيين والمهندسين والمحررين والشعراء والأدباء. وكان معظمهم من اليونان. ولكن وجد بعض العاملين من غير اليونانيين إذا كانوا يستطيعون الترجمة والنقل من وإلى اليونانية. ومن أشهر الذين أشرفوا على مكتبة الإسكندرية القديمة تذكر المصادر:

- ديمتريوس (290–284 ق.م).
- زينودوتس (284–260 ق.م).
- كاليماخوس (260–240 ق.م).
- أبولونيوس (240–235 ق.م).
- ايراتوستينس (235–195 ق.م).
- ايريستوفانس (195–180 ق.م).
- ابولونيوس (180–160 ق.م).
- اريستاركوس (160–145 ق.م).

وقد ارتبطت أهم مسؤوليات المكتبة، بشخصية كتب لها الخلود في تاريخ مكتبة الإسكندرية بشكل عام وفي تاريخ الفهرسة والببليوغرافيا بشكل خاص وهي شخصية كاليماخوس.

وكان على العاملين في مكتبة الإسكندرية أن يناضلوا مع العدد الضخم من ملفات البردي للتأكد من هوية كل ملف ومحتوياته ويصنف بعد ذلك ثم يحقق. وكانت عملية التحقيق هذه أصعب العمليات، حيث تحتاج إلى جهد وعلم كبير وخاصة في اللغات والإنسانيات. هذا وقد كان عدد مواد المكتبة كبيرا جدا. ويصعب إعطاء رقم تقريبي لعدد مقتنياتها وذلك بسبب تضارب الروايات. ولكن المصادر المختلفة تؤكد أن الرقم كان محصورا ما بين 500 ألف و700 ألف مادة مكتبية. وقد تمكنت مكتبة الإسكندرية من جمع هذا العدد الضخم من المواد بعدة طرق أهمها:

أولا- أرسل البطالسة الوكلاء ليجوبوا أرجاء العالم المعروف آنذاك بحثا عن الكتب لشرائها أو نسخها أو حتى سرقتها.

ثانيا- أصدر بطليموس الثالث أمرا ألزم بموجبه أن تفتش السفن التي ترسو في ميناء الإسكندرية، فإذا وجد فيها كتبا أخذت إلى المكتبة ونسخت على ورق البردي إذا لم تكن موجودة لدى المكتبة واحتفظت المكتبة بالأصل وأعطت المنسوخ لصاحب الكتاب. كما ألزم بطليموس الثالث جميع القادمين إلى الإسكندرية تسليم ما لديهم من كتب للمكتبة ليتم نسخها.

ثالثا- استعار بطليموس الثالث من أثينا أعمالا هامة من أجل نسخها، بعد أن قدم ضمانات مالية كبيرة لذلك. وقد فضل التخلي عن هذه الضمانات مقابل الاحتفاظ بالنسخ الأصلية لهذه المؤلفات في مكتبة الإسكندرية وإرسال نسخ عنها إلى أثينا.

وبسبب ضخامة المقتنيات فقد كانت مكتبة الإسكندرية مقسمة إلى قسمين

رئيسيين:

- المكتبة العظمى، وتقع في الحي الملكي أو حي الإسكندرية والذي كان يعرف بالبروكيوم.
- المكتبة الصغرى، وتقع في حي السيرابيوم، في المعبد المسمى بنفس الاسم، وكان من أشهر المعابد آنذاك.

نهاية المكتبة:

لقد تضاربت القصص حول نهاية مكتبة الإسكندرية. فقد قيل أنها أحرقت عام 47 ق.م عندما أضرم قيصر النار في مدينة الإسكندرية، لكن هذه الرواية لم تسلم من الشك. ولكن عنصر الحقيقة فيها أن الحريق قد أصاب المكتبة بخسائر ولكنها كانت بسيطة. وقد عوضتها تلك الهدية الضخمة من الكتب التي يقال أن أنطونيو قدمها هدية إلى كليوبترا والتي بلغت 200 ألف مادة كان قد استولى عليها من مكتبة برغاموم في تركيا. ويكاد يجمع المؤرخون على أن المكتبة العظمى خربت على يد أورليان في أواخر القرن الثالث الميلادي. أما المكتبة الصغرى (السيرابيوم) فقد عاشت ما يقرب من مئة عام بعد ذلك.

ويزعم بعضهم أن العرب هم الذين أحرقوا مكتبة الإسكندرية إبان الفتح الإسلامي لمصر. ويمضي هؤلاء في دعواهم حتى ليقولوا أنه عندما تم الفتح الإسلامي للإسكندرية عام 642م، أتى يوحنا أحد علماء الإسكندرية إلى عمرو بن العاص وطلب منه الإفراج عن كتب الحكمة من خزائن المكتبة. فسأله عمرو عن قصة هذه الكتب وعن محتوياتها فأخبره. فقال له عمرو أنه لا يستطيع أن يقطع برأي ما لم يستأذن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب. وقد أرسل عمرو إلى الخليفة

عمر كتابا بهذا الشأن فأتاه الجواب يقول: "إذا كانت كتبها متمشية مع تعاليم الإسلام فقد أغنى الله المسلمين عنها بكتابه الكريم. وإن كانت تخالف تعاليم الإسلام فلا حاجة إليها". فقام عمرو بن العاص بتوزيعها على حمامات الإسكندرية لتحرق كوقود لمدة ستة أشهر.

ومما يؤسف له أن أول من روى هذه القصة هو المؤرخ عبد اللطيف البغدادي الذي كان معاصرا لصلاح الدين الأيوبي في كتابه "الموعظة والاعتبار" وقد تلقف المؤلفون الغربيون هذه التهمة وبدأوا يدرسونها ويدعمونها ويؤيدونها لكي يثبتوا عداء الإسلام والمسلمين للكتب والمكتبات والعلوم والحضارة بشكل عام.

وقد انبرى لدراسة هذه القضية عدد من العلماء الذين ترفعوا عن التعصب والتزموا النزاهة والتجرد أمثال جيبون الذي ينكر هذه القصة كليا ويعتبرها غريبة. أما لوبون غوستان فيعتقد بأن العرب تأبى مثل هذه الأعمال. كما يشك سيديو في الرواية لأن أحدا من المؤرخين المعاصرين للفتح الإسلامي لم يرو هذا الخبر. ونجد بتلر يتصدى للقصة لإثبات الحقيقة وهو يعتقد أن العرب قدموا مثلا يحتذى بالحفاظ على التراث، حينما قاموا بجمع الكتب القديمة ونقلها إلى الأجيال القادمة.

وفي هذا الخصوص تقول المستشرقة زيفرد هونكه في كتابها "شمس العرب تسطع على الغرب": عندما دخل العرب الإسكندرية عام 642م، لم يكن هناك منذ زمن طويل مكتبات عامة كبيرة. وأما ما اتهم به عمرو بن العاص من إحراق لمكتبة الإسكندرية، فقد ثبت في أكثر من مناسبة ومن أبحاث مستفيضة أنه مجرد اختلاق

لا أساس له من الصحة، (عمرو بن العاص) هو نفسه الـذي ضـرب المثل بتسـامحه طوال فتوحاته، فحرم النهب والسلب والتخريب، وضمن للمغلوبين حرية ممارسـة شعائرهم الدينية المتوارثة.

بشكل عام، فإن عددا من المؤرخين الذين يرفضـون التعصـب قـد درسـوا المشكلة وتوصلوا إلى ما يلي:

أولا– أن يوحنا (أحد علماء الإسكندرية) الـذي ذكـر في الرواية قـد تـوفي قبـل الفتح الإسلامي لمصر بأكثر من عشرين عاما.

ثانيا– أن المكتبة بقسـميها (البروكيوم والسـيرابيوم) لم يكـن لها أي وجـود عـام 416م، مما يدل على أنه ليس للفتح الإسلامي لمصر أيـة علاقـة بإحراقـها، لأنها لم تكن موجودة أصلا عندما فتح المسلمون مصر عـام 642م بقيـادة عمرو بن العاص.

ثالثا– أن معظم مقتنيات المكتبة كانت مدونة على رقوق (جلود)، وخاصة المـواد التي جائتها من مكتبة برغاموم، وهذه لا تصلح للوقود.

رابعا– أن قصة إحراق المكتبة مـن قبـل المسـلمين لم تظـهر إلا بعـد 500 عـام مـن الحادثة. وأن الروايات تشير إلى واحدا من أقسام المكتبـة الرئيسـية وهـي البروكيوم والذي أحرق من قبل قيصر.

خامسا– أن مؤرخـي القرنـين الخـامس والسـادس الميـلادي لم يذكـروا شيئـا عـن وجود المكتبة في تلك الفترة.

سادسا– كـان بإمكـان المقوقـس، حـاكم مصـر أيـام الفتـح الإسـلامي، أن ينقـل

محتويات المكتبة عندما عقد صلحه مع المسلمين، لو كانت موجودة فعلا.

سابعا- يضاف إلى هذا كله أن حرق الكتب والمكتبات يتعارض مع مبادئ الدين الإسلامي التي تحض على العلم. وهذه الأقاويل روج لها المؤرخون الغربيون لتغطية جريمة إحراق الصليبيين لمكتبة طرابلس الشام الضخمة عام 1009م.

وهكذا يبدو واضحا أن المسلمين لم يحرقوا مكتبة الإسكندرية القديمة.

ويقول الأستاذ منصور محمد سرحان في كتابه "المكتبات في العصور الإسلامية": يبدو أن قصة حرق المسلمين مكتبة الإسكندرية قصة مختلقة لا وجود لها من الصحة، ويمكن تأكيد ذلك من خلال المعطيات التالية:

1- يعد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه من بين أشهر قادة المسلمين وأبرزهم. اتصف بحصافة الرأي والحكمة وحبه للعلم والمعرفة، فهو الذي أشار على أبي بكر بجمع القرآن لئلا يذهب منه شيء بموت أهله، فجمع ما كان مدونا عند الصحابة ومن صدور الرجال وسلمه إلى أبي بكر، فظلت الصحف عنده حتى توفي سنة (13هـ) وتولى أمرها عمر بن الخطاب إلى أن توفي وسلمها إلى عثمان سنة 23 للهجرة. فكيف برجل بذل جهدا كبيرا في المحافظة على القرآن الكريم بجمعه الصحف المدونة لدى الصحابة يأمر بحرق كتب قد يحتاجها المسلمون في أمور دنياهم. ولو أن الخليفة عمر كان كذلك لما جمع القرآن واكتفى بأن يحفظ في صدور الرجال. غير أن جمعه للقرآن يدل دلالة واضحة على أنه رجل يحافظ على النصوص المكتوبة، وضرب لنا مثلا في ذلك من خلال ما قام به من جهود مضنية بجمعه القرآن. وهو

القائل: "يا أيها الناس، تعلموا كتاب الله تُعرفوا به، واعملوا بـه تكونـوا مـن أهله".

2- كلف عمر رضي الله عنه ثلاثة من نسابي العرب، وهم عقيل بـن أبـي طـالب وجبير بن مطعم، ومخرمة بن نوفل، بأن يعـدوا لـه جـدولا بالأنسـاب. وهـذا الطلب من الخليفة عمر يعطي دلالة واضحة على مدى حرصه على المحافظـة على الأمور الهامة مكتوبة لا محفوظة في الصدور يتناقلها الناس وقـد يصيبـها التحريف.

3- ارتبط جمع الشعر العربي القديم حفظا له من النسيان بالجهود التي بذلها عمـر بن الخطاب رضي الله عنه. ويروى أنه كتب إلى المغيرة بن شعبة المتوفـى سـنة (50هـ/ 670م) طالبا إليه أن يسأل الشعراء عما نظموه بعد ظـهور الإسـلام. كما تم جمع أشعار الأنصار في عهد عمر بن الخطاب.

4- رفض الفرد ج. بتلر في كتابه "فتح العرب لمصر" قصـة حـرق العـرب لمكتبـة الإسكندرية واستند في رفضه لتلك القصة إلى الأمور التالية:

- أن يحيى النحوي الذي اسمه اليوناني حنا فيليبوس توفي قبـل فتـح العـرب لمصر بأكثر من عشرين عاما.

- أن مكتبة الإسكندرية بفرعيها كانت قد احترقت قبل قدوم المسـلمين إلى مصر بزمن طويل.

- أن أغلب الكتب كانت مكتوبة على رقوق، والرقوق كمـا هـو معـروف لا تصلح للوقود.

5- تؤكد المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه في كتابها "شمس العرب تسطع على الغرب" أن حرق العرب مكتبة الإسكندرية ما هو إلا مجرد محض افتراء، فتقول: "وعندما دخل العرب الإسكندرية عام 642م لم يكن هناك، منذ زمن طويل، مكتبات عامة كبيرة. وأما ما اتهم به قائدهم عمرو بن العاص من إحراق مكتبة الإسكندرية، والذي يعبر به حتى اليوم عن صورة مفزعة للبربرية والوحشية، فقد ثبت في أكثر من مناسبة وبعد أبحاث مستفيضة، أنه مجرد اختلاق لا أساس له من الصحة".

6- إن قصة حرق مكتبة الإسكندرية من قبل العرب المسلمين لم تظهر إلا بعد مرور 500 عام على الحادثة.

7- المعروف أن مكتبة الإسكندرية كانت تتكون من قسمين هما البروكيوم والسيرابيوم، وقد أحرق قيصر القسم الرئيسي من المكتبة وهو البروكيوم. وعلى أية حال فقد اختفت المكتبة من الوجود قبل فتح العرب لمصر بأكثر من مائتي سنة.

8- لم يشر مؤرخو القرنين الخامس والسادس الميلادي إلى وجود هذه المكتبة في تلك الفترة.

وبهذا فإن ما أشيع من قصة حرق العرب مكتبة الإسكندرية ما هي إلا مجرد محض افتراء، خاصة إذا ما عرفنا أن أول من روج إشاعة حرق المكتبة من المؤرخين أبو الفرج الملطي الذي كان أبوه يهوديا وتنصر، فشب أبو الفرج على النصرانية وتشبث بها.

تلك هي مكتبة الإسكندرية القديمة التي لعبت دورا هاما في تاريخ الحضارة

اليونانية، بل في تاريخ الحضارة الإنسانية كلها. فقد حفظت لنا التراث اليوناني القديم، كما حفظت لنا ترجمات للتراث الإنساني في شتى لغات حوض البحر المتوسط والشرق الأوسط والهند. والفضل في ذلك يرجع إلى العلماء والباحثين الذين عملوا فيها. كما يرجع إلى المكان التي تميزت بها الإسكندرية ومصر على خارطة العالم القديم. وبالرغم من انتشار الكتب والمكتبات خلال القرون الثلاث السابقة للميلاد في كثير من مراكز الحضارة اليونانية في ربوع الشرق القديم مثل مقدونيا وانطاكيا وورودس وبرجاموم والقدس، فإن أيا من مكتبات تلك الفترة لم يرق إلى مستوى مكتبة الإسكندرية، لا في الحجم ولا في الدور الإنساني والحضاري الذي لعبته. وبعد، أليست مكتبة الإسكندرية القديمة بحاجة إلى إعادة بناء؟

قائمة المصادر

(1) جيتس، جين. دراسة موجزة في تاريخ الكتب والمكتبات. الكويت: مؤسسة الوحدة للنشر والتوزيع، 1978.

(2) ربحي مصطفى عليان. مكتبة الإسكندرية القديمة: دراسة تاريخية. المجلة الثقافية. ع17 (1988).- ص 45-54.

(3) عبد الستار الحلوجي. لمحات من تاريخ الكتب والمكتبات. القاهرة: دار الثقافة للنشر والتوزيع، 1985.

(4) عبد اللطيف الصوفي. لمحات من تاريخ الكتب والمكتبات. دمشق: دار طلاس للدراسات والنشر، 1987.

(5) محمد ماهر حمادة. المكتبات في العالم: تاريخها وتطورها. الرياض: دار العلوم، 1981.

(6) محمد مهيدات. حريق مكتبة الإسكندرية. رسالة المكتبة.- م13، ع2 (حزيران 1987).- ص 20-25.

(7) منصور سرحان. المكتبات في العصور الإسلامية.- البحرين: دار فخراوي، 1997.

(8) هيسل، ألفريد. تاريخ المكتبات. القاهرة: دار الثقافة للطباعة والنشر، 1980.

9- Johnson, E.D. History of Libraries in the Western World. Metuchen: The Scarecrow Press, 1971.

10- Olle, J. Library History. London: Clive Bingley, 1971.

11- Rider, A. History of Books and Libraries. Metucher: The Scarecrow Press, 1976.

العوامل المؤثرة في ظهور مكتبات الحضارة العربية الإسلامية

(أ) تطور الكتابة العربية.

(ب) الخط العربي.

(جـ) صناعة الورق في الحضارة العربية الإسلامية.

(د) حركة الوراقين في الحضارة العربية الإسلامية.

(هـ) حركة التدوين والتأليف في الحضارة العربية الإسلامية.

(و) المخطوط العربي الإسلامي.

(أ) تطور الكتابة العربية:

الكتابة هي التدوين لأية لغة من اللغات، وهي تستند عادة إلى معيار صوتي، ذلك أن الكتابة تحاول أن ترمز إلى جميع الأصوات الهامة في اللغة. ويعتبر اختراع الكتابة أعظم اختراع في تاريخ الإنسانية. ويمكن اعتبار بداية ظهور الكتابة بداية عهد جديد، وذلك لأن ظهور الكتابة هيأ للإنسان إمكانية تسجيل المعرفة والأفكار وبالتالي نقلها إلى الأجيال القادمة. ولهذا فإن تراث الإنسانية بشكل عام، والتراث العربي الإسلامي بشكل خاص لم يكن ليصلنا لولا الكتابة.

والكتابة عامل أساسي في الحضارة، إذ أنه بالكتابة يقيم الإنسان اتصالا مع أخيه الإنسان، كما أنه يدون ما يدور ويجري حوله للأجيال القادمة. وفي الكتابة يخزن الإنسان عصارة تجاربه وتفاعلاته. وما الحضارة إلا سلسلة من التفاعلات بين الإنسان والإنسان وبين الإنسان والطبيعة.

لقد ظهرت أول بوادر للكتابة قبل حوالي 5500 سنة في الهلال الخصيب، وبالضبط مع الحضارة السومرية، حيث بدأ الإنسان يتعاطى الزراعة. وقد ازدهرت هذه الحضارة لحوالي 2000 سنة، وعرفت كتابتهم بالمسمارية أو الإسفينية. وكانت تكتب على الطين ومن ثم يشوي الطين ليصبح فخارا.

وكانت الكتابة في بداية عهدها عبارة عن مسلسل من الصور توحي تماما بما رسم فيها. وفي مرحلة أكثر تقدما تطورت إلى صور رمزية توحي بمعنى معين. مثلا الشمس توحي بالنهار والوقت. وما زلنا حتى اليوم نستعمل لغة الصور كما في إشارات المرور. وقد تكون لدى السومريين حوالي 2000 صورة رمزية، مما خلق صعوبة واضحة، فسارعوا إلى استعمال رموز توحي بأصوات معينة. وهذه الرموز

الصوتية كانت خطوة أساسية إلى الإمام في تطوير الكتابة.

ومع الحضارة المصرية القديمة التي تلت الحضارة السومرية تطورت الكتابة (الهيروغليفية) لتدوين الكتابات الدينية والمقدسة. واستنبط المصريون القدامى أبجدية من 24 رمزا يمثل كل واحد منها حرفا ساكنا معينا. وهكذا صار لديهم طريقة للكتابة.

وهنا جاء دور الفينيقيين سكان لبنان (حوالي 1100 ق.م) الذين كوّنوا حضارة مبنية على التجارة دامت 400 سنة وأسسوا مستوطنات في حوض المتوسط، والأبجدية الفينيقية تعتبر أول أبجدية عملية. وكان الفينيقيون قد استعانوا بالكتابة السومرية والمصرية القديمة وطوروا أبجديتهم حيث صار كل حرف يمثل صوتا معينا. وصارت حروفهم أو رموزهم واضحة سهلة للكتابة. وكانت أساسا للكتابة في الشرق والغرب.

وطور الإغريق أبجديتهم التي نقلوها عن الفينيقيين، وفي حوالي سنة 403 ق.م صار لدى الإغريق أبجديتهم العملية والتي أصبحت أساسا للأبجدية في الغرب. وكانت هذه الأبجدية هندسية الشكل لما كانت تحفر على ألواح حجرية ثم تطورت وصارت أكثر سلاسة لما صارت تخط باليد. وأخذ الرومان الأبجدية عن الاغريق وكونوا الأبجدية الرومانية، فأبقوا إثنى عشر حرفا كما هي، وعدلوا سبعة أحرف كما أنهم أعادوا إلى الاستعمال ثلاثة أحرف كان قد بطل استعمالها لدى الاغريق وهكذا تكونت الأبجدية الرومانية. وقد نقل الإغريق أبجديتهم عن الفينيقيين وأضافوا إليها الأحرف المصوتة كما أنهم كانوا الواسطة لنقل الأبجدية الفينيقية إلى الغرب.

ىاسم دىك الدى

حلى حلى الاىسر

مر علو اورا و

دىك الاكرم ا

لدى علم ىالملم

علم الاىسر مالم ىعلم

لتجعار مسطور ١٤١٩

(بدايات الكتابة العربية)

وقد تعايشت الأبجدية الرومانية والإغريقية لمدة من الزمن، ولما صارت اليونان قسما من الإمبراطورية الرومانية (سنة 146 ق.م) صارت اللغة الإغريقية لغة العلوم في كافة أرجاء الإمبراطورية. وفيما بعد، وبعدما سيطرت الإمبراطورية الرومانية على بلاد الغرب، صارت اللغة اللاتينية والأبجدية الرومانية هي المسيطرة في بلاد أوروبا. وهذه الأبجدية، مع تعديلات بسيطة، لم تزل في الاستعمال حتى يومنا هذا في الغرب.

لم يهتم العرب بالكتابة في عصر الجاهلية، ولذا جاءت أبجديتهم متأخرة بعض الوقت عن باقي الأبجديات. ويعود السبب إلى أن معظم القبائل العربية كانت من البدو ولم يكن لهؤلاء حاجة أو ثقة بالكتابة.

وبدأ انتشار الكتابة في شمالي الجزيرة العربية، وفي الحيرة ومن بعدها في الحجاز ومن ثم في مكة. ولم تأخذ الكتابة العربية دورها الكبير إلا عندما قرر الخلفاء الراشدون تدوين القرآن الكريم، وكان ذلك في عهد الخليفة عثمان بن عفان في منتصف القرن السابع الميلادي. ومع انتشار القرآن الكريم والدعوة الإسلامية في عموم الأقطار، انتشرت الكتابة العربية انتشارا واسعا حتى صارت في يومنا هذا من أكثر الكتابات انتشارا في العالم. والكتابة العربية استعملت في لغات عديدة غير عربية منها الفارسية والأفغانية والتركية (قبل أتاتورك) وغيرها.

والأبجدية العربية في الأصل مشتقة عن الكتابات السامية التي اشتقت بدورها عن الأبجدية الفينيقية التي تألفت أصلا من 22 حرفا هجائيا واضحة وسهلة ولكن أحرفها صامتة. وقد ساهم السريان في تطوير وتحسين هذه الأبجدية التي وصلت إلى العرب عن طريق الأنباط. والأنباط شعب عربي سكن شمالي الجزيرة العربية وكانت عاصمتهم البتراء ولغتهم مزيج من العربية والآرامية. وقد تأثر الأنباط بحضارة الآراميين وكتابتهم، وكان لهم نوعان من الخط، خط يشبه الخط

الكوفي في خطوطه المستقيمة وزواياه، وخط نسخي حرفه أكثر استدارة وأسهل كتابة. وعن طريق القوافل التجارية التي كانت تنتقل بين البتراء وحوران من جهة والكوفة والحجاز من جهة أخرى، انتقل الخط النبطي إلى العرب.

وبما أن الأبجديات السامية تألفت من 22 حرفا، وكانت تشكو من كون أحرفها صامتة، فقد عمل العرب على إجراء تحسينات هامة عليها. فقد أضافوا ستة حروف إلى الأبجدية سموها (الروادف) وهي ث خ ن ض ظ غ، فصارت أبجديتهم من 28 حرفا وإذا أضفنا (لا) صارت 29 حرفا. وقد أدخلت هذه الحروف لأن قيمتها الصوتية تشكل جزءا هاما من اللغة العربية. بالإضافة إلى ذلك عمل العرب على رفع الإبهام والغموض بين الأحرف الصامتة، فقد أدخل العرب الحروف المصوتة (الحركات) أي الكسرة والضمة والفتحة، وسموها أبعاض الحروف. وهذه الحركات لها تأثير جوهري في معني الكلام– مثل قتل (بالفتح) هي عكس قتل (بالضم).

كذلك أضاف العرب إلى الكتابة علامات خاصة هي (الضوابط) مثل الشدة والمدة، وعلامة الوصل والسكون وعلامة الوقف (النقطة). كما أن العرب أدخلوا الهمزة، وهي غير الألف ولها أهميتها في الكتابة رغم صعوبة كتابتها في الإملاء.

وما زال العرب حتى يومنا هذا يعملون على إجراء تحسينات على الكتابة العربية وقد تألفت لجان عديدة لتقديم مقترحات بهذا الخصوص كما أن هناك محاولات فردية واقتراحات متعددة منها ما يصعب قبوله ومنها ما هو قريب من المعقول. ومن المقترحات التي لم تلق قبولا استعمال الحرف اللاتيني في كتابة العربية كما فعل أتاتورك في الكتابة التركية. وهناك اقتراحات عدة ما زالت في التداول وتحت الدراسة.

قائمة المصادر

(1) أحمد السيد دراج. صناعة الكتابة وتطورها في العصور الإسلامية.- مكة: رابطة العالم الإسلامي، 1981.

(2) أحمد شوقي النجار.- الأبجدية العربية: لمحة ونظرة.- الدارة: مج 8، ع2 (1982).- ص 158-177.

(3) حسين مطر. نشأة الكتابة وتطورها.- الفيصل.- س1، ع10 (1978)- ص 131-138.

(4) ربحي مصطفى عليان. تطور الكتابة والتدوين والتأليف في الحضارة العربية الإسلامية. الخفجي.- ع1، م20 (نيسان 1990).- ص 30-35.

(5) صفوان التل. تطور الحروف العربية.- عمان: المؤلف، 1980.

(6) عبد الرؤوف الخنيسي. بعض الملامح التاريخية عن الكتابة والكتاب.- الناشر العربي.- ع4 (1985).- ص 108-114.

(7) عبد العزيز الدالي. الخطاطة: الكتابة العربية.- القاهرة: مكتبة الخانجي، 1980.

(8) محمد شوقي أمين. الكتابة العربية.- القاهرة: دار المعارف، 1978.

(9) محمد ماهر حمادة. المكتبات في الإسلام: نشأتها وتطورها ومصائرها.- بيروت مؤسسة الرسالة، 1986.

(10) محمود عباس حمودة. تاريخ الكتاب الإسلامي.- القاهرة: دار الثقافة للطباعة والنشر، 1979.

(ب) الخط العربي

الخط هو الوسيلة التي نعبر بها عما في نفوسنا وتدل على الكلام وهو لغة التفاهم بواسطة القلم دون اللسان. وقد قيل أن الخط الحسن يزيد الحق وضوحا ومن كتب بسم الله الرحمن الرحيم فحسنها أحسن الله إليه.

إن البحث في أصل الخط العربي والمكان الذي نشأ فيه وكيفية نشوئه وتطوره عمل متعب ويحتاج إلى التعمق والتنقيب والتحري ولهذا هناك أراء متعددة في ذلك. وتعتبر دراسة الخط العربي وتطوره ضرورة علمية وتاريخية للتعرف على الحضارة الإسلامية. ويمكن دراسة الخط العربي بالاعتماد على مصادر مختلفة كالمصاحف القديمة وأوراق البردي الإسلامية والنقوش المختلفة والمسكوكات والأقمشة والطروز والخشب والأواني والخواتم والأدوات العلمية بالإضافة إلى الرسائل والمؤلفات النظرية عن الخط العربي. وهناك أراء ونظريات مختلفة حول أصل الخط العربي منها:

أولا: نظرية التوقيف، وتقول أن الخط العربي توقيف من الله سبحانه وتعالى على آدم عليه السلام الذي كتب به الكتب المختلفة، وحينما غرقت الأرض أصاب كل قوم كتابهم. وهذه النظرية أوردها مفكرون وكتاب مسلمون منهم ابن النديم والصوفي وهي لا تقوم على أساس أو دليل علمي.

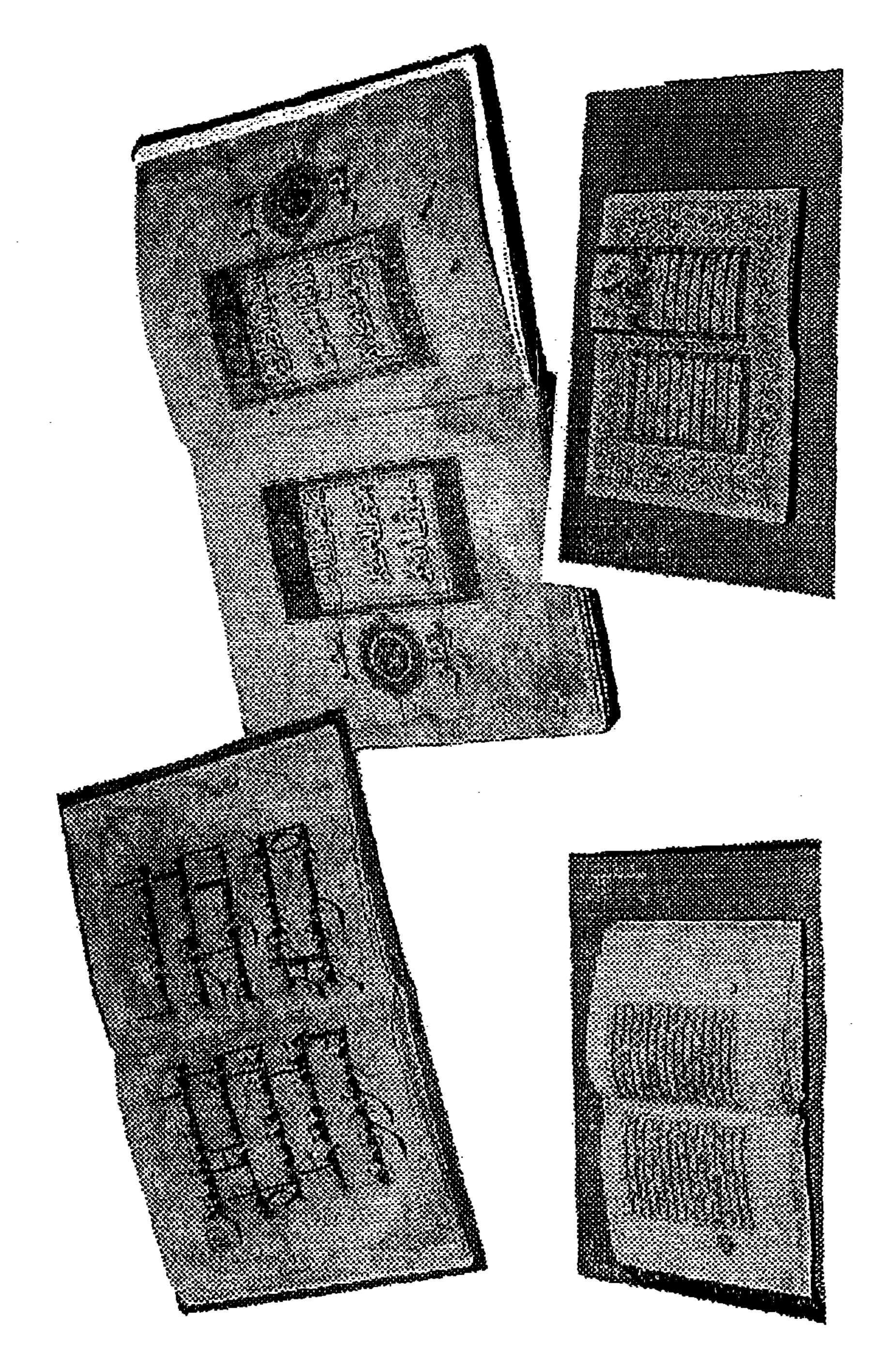
ثانيا: النظرية الجنوبية الحميرية، وتقول بأن الخط العربي مشتق من المسند الحميري. ولكن لا يوجد دليل مباشر على علاقة الخط الحميري بالعربي وقد ركز على هذه النظرية ابن خلدون في مقدمته وقال أن انتشار سلطان التبابعة في اليمن ساعد على نشر كتاباتهم وتأثر الخط العربي بالحميري وخاصة عند أهل الحجاز.

ثالثا: النظرية الشمالية الحميرية وممن نادى بها البلاذري الذي يرى أن ثلاثة من قبيلة طي قاسوا هجاء العربية وقابلوه على هجاء السريانية وعلموا أهل الأنبار الذين علموا أهل الحيرة. ورغم أن الحيرة كانت مركزا من مراكز الخط العربي في وقت ما إلا أنه لم يثبت انتقال الكتابة العربية من الحيرة إلى الحجاز لطول المسافة والعكس هو الثابت.

رابعا: النظرية الحديثة وتقول بأن الخط العربي مشتق من الخط النبطي نتيجة لاتصال العرب واحتكاكهم التجاري بالأنباط وهم قبائل عربية نزحت من شبه الجزيرة العربية إلى أطرافها الشمالية واستمرت دولتهم ما بين القرن الثاني قبل الميلاد إلى القرن الثاني بعد الميلاد. وقد تأثر الأنباط بالآراميين ولهذا تطور الخط النبطي من الخط الآرامي. هذا وتمتاز الحروف النبطية بمميزات عامة مشابهة للحروف العربية من ذلك أن عدد حروفها 22 حروفا. وأنها تبدأ من اليمين إلى اليسار، ثم هناك ميزة الإسناد حيث يسند الحرف على ساق الحرف الذي يليه، وهناك ربط بديل الحرف الذي يليه أيضا وطريقة إخراج حرفين مثل لا وكذلك خلو الخط النبطي من الأعجام وإسقاط حرف الألف من بعض الكلمات مثل حارث تصبح حرث. وربط حروف الكلمة مع بعضها البعض إلا حروف الدال والزين والواو واستعمال أشكال لبعض الحروف في أوائل الكلمة تخالف أشكالها إذا جاءت في آخر الكلمة كالهاء والياء. كما أن تاء التأنيث تكتب مفتوحة مثل سنت بدل سنة.

تطور الخط العربي:

لقد كان الخط العربي في العصر الإسلامي يضم نفس الحروف التي استخدمت



(مصاحف شريفة بأنماط مختلفة من الخط العربي)

زمن الجاهلية تقريبا إلا أنه حدث تطور في بعض حروفه كالألف والدال والهاء والباء. وهناك حرفان لا يوجد ما يقابلهما في الكتابات الجاهلية وهما الزاي والصاد.

في صدر الإسلام استمر العرب في حذف حرف الألف من بعض الأسماء عند وقوعه في وسط الكلمة مثل اسحق، جمدى وهذا هو الأسلوب النبطي القديم، كذلك استعمل المسلمون التاء الطويلة المفتوحة والتاء المربوطة. وظاهرة أخرى يمكن ملاحظتها وهي وجود عبارة بسم الله الرحمن الرحيم على البرديات والمسكوكات وشواهد القبور الإسلامية، كذلك كتابة التاريخ الهجري على النقوش الإسلامية بعكس الأنباط الذين أرخوا حسب حكم ملوكهم والجاهليين الذين أرخوا بعام الفيل.

كذلك فإن حرف الألف قد ظهر أكثر استقامة في المسكوكات الإسلامية كما حدث تطور في حرف الدال من ב إلى ﻛ كما ظهرت السين في نهاية الكلمة هكذا (س) لأول مرة في الكتابات الإسلامية.

أما في العصر الأموي فقد تطور الخط العربي بشكل ملحوظ واتخذ صورا جديدة متطورة فحرف الألف كان ⌊ في النبطي و / في الجاهلي و ⌊ بالراشدي أصبح ⌊ في الأموي. كذلك فإن حرف السين في بسم أصبح خاليا من أسنانه المعروفة كما تطور حرف الهاء من ﻫ إلى ﻫ كما تميز الخط العربي في العصر الأموي بظاهرة الزخرفة وذلك بإضافة عناصر لا علاقة لها أصلا بالحرف وقد اشتهر من الخطاطين خالد بن أبي الهياج وشعيب بن حمزة. كما وضعت في هذه الفترة قواعد هندسة الخط العربي وقواعد كتابته من حيث المسافة بين الحروف والكلمات والحجم والدقة لكل حرف.

وفي العصر العباسي نجد تفننا وتجديدا في الخط العربي وأنواعا جديدة تأخذ في الظهور. وقد بقي لنا من مخطوطات تلك الفترة المصاحف التي كانت تكتب بالخط الكوفي، بينما كانت الكتب تكتب بخطوط مستديرة وقد وجدت النقط والشكل في بعض المخطوطات.

وعندما آلت الخلافة الإسلامية إلى الأتراك لم تقل عنايتهم بالخط بل زادوا عليه بعض الخطوط كالديواني، بل كان السلطان محمود الثاني اشهر خطاطي عصره وكان للخطاطين في العهد العثماني مركز جليل.

وقد ظهرت تسميات عديدة للخط العربي أشهرها:

أولا: حسب أسماء المدن: الكوفي- البصري- البغدادي.

ثانيا: حسب اسم الورق: خط الدرج (وهو الملف الكامل) خط الطومار وهو سدس الدرج.

ثالثا: حسب الأحجام: خط النصف- خط الثلث- خط الثلثين- خط الغبار (الدقيق جدا).

رابعا: حسب طبيعة الحرف: الخط الجاف ويكتب به على الحجارة، الخط اللين وفيه تقوير وتدوير ويكتب عادة على الورق.

أما مدارس الخط العربي فهي:

أولا: المدرسة العراقية والشامية ومنها الضحاك والمحرر وابن مقلة.

ثانيا: المدرسة المصرية، وقد استخدم السلاجقة خط النسخ واستخدم المماليك خط الثلث.

ثالثا: المدرسة التركية، الخط الديواني والخط المملوكي وهو خط التواقيع السلطانية.

رابعا: المدرسة الفارسية وظهر فيها خط التعليق والنستعليق وهو يجمع بين النسخ والتعليق كذلك الخط الديواني الذي أخذوه من الأتراك.

أما أشهر أئمة الخط فهم ابن مقلة وهو أول خطاط عراقي، ابن البواب، ياقوت المستعصمي إمام الخطاطين، حمد الله ابن الشيخ، الحافظ عثمان، مصطفى الراقم، حامد الأموي، هاشم محمد البغدادي، سيد إبراهيم، مكاوي، عبد القوي والشحات وغيرهم.

ويمتاز الخط العربي بإمكانية الزخرفة على وجوه متعددة كما يمتاز بشدة حيويته وذلك لمطاوعته واستدارته وبنائه على أصل هندسي، وهناك ميزة أخرى وهي بساطة الحروف العربية إذا ما قيست بحروف الأمم الأخرى. كذلك قلة عدد صور الحروف العربية الناشئ من تشابه الحروف فالياء والتاء والثاء متشابهة كما يكتفي بالحروف الساكنة في رسم الكلمات دون الحاجة إلى حروف الحركة. هذا وتمتاز الحروف العربية بإمكانية اختزالها بالإضافة إلى أنها لا تشغل حيزا كبيرا الأمر الذي يساعد على سرعة التأدية والاقتصاد في المادة المستخدمة.

أما عن عيوب الخط العربي فيقال بكثرة النقاط على الحروف وتعدد أشكال الحرف الواحد، ويقال بعجز الحروف العربية عن أداء المقاطع الحركية الموجودة في اللغات الأجنبية، وأخيرا يقال بصعوبة الإملاء.

قائمة المصادر

(1) بشير كعدان. تاريخ الخـط العربـي.– المجلـة العربيـة.– س4، ع6 (1980).– ص 81–90.

(2) صلاح الدين المنجد. دراسات في تاريخ الخط العربي.– بيروت: دار الكتاب الجديد، 1979.

(3) عماد حليم. الحرف العربي والخط العربي.– شؤون عربية. ع16 (1980).– ص 260–265.

(4) محمـد أبـو الفـرج العـش. نشـأة الخـط العربـي وتطـوره: الخـط العربـي قبـل الإسلام.– الدارة.– س5، ع1 (1979).– ص 108–135.

(5) محمد شريفي. الخط العربي في الحضارة الإسلامية.– المجلة العربيــة للثقافـة.– مج 2، ع2 (1982).– ص 113–134.

(6) محمد ماهر الكردي. الخط العربي وأدبه.– ط2.– الرياض: الجمعيــة العربيـة السعودية للثقافة والفنون، 1982.

(7) يوسـف ذنـون. الخـط العربـي بعـد ظـهور الإسـلام إلى نهايـة القـرن السـابع الهجري.– عالم الكتب.– م3، ع3 (1982).– ص 354–362.

(8) يوسف محمد غلام. الفن في الخط العربي.– الرياض: وزارة المعارف، 1982.

(جـ) صناعة الورق في الحضارة الإسلامية:

لقد أخضعت الحضارة لمقاييس متعددة، قالوا أن الصلب يصلح لأن يكون مقياسا للحضارة، ثم قالوا: البترول مقياس جيد، ثم جاءت الكهرباء فتبعتها الذرة فقالوا: الذرة هي المقياس المناسب للحضارة، ثم جاء غزو الإنسان للفضاء فأصبحت الدول متقدمة بمدى قدرتها على غزو الفضاء، وأخيرا جاء الحاسوب وتكنولوجيا المعلومات، وهكذا.

لم يثبت الوضع على مقياس ثابت للحضارة كما هو واضح، ولهذا فإن الورق يمكن أن يعتبر مقياسا مناسبا باعتباره مؤشرا على التطور العلمي والفكري والحضاري لأية أمة من الأمم. ولو حاولنا إخضاع هذا المقياس على الحضارة الإسلامية لوجدنا أنها كانت في أوج عزها وتقدمها عندما كانت مصانع الورق منتشرة هنا وهناك في أرجاء العالم الإسلامي، وعندما كان للورق قيمته الحقيقية وكان يستهلك في المجالات العلمية والفكرية المختلفة.

الإسلام حض على العلم ويتضح ذلك من خلال آيات قرآنية عديدة، وكذلك من خلال أحاديث الرسول الكريم، والمسلمون كذلك شجعوا العلم والعلماء، ولأن الورق هو الوسيلة الجيدة لنشر العلم في ذلك الحين، فقد أدرك المسلمون قيمته الحقيقية. ولعل أكبر دليل على وعي الحضارة الإسلامية لأهميته، أنه كان يقدم مجانا في كثير من المكتبات الإسلامية، بل أنه كان مع الحبر والأقلام يعتبر من المواد التي يجب توفرها في المكتبة الإسلامية لتقدم للرواد عند الحاجة، ويكفي كذلك أن نعرف أن شرطا من شروط خزانة كتب المدرسة المستنصرية

كان تقديم الأوراق والأقلام لمن يريد النسخ، وفي دار الحكمة كان نصيب الورق (90) دينارا في الميزانية من أصل (120) دينارا أي ما يعادل (75٪) من الميزانية العامة للمكتبة.

وهكذا، يمكن القول:

إن صناعة الورق تعتبر حدثا تاريخيا وفكريا هاما في تاريخ الحضارة الإسلامية. ولهذا تم تناوله في هذا البحث التاريخي الوثائقي.

ما قبل صناعة الورق:

هل كتب العرب على مواد معينة قبل معرفتهم للورق؟ معظم الدراسات في هذا المجال تشير إلى أن العرب في الجاهلية وصدر الإسلام قد كتبوا على مواد مختلفة كأكتاف الإبل، واللخاف وهي "الحجارة الرقيقة البيضاء"(1)، بالإضافة إلى الألواح الخشبية وعسب النخل، كما استخدم العرب وسائل أخرى للكتابة سنحاول التعرض لها ومن أشهرها:

(1) الرقوق:

وهي تلك الجلود التي دبغت وصقلت بأسلوب معين يجعلها صالحة للكتابة، ولم تشر المصادر كيف كان العرب يعالجون هذه الجلود لتصبح صالحة للكتابة ولم تذكر المصادر أيضا من أي أنواع الحيوانات كان يتم الحصول على هذه الجلود الخاصة. وللدلالة على استخدام الرقوق في الكتابة نورد ما جاء في القرآن الكريم حيث يقول سبحانه:

"والطور. وكتاب مسطور. في رق منشور(2)". وهذا دليل واضح على

استخدام الرقوق في الكتابة.

ولكن من أي البلاد كانت تجلب هذه الرقوق؟ تذكر المصادر أن "الرقوق كانت تجلب من بلاد فارس"(3) ويرجح أنها كانت تصنع في بلاد اليمن وليس في بلاد فارس، وهذا يعود إلى شهرة أهل اليمن في حذق الصناعات لا سيما دباغة الجلود. ويعتقد أن اليمن كانت مصدرا جيدا للجلود في ذلك الحين وذلك لخصب أراضيها، وبالتالي كثرة ثروتها الحيوانية.

ولكن متى فقدت الرقوق أهميتها كأداة من أدوات الكتابة؟ "لقد بقي الرق أداة من أدوات الكتابة لدى العلماء والأدباء حتى القرن السادس"(4). وقد كانت الرقوق جيدة التحضير ودقيقة في صنعها يظهر ذلك من قناطير الرقوق المحفوظة في المكتبة العتيقة بجامع عقبة بن نافع في القيروان على سبيل المثال.

(2) القراطيس: أوراق البردي:

تعتبر القراطيس أداة من أدوات الكتابة والتي استخدمها العرب في حساباتهم التجارية وقد جاء ذكرها في القرآن الكريم في قوله سبحانه: "ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس فلمسوه بأيديهم"(5). ويذكر البعض أن كلمة قرطاس يونانية الأصل من كلمة خرتاس. وأعتقد أن الكلمة عربية الأصل لورودها في القرآن الكريم في عدة آيات، ثم لأن اللغة اليونانية استخدمت بعض المصطلحات العربية وخاصة تلك التي لم تكن شائعة عند اليونان، فليس بعيدا أن تصبح كلمة قرطاس العربية "خرتاس" في اللغة اليونانية.

وقد انتشرت القراطيس في اليمن والحجاز والبلاد الأخرى. وتتميز الرقوق عن القراطيس في الصورة والمادة والمصدر "فقد كان مصدر القراطيس الأول هو

مصر"(6). وكانت القراطيس تعتبر مظهرا من مظاهر الحياة المتحضرة حيث كتبت عليها المواثيق والعهود والكتب المقدسة.

وعندما فتح المسلمون مصر في عهد عمر بن الخطاب أصبحت مصانع القراطيس في مصر تحت سيطرتهم، ورغم ذلك فإنها لم تنتشر في الدولة الإسلامية حيث حافظت على كونها نوعا من الترف وظلت بلاد الروم تستورده من مصر حتى جاء عبد الملك بن مروان (65–86هـ) حيث أخذت الدولة تولي القراطيس شيئا من العناية(7).

وقد كانت أوراق البردي تعرف في كثير من المراجع القديمة بالقراطيس(8). ويبدو أن أوراق البردي كانت منتشرة في بداية القرن الثالث الهجري، نستنتج ذلك من أن "أقدم مخطوط عربي مكتوب على أوراق البردي هي بردية ذات سبع وعشرين صفحة يعود تاريخها إلى (288هـ/884م)(9).

(3) **المهارق:**

وهي نوع من أنواع الورق يدل على التقدم الحضاري والصناعي والترف عند الأقوام التي تستخدمه، وهذا يعود بالطبع إلى أن المهارق تصنع من الحرير المعروف بغلاء ثمنه.

والكلمة تطرق إليها الجاحظ في كتابه الحيوان، حيث يقول: والمهارق يراد بها الصحف والكتب، ولا يقال للكتب مهارق حتى تكون كتب دين أو كتب عهود ومواثيق أمان. وكما نلاحظ، فإن الجاحظ يشترط أن تكون الكتب ذات غرض خاص حتى تسمى (مهارق) وهي فعلا نوع خاص من الورق خصص

لأغراض خاصة وهذا يعود إلى غلاء مادته وتكاليف صناعته كما ذكر، حيث "كان يصنع في بلاد فارس وكانت المهارق تصنع من الحرير"(10).

(4) الصحف:

في بداية عهد الإسلام استعمل العرب الصحف المستخدمة من الجلود، ولا ننسى أن القرآن الكريم قد جمع في الصحف، وقد ورد ذكر الصحف في القرآن الكريم في قوله سبحانه: "إن هذا لفي الصحف الأولى. صحف إبراهيم وموسى"(11) كما ورد ذكرها في آيات كثيرة نذكر منها: "رسول من الله يتلو صحفا مطهرة".

كما ورد ذكر الصحف في الشعر الجاهلي في قول المتلمس:

ألق الصحيفة لا أبالك إنه

يخشى عليك من الحياة النقرش.

وهذا دليل على وجود الصحف في العصر الجاهلي.

صناعة الورق:

أين ظهرت صناعة الورق لأول مرة؟ تتفق معظم المصادر ذات العلاقة بالموضوع على أن "أهل الصين كانوا أول من عرف صناعة الورق"(12). ولم ترد غير الصين أية بلدان كبديل عن الصين في صناعة الورق. كذلك يؤكد محمد ماهر حمادة أن صناعة الورق كانت معروفة منذ القدم في بلاد الصين والشرق الأقصى وكانت تصنع من عجينة من الحرير والكتان وغيرها من المواد(13).

واضح إذا أن صناعة الورق ظهرت في الصين قبل ظهورها في الديار

الإسلامية، وقبل أن تعرف الديار الإسلامية صناعة الورق الصيني ظلت صناعة الورق صناعة مصرية طوال القرن الأول وأوائل القرن الثاني حتى أخذ الورق الصيني (وهو ما يسمى بالكاغد) مكانه إلى جانب القرطاس المصري.

ولكن ما هي العوامل التي أدت إلى انتقال صناعة الورق من الصين إلى الديار الإسلامية؟ لعل الامتداد في الفتوحات الإسلامية نحو الشرق ومتاخمة الحدود الإسلامية للصين كان سببا مباشرا في الاتصال والاحتكاك وبالتالي انتقال صناعة الورق من الصين إلى الديار الإسلامية المجاورة.

وتذكر المصادر أن جماعة من الصين من صناع الورق الصيني أنشأوا مصنعا لصناعة ذلك النوع من الورق في سمرقند ولم تحدد المصادر تاريخا محددا لدخول صناعة الورق إلى الديار الإسلامية، وتذكر بعض المصادر أن صناعة الورق الصيني دخلت الديار الإسلامية أيام الأمويين، والبعض يذكر أنه كان بعد قيام الدولة العباسية.

وفي مقالة للمستشرق الألماني يوسف فان اس(14) بعنوان بدايات علم الكلام في الإسلام يقول: "وتنبغي الملاحظة هنا أن العرب عرفوا صناعة الورق لأول مرة في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري عندما أسروا عددا من الجنود الصينيين في أواسط آسيا عام 751م، وكان أن تأسست دور الورق الأولى في سمرقند فيما بعد".

وهكذا يمكن اعتبار نهاية القرن الثامن الميلادي هو تاريخ دخول صناعة الورق الصيني للديار الإسلامية. وإذا اعتمدنا ما جاء في كتاب المكتبات في الإسلام لمؤلفه محمد ماهر حمادة فيمكن القول: "إن فتح سمرقند على يد المسلمين

قد تم سنة 712م وتحتاج العملية إلى مدة من الزمن لانتقال مثل هذه الصناعة المهمة والتي تحتاج إلى مهارات معينة وبالتالي واعتمادا على هذا التاريخ يمكن اعتماد أن أول مصنع لصناعة الورق في بغداد وجد سنة 794م(15).

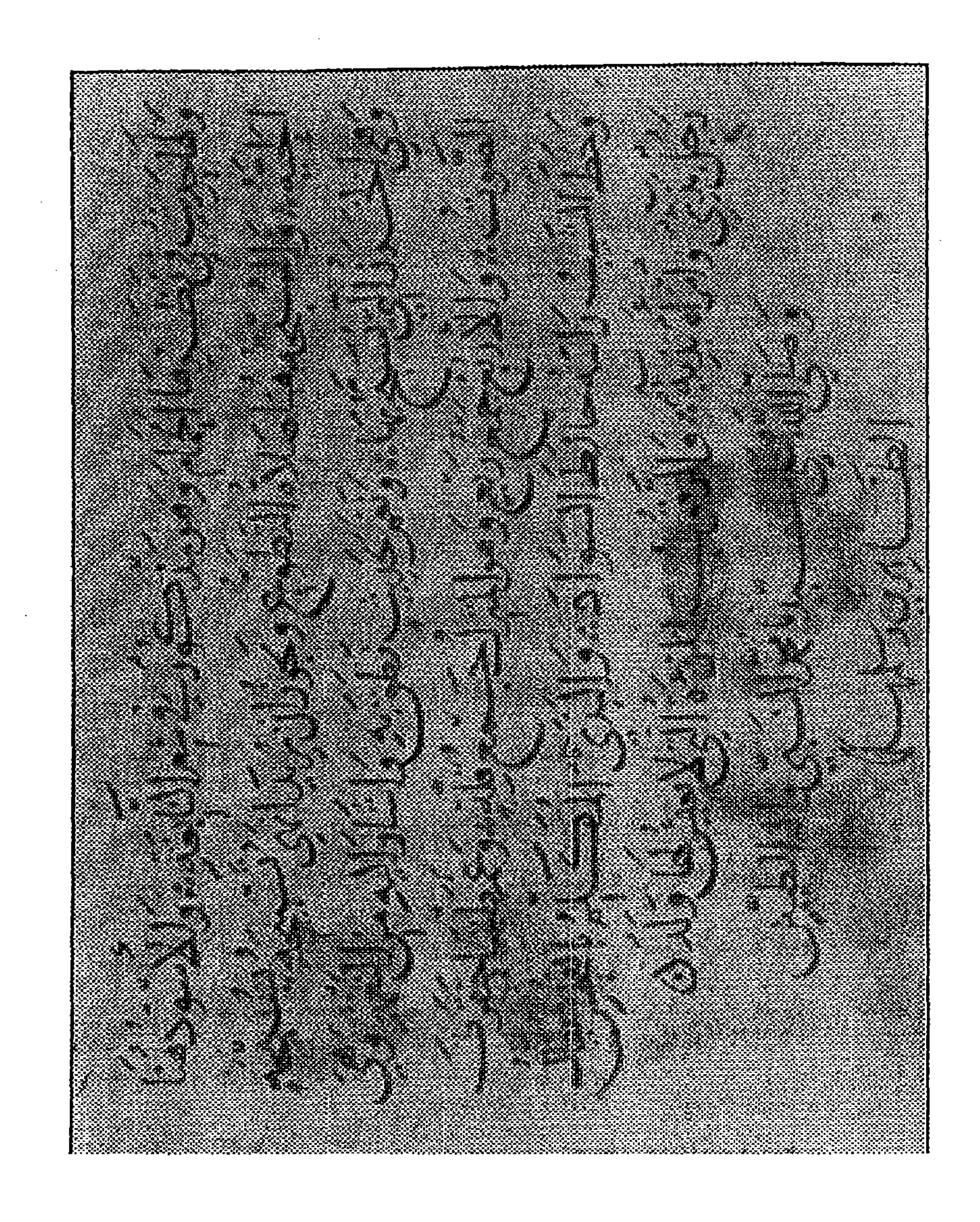
هذه الصناعة أتاحت للحضارة الإسلامية سرعة الانتشار في فترة قصيرة وذلك لأهمية الورق في ذلك الحين في نشر الحضارة والتراث. وقد اشتهرت سمرقند بصناعة الورق وأصبحت من المدن الكبيرة المنزلة في البلاد الإسلامية لمدة طويلة من الزمن لكن سمرقند بطبيعة الحال لا تكفي حاجة البلاد الإسلامية من الورق. لهذا وكنتيجة حتمية قامت المصانع في معظم البلاد الإسلامية الأخرى.

انتشار صناعة الورق في البلاد الإسلامية.

أ: في العراق:

شهرة الورق السمرقندي عمت الأقطار الإسلامية، وظلت سمرقند تمد البلاد الأخرى بما تنتجه مصانعها من الورق، لكن حاجة الأقطار الإسلامية للورق أدت إلى تسرب صناعته إلى هذه الأقطار وفي طليعتها بغداد، وربما يعود السبب الأول في ذلك إلى القرب المكاني الذي تتميز به بغداد باعتبارها أقرب مراكز الحضارة الإسلامية إلى سمرقند، كما أن للدور الحضاري والثقافي الذي كانت تلعبه بغداد أهمية في سرعة انتقال صناعة الورق إليها.

ويذكر ابن خلدون في مقدمته في فصل صناعة الورق: أنه عندما طما بحر التأليف والتدوين وكثر ترسيل السلطان وصكوكه وضاق الرق عن ذلك أشار الفضل بن يحيى بصناعة الكاغد(16). ومن ذلك ندرك الدور الذي لعبه الفضل بن يحيى في إدخال صناعة الورق. وقد عاش الفضل سنة 764م وتوفي سنة 808م(17)



الورقة الأخيرة من شرح مقامات الحريري للعكبري

وهذا يبين لنا أن صناعة الورق قد دخلت بغداد في نهاية القرن الثامن الميلادي.

وقد طرأ على صناعة الورق تحسين كبير في بغداد وانتشر انتشارا واسعا بين الناس. وقد تكلم عن صناعة الورق في بغداد ياقوت الحموي في (معجم البلدان) وابن الحن في كتابه (مراصد الاطلاع) وقد حددوا أماكن صناعته في بغداد فقط مثل دار القز وجهار سوج والنصرية والعتابيون.

وعن جودة الورق البغدادي تكلم القلقشندي في كتابه (صبح الأعشى في صناعة الإنشا) قائلا: "وأعلى أجناس الورق فيما رأيناه البغدادي... ولا يكتب فيه في الغالب إلا المصاحف الشريفة"(18).

ب- في بلاد الشام:

من الطبيعي جدا أن تنتقل صناعة الورق من بغداد إلى بلاد الشام وذلك بحكم القرب المكاني أولا ثم حاجة الديار الشامية للورق. وقد كانت طرابلس الشام من عيون المدن التي فاقت سواها من البلدان في صنع الورق(19). كما تميزت طبرية في فلسطين بكاغدها الجيد منذ المائة الرابعة للهجرة، أما دمشق والتي تعد من أهم المراكز الحضارية في بلاد الشام والبلاد الإسلامية الأخرى، فقد اشتهرت بمعامل ورقها اشتهارا بعيدا. وقد كانت تجارة الورق الشامي تجارة رائجة رواجا عظيما. وتذكر المصادر(20) أن أوروبا الشرقية كانت تبتاع ورقها من بلاد الشرق الأدنى على ما يشهد لذلك الورق الدمشقي.

وقد وصف العلامة محمد كرد علي بك ورق الشام قائلا: كان الورق يصنع أشكالا في مكابس صغيرة ويعمل من الخروق البالية أو الحرير ولا يزال في خزانة دار الكتب العربية بدمشق كتاب كتب سنة 226هـ على ورق يظن أنه من الورق

الشامي وهو أقدم مخطوط عرف بالشام ولا يزال على متانته. ولم يقتصر الموضوع على دمشق بل ظهرت معامل للورق في حلب وكان ورقها جيداً وظهرت معامل أخرى في حماة ومنبج غيرها.

وقد تحدث القلقشندي في كتابه (صبح الأعشى) عن الورق الشامي بعد حديثه عن الورق البغدادي، وقد اعتبره في المرتبة الثانية حيث قال: "ودونه في الرتبة الشامي وهو على نوعين: نوع يعرف بالحموي (نسبة إلى حماة)، ونوع دونه في القدر وهو المعروف بالشامي(21)".

جـ: في الديار المصرية:

صناعة الورق لم تقتصر على العراق والشام بل انتقلت إلى الديار المصرية وانتشرت فيها وبكميات وافرة وبصناعة جيدة. وقد وصف القلقشندي(22) الورق المصري بأنه في المرتبة الثالثة بعد البغدادي والشامي حيث قال: "ودونهما في المرتبة الورق المصري وهو أيضاً على قطعين: القطع المنصوري وقطع العادة والمنصوري أكبر حجماً". وقد أسس أول مصنع للورق في مصر سنة **800**م من عجينة الكتان.

د- في الغرب والأندلس:

انتقلت صناعة الورق من الشرق –العراق والشام ومصر– إلى الغرب في صقلية ومراكش والأندلس. ويذكر القلقشندي(23) أن العرب قد انشأوا في جزيرة قبرص مصانع لصنع الورق ومنها انتشرت صناعة الورق في إيطاليا. وهذه دلالة على الدور الذي لعبته جزيرة قبرص في نقل حضارة الشرق إلى أوروبا باعتبارها نقطة بين الحضارتين. وقد ظهر أول مصنع لإنتاج الورق في صقلية عام

1102م وفي إيطاليا عام 1154م(24). ويعتقد أن التجار قد لعبوا دوراً بارزاً في هذا المجال حيث كانت صقلية وقبرص من المراكز التجارية النشيطة.

وقد اشتهرت الأندلس بصناعة الورق كذلك وكان مركزه مدينة شاطبة ومنها كان يصدر الورق إلى أوروبا. وكانت معامل الأندلس تنتج جميع أنواع الورق، بما فيه الأبيض والملون، وهذا دليل على مدى التقدم الذي أحرزته الأندلس في صناعة الورق. وقد أسس أول مصنع للورق في الأندلس عام 950م.

فضل العرب على أوروبا في صناعة الورق:

لاحظنا مما سبق أن صناعة الورق انتقلت من الصين إلى العراق ثم إلى الشام فمصر فالأندلس وبترتيب تاريخي معين. وقد كانت الأندلس تصدّر الورق إلى أوروبا، وليس هناك أدنى شك في أن أوروبا تعلمت صناعة الورق من المسلمين وذلك بالطرق التالية:

أ- عن طريق الأندلس وصقلية، سواء بالاتصال التجاري أو غيره.

ب- عن طريق الشام، زمن الحروب الصليبية.

جـ- عن طريق قبرص أيضاً.

وقد كانت وسائل نقل صناعة الورق تتم إما بالاحتكاك عن طريق التجارة، أو بالاتصالات بين الشعوب، أو عن طريق الحروب.

ويكفي أن ندرك أن إيطاليا عرفت صناعة الورق في عام 1154م، وألمانيا عام 1228م، وبريطانيا عام 1309م. وواضح من هذه الأرقام أن البلاد الأوروبية القريبة من مراكز الحضارة الإسلامية قد انتشرت فيها صناعة الورق أولاً. ولكي

ندرك أهمية الدور الذي لعبه العرب في نقل صناعة الورق إلى أوروبا علينا أن نعرف قيمة الورق أولاً لندرك أهمية ذلك الدور، فالورق أكبر وسيلة لنشر العلم ومحو الجهل وإنارة الطريق للأجيال القادمة، بالإضافة إلى أن اختراع الورق وانتشاره قد جعل اختراع الطباعة ممكناً.

ولم يكتف العرب بنقل صناعة الورق، بل أدخلوا عليه التحسين والتجديد. وقد ازدهرت مصانع الورق في كثير من الديار الإسلامية فأنتجت ورقاً جيداً. ومن الديار الإسلامية انتقلت صناعته إلى الغرب الذين حسّنوه بفضل الآلة ونافسوا الورق الشرقي، فكسدت سوقه، وذهبت تلك المعامل التاريخية والتي كان لها دورها الذي لا ينسى في تطور الحضارة العربية الإسلامية.

"مصادر البحث"

(1) كوركيس عواد. الورق أو الكاغد: صناعته في العصور الإسلامية.- مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، ع23، ص 411.

(2) قرآن كريم. سورة الطور. آية 1-3.

(3) ناجي معروف. الورق البغدادي.- مجلة كلية الدراسات الإسلامية.- مجلد 3، 1969-1970، ص 407.

(4) محمد طه الحاجري. الورق والوراقة في الحضارة الإسلامية.- مجلة المجمع العلمي العراقي.- مجلد 12، 1965، ص 82.

(5) قرآن كريم. سورة الأنعام. آية 7.

(6) محمد طه الحاجري. مصدر سابق، ص 132.

(8) كوركيس عواد. مصدر سابق، ص 412.

(9) محمد ماهر حمادة. المكتبات في الإسلام.- القاهرة: مؤسسة الرسالة، 1970.- ص 40.

(10) ناجي معروف. مصدر سابق، ص 408.

(11) قرآن كريم. سورة الأعلى، آية 18-19.

(12) كوركيس عواد. مصدر سابق، ص 417.

(13) محمد ماهر حمادة. مصدر سابق، ص 73.

(14) كمال رضوان. الاستشراق الألماني: الدراسات العربية والإسلامية بجامعة توبنغن.- بيروت: دار صادر، (1974)، ص 53.

(15) محمد ماهر حمادة. مصدر سابق، ص 73-74.

(16) ابن خلدون. المقدمة، ص 206.

(17) كوركيس عواد. مصدر سابق.

(18) القلقشندي. صبح الأعشى، ج2، ص 476.

(19) كوركيس عواد. مصدر سابق، ص 429.

(20) محمد كرد علي بك. الإسلام والحضارة العربية.- القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1950، ج1، ص 125.

(21) القلقشندي. مصدر سابق، ص 476.

(22) نفس المصدر السابق.

(23) نفس المصدر السابق.

(24) محمد ماهر حمادة. مصدر سابق، ص 74.

(د) حركة الوراقين في الحضارة العربية الإسلامية

المقدمة:

يشكل تاريخ الكتب والمكتبات في الإسلام جزءا مهما من تاريخ الحضارة العربية الإسلامية. والمعروف أن العرب لم يعرفوا الكتب قبل مجيء الإسلام. ولهذا فقد كان القرآن الكريم (كتاب الله) فتحا جديدا، ليس في تاريخ العقيدة الإسلامية فحسب، بل في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية. ولقد كرم القرآن الكريم العلم والعلماء والكتاب والقلم. وجاء في محكم آياته "هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون"[1]، وجاء أيضا "وكتاب مسطور"[2]. كما أقسم سبحانه بالقلم في قوله: "والقلم وما يسطرون"[3]. كذلك اهتم الإسلام بالكتابة، وقد نصت على ذلك الآية القرآنية "يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل"[4].

وتعتبر المكتبات وخزائن الكتب الإسلامية من أهم المؤسسات الثقافية التي تفخر بها الحضارة العربية الإسلامية، حيث إنها قامت بدور كبير في نشر العلوم والمعارف بين المسلمين. ولقد تعدى تأثيرها المسلمين أنفسهم، وانتقلت آثارها المختلفة إلى أوروبا في عصورها المظلمة. أما الحركة التي قامت على أكتافها

---

(1) القرآن الكريم. سورة الزمر، الآية رقم 9.

(2) القرآن الكريم. سورة الطور، الآية رقم 2.

(3) القرآن الكريم. سورة القلم، الآية رقم 1.

(4) القرآن الكريم. سورة البقرة، الآية رقم 282.

المكتبات وخزائن الكتب الإسلامية باعتبارها مظهرا من مظاهر الثقافة العربية الإسلامية فهي حركة الوراقين. ولئن أغفل المؤرخون أخبار هذه الحركة ولم يهتموا بها، فإن فضل الوراقين لا يمكن إنكاره بأي حال، ذلك أن ملايين المخطوطات العربية التي ملأت مكتبات بغداد والبصرة ودمشق وقرطبة وبخارى والقاهرة واستنبول وغيرها من المدن الإسلامية قبل اختراع الطباعة تشهد لهؤلاء الوراقين.

لقد كانت الرواية الشفوية أول محاولة لنقل المعرفة والعلوم عند جميع الشعوب والحضارات، ولكن الرواية في الحضارة العربية الإسلامية بشكل عام ورواية الحديث بشكل خاص اقترنت منذ البداية بالحرص الشديد والدقة الكاملة والأمانة والصدق، لأن الدين الإسلامي يدعو إلى ذلك. ولأن كثيرا من نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة كانت شاهدا من شواهد التشريع وآية من آيات الفتوى، فقد التزم المسلمون الأمانة والحرص في روايتهم كلام الله ورسوله، وفي روايتهم أشعار الجاهليين وأيامهم ووقائعهم. ولقد كانت الكتابة شيئا جديدا. فالعرب كانوا أميين ولم تنتشر الكتابة بينهم إلا بدعوة الإسلام. "ففي أعقاب غزوة بدر كان من طرق مفاداة الأسرى المشركين أن يعلم الأسير عشرة من المسلمين الكتابة. فكان زيد بن ثابت -كاتب رسول الله- أحد هؤلاء الذين علمهم الأسرى"[5].

ومع ظهور حلقات الدرس ومجالس الإملاء في الحضارة الإسلامية، بدأ التأليف يتجاوز حدوده التقليدية وأصبح العلماء المسلمون لا يلتزمون بموضوعات محددة، وإنما يتناولون أكثر من مجال من مجالات المعرفة والعلوم. وقد أدى انتشار

---

(5) المقريزي. إمتاع الأسماع، الجزء الأول، ص101.

مجالس الإملاء إلى ظهور كتب كثيرة تعرف باسم "الأمالي"، افرد لها حاجي خليفة فصلا خاصا بها في كتابه المعروف "كشف الظنون"[6]. وقد ازدهرت حركة التأليف ازدهارا واضحا وملموسا خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة، يدفعها ويمدها بأسباب الخصب والنماء انتشار صناعة الورق في بغداد ابتداء من عصر الرشيد، وظهور طبقة جديدة تعرف بطبقة الوراقين التي تمارس صناعة الوراقة وهي كما يعرفها ابن خلدون "عملية الانتساخ والتصحيح والتجليد وسائر الأمور الكتبية..."[7]، ولولا دخول صناعة الورق وانتشارها في الديار الإسلامية المختلفة وظهور حركة الوراقين، لرأينا حركة التدوين والتأليف والترجمة مقيدة الخطى، ولما انتشر الكتاب العربي الإسلامي بشكل واسع.

لقد كان الوراقون جنودا مجهولين في الحضارة العربية الإسلامية. فقد أغفل المؤرخون أخبارهم ولم يهتموا بهم، ولهذا فإن أخبارهم نادرة مبعثرة في بطون الكتب. ولم يعرهم الاهتمام الواضح سوى اثنين كانا وراقين أيضا وهما: ابن النديم وياقوت الحموي. فقد تعرض ابن النديم في كتابه "الفهرست"[8] لسيرة عدد من الوراقين. أما ياقوت، فقد ترجم في "معجم الأدباء" لبعض الوراقين، وقال في مقدمة كتابه: "وجمعت في هذا الكتاب ما وقع إلي من أخبار النحويين واللغويين والنسابين، والقراء المشهورين والإخباريين والمؤرخين والوراقين المعروفين..."[9]

---

(6) انظر حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون.

(7) ابن خلدون، المقدمة، ص367-368.

(8) انظر الفهرست لابن النديم.

(9) ياقوت الحموي، معجم الأدباء. ج1، ص48.

وقد تعمد ياقوت أن يترجم للوراقين لأنه وراق مثلهم، حيث بلغ من ترجم لهم من الوراقين أو ذكرهم عرضا في سياق تراجم غيرهم خمسون وراقا من مجموع التراجم البالغة ألفا ومائة واثنتين وأربعين ترجمة.

لقد شهد القرن الثاني للهجرة بداية حركة التدوين التي تمثلت في جمع الحديث النبوي الشريف ومن بعده المغازي والسير. ثم تتابع التأليف في مختلف فروع المعرفة آنذاك. ولم يلبث العرب أن أحسوا بالحاجة إلى تدوين تراثهم وتاريخهم. فظهرت الكتب المختلفة متأثرة في بداية الأمر بطريقة التأليف في الحديث. كذلك شهد هذا القرن (الثاني للهجرة) البدايات الأولى لحركة الترجمة نتيجة اتصال المسلمين بالحضارات الأخرى كالفارسية واليونانية. "ويعتبر عصر الرشيد والمأمون العصر الذهبي للترجمة. فقد كانت الترجمة عملا رسميا تتولاه الدولة وتنفق عليه بسخاء. كما أسس الرشيد أكاديمية تحوي قسما للترجمة والتأليف ومكتبة وهي بيت الحكمة في بغداد"[10].

بداية الحركة ونشأتها:

قبل الحديث عن حركة الوراقين فإن قصة التدوين في الحضارة العربية الإسلامية تستحق وقفة قصيرة. لأنها الأساس الذي استندت إليه الحركة. فمن المعروف أن المسلمين الأوائل كانوا يعتمدون على الذاكرة في استظهار آيات القرآن وحفظها، ولكن وجد في عهد الرسول الكريم بعض الصحابة الذين سجلوا أجزاء كثيرة متفرقة من القرآن الكريم على سعف النخيل أو رقاق الحجارة أو اللحاء العريضة أو ما شابهها من المواد. وقد توفي الرسول عليه السلام والأمر

---

(10) ميري فتوحي، فهرسة الكتاب العربي، ص13.

على ما ذكر، على الرغم من أن عددا كبيرا من الصحابة كان يحفظ القرآن الكريم غيبا، وعلى رأسهم شيخ القراء زيد بن ثابت. فلما استمر القتل في الصحابة، وبخاصة القراء منهم، أثناء حرب الردة في زمن أبي بكر رضي الله عنه، خاف أبو بكر على القرآن من الضياع، فاستشار الصحابة في جمع القرآن الكريم في طرس واحد، فوافقوه على ذلك، وشكلوا لجنة لهذا الغرض يرأسها زيد بن ثابت. فكتبوا القرآن في الرق لطول بقائه أو لأنه موجود عندهم حينئذ[11]. ويؤيد ذلك الزركلي في كتابه "البرهان في علوم القرآن" والسيوطي في كتابه "الإتقان في علوم القرآن".

وعندما جاء الخليفة عثمان بن عفان ورأى اختلاف الأمصار الإسلامية في قراءة القرآن الكريم، أمر باستنساخ نسخ رسمية للقرآن الكريم وتوزيعها على البلاد الإسلامية حتى لا يحدث اختلاف في القراءات، فنسخت خمسة مصاحف أرسلت إلى الكوفة والبصرة ودمشق ومكة والمدينة. وأبقى عثمان لنفسه مصحفا عرف بالمصحف الإمام. ومنذ ذلك التاريخ حفظ النص الأصلي للقرآن الكريم مصداقا لقوله سبحانه: "إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون"[12]. ويمكن القول إن الذين قاموا بنسخ المصاحف الخمسة هم الوراقون الأوائل في الحضارة العربية الإسلامية. كما يمكن القول إن حركة الوراقين بمفهومها الواسع قد بدأت منذ

---

(11) القلقشندي. صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج2، ص475.

* الزركلي. البرهان في علوم القرآن. م1، ص 233 – 234.

** السيوطي. الإتقان في علوم القرآن. ج1، ص76 – 77.

(12) القرآن الكريم. سورة الحجر، الآية رقم 9.

ذلك الزمن المبكر. يقـول السجستاني في "كتـاب المصـاحف": "حدثنـا عبـد الله، حدثنا محمد بن إسماعيل الأحمس وعلي بن أبي الخصيب قال: حدثنا وكيع عن علي بن المبارك عن أبي حكيمة العبدي قـال: كنـت أكتـب المصـاحف بالكوفـة، فيمـر علينا علي بن أبي طالب رضي الله عنه فيقوم فينظر فيعجبـه خطنـا ويقـول: هكـذا نوروا ما نور الله"[13]. وقد روى المؤلف نفسه أن عبد الله بن عوف استكتب رجلا من أهل الحيرة مصحفا فأعطاه سبعين درهما[14].

وبعد تدوين القرآن الكريم في المصاحف، قل اعتماد المسلمين على الذاكرة وازداد اعتمادهم على الكلمة المكتوبة. وعندما احتكوا بالأمم والشعوب الأخرى المجاورة ورأوا ما عندهم مـن حضـارة وثقافـة، بـدأت عمليـة التمـازج الحضـاري، وظهر عند المسلمين من المعارف والعلـوم مـا جعـل الاعتمـاد علـى الذاكـرة أمـرا مستحيلا، فبدأت حركة التدوين والنقل والتأليف بالانتشـار، لـتزدهر علـى أثرهـا الحضارة العربية الإسلامية بعامة وحركة الوراقين بخاصة.

لقد استدعى اختراع الورق من قبل الصينيين وانتشار صناعته واستعماله في الديار الإسلامية ظهور طائفة من الناس يشتغلون بالورق والكتابة والكتب وهؤلاء هـم الوراقـون، الذيـن لعبـوا دورا لا يمكـن تجاهلـه في مجـال نشـر الثقافـة العربيـة الإسلامية. ذلك أنهم كانوا آنذاك بمثابة دور النشر للكتب في أيامنا هذه، يقومون بنسخ الكتب وتصحيحها وتجليدها وعرضها في الحوانيت الخاصـة بـهم وبيعـها في أسواق الكتب.

---

(13) السجستاني، كتاب المصاحف، ص131 – 132.

(14) المصدر نفسه، ص123.

وقد بدأ ذكر الوراقين وحوانيتهم منذ عهد الرشيد، أي منذ بدء استعمال الورق في الدواوين والرسائل والكتب لأول مرة. يدل على ذلك القصة التي يوردها ياقوت الحموي في معجمه، حيث يقول: "وحدث أبو مسجل عبد الوهاب قال: كان إسماعيل بن صبيح الكاتب قد أقدم أبا عبيدة من البصرة في أيام الرشيد إلى بغداد وأحضر الأثرم وهو يومئذ وراق وجعله في دار من دوره وأغلق عليه الباب ودفع إليه كتب أبي عبيدة وأمره بنسخها، فكنت أنا وجماعة من أصحابنا نصير إلى الأثرم فيدفع إلينا الكتاب والورق الأبيض من عنده ويسألنا نسخه وتعجيله ويوافقنا على الوقت الذي نرده إليه، وكان الأثرم يقرأ على أبي عبيدة..."[15]. ويمكن اعتبار العصر العباسي العصر الذهبي لحركة الوراقين بسبب كثرة عددهم وانتشار حوانيتهم وأسواقهم.

المعروف أن العصر الأموي كان يمثل بداية الانطلاق للحضارة الإسلامية. فلم تنتشر حركة الوراقين، ولم نسمع عن حوانيت الوراقين كما سمعنا عنها فيما بعد (في العصر العباسي). ولعل أهم سبب وراء ذلك هو ندرة الورق، الذي كان يصنع في مصر من نبات البردي بكميات محدودة، وكان الحصول عليه صعبا وثمنه غاليا. حتى أن عمر بن عبد العزيز أصدر أوامرا بالاقتصاد في استعماله.[16] وقد شكا أبو نواس، حتى في العصر العباسي، عجزه عن اقتناء الورق عندما قال:

أريد قطعة قرطاس فتعجزني   وجل صحبي أصحاب القراطيس

---

(15) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، الجزء 15، ص77 - 76.

(16) ابن عبدالحكم. سيرة عمر بن عبد العزيز، ص64.

لحاهـم الله عـن ود ومعرفة   إن الميــاسير منهـم كالمفـاليس[17]

وقد اتخذ ملوك بني أمية غلمانا وأجراء للنسخ، فقد روي أن عبيد بن شرية الجرهمي وفد إلى معاوية وقص عليه طرفا من سير الأولـين، فـأمر معاويـة ناسـخيه بنسخها[18]. كما كتب أبن النديم عن مجموعـة نـادرة لخطـوط العلمـاء في العصـر الأموي: "ورأيت في جملتها مصحفا بخط خـالد بـن أبـي الهيـاج وقـد اشتغـل أنـاس بالوراقة مقابل أجر في العصر الأموي هذا، كان منهم خالد بن أبي الهيــاج ومـالك بن دينار[19].

أما المتطلبات المادية الأساسية لمهنة الوراقة فتتلخـص في توافـر مـادة مناسـبة للكتابة وهي الورق غالبا، وتوافر أدوات للكتابة يمكن حصرها في المواد التالية:

أولا: القلم، وهو معروف عند العرب بدليل قوله سبحانه وتعالى: "ن والقلم وما يسطرون"[20] وقد عـرف القلـم عنـد الوراقـين بأسمـاء كثـيرة منـها الـيراع والمزبر. وكانت الأقلام في بادئ الأمر تصنع من السـعف أو القصـب بعـد أن يقلم. ومن ذلك كان اشتقاق القلم. ومن لوازم الأقلام عند الوراقين:

- المدية، وهي السكين التي تبرى فيها الأقلام. وكان الوراقون ينصحون بعدم استخدامها لغرض آخر سوى البري.

---

(17) لطف الله القاري: الوراقة والوراقون في التاريخ الإسلامي، ص17.

(18) ابن النديم، الفهرست، ص102.

(19) المصدر نفسه، ص9.

(20) القرآن الكريم، سورة القلم، الآية رقم 1.

- المقط أو المعصمة، وهي قطعة صلبة من الحجارة أو الرخام يبرى عليها القلم لاستواء البري.
- المقلمة، وهي المكان الذي توضع فيه الأقلام.
- المفرشة، وهي قطعة من خرق الكتان أو الصوف تفرش تحت الأقلام.
- الممسحة، وكانت تتخذ من خرق متراكمة ذات وجهين ملونين من صدف أو حرير أو غير ذلك من نفيس القماش، يمسح بها القلم عند الفراغ من الكتابة، حتى لا يجف عليه الحبر فيفسده.

ثانيا: المداد. وقد اشتق اسمه من الفعل يمد، وهو ما تمد به الدواة الوراق. ويسمى الحبر من الفعل يحبر. ويقال يحبر الشيء أي يترك عليه أثره. وكان المداد أو الحبر في أول الأمر يستورد، كما كان يصنع في البلاد الإسلامية من العفص[21] والزاج[22] والصمغ أو من السناج (الدخان).

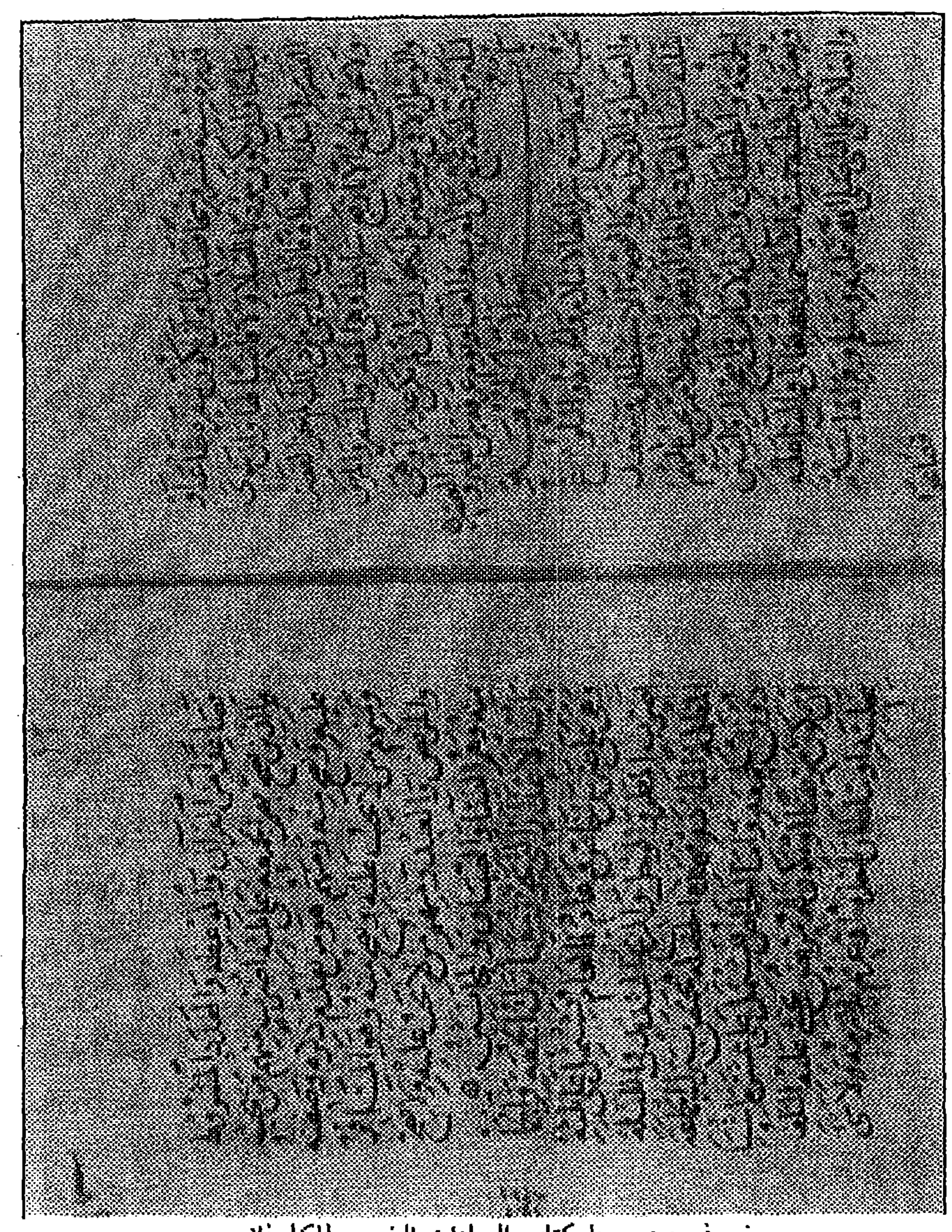
ثالثا: الدواة أو المحبرة. وكانت تصنع في القرون الأولى للهجرة من الخشب وربما من الفخار. ومع تقدم الزمن، أصبحت تصنع من المعادن كالنحاس والحديد، وأحيانا من الزجاج. وإمعانا في زيادة تألقها كانت تصنع من الأبنوس المحلى بالذهب. وقد كانت مجالس الوراقين تزخر بالدوى. فقد أحصى بعض المؤرخين الدوى في أحد المجالس بأكثر من خمسمائة دواة[23].

---

(21) العفص هو حمل شجر البلوط وهو مادة سوداء.

(22) الزاج هو كبريت الحديد.

(23) شعبان خليفة، المخطوط العربي: دراسة في نشأته وملامحه المادية، ص107 – 176.



نموذج من وسط كتاب العبادات الخمس للكلوذاني،

بخط الخطاط ياقوت المستعصمي

ولم يكن باستطاعة أي إنسان أن يحترف مهنة الوراقة، إذ أن الشرط الأول والرئيس لهذه المهنة هو جودة الخط ووضوحه وصحته. وقد كان من الضروري أن يكون الوراق على حظ من الثقافة والمعرفة ليفهم ما ينسخ ولا يكون نسخه آليا، وأن يكون حاضر الذهن منتبها[24]. ومن أهم صفات الوراق التي يجب أن يتحلى بها الأمانة فيما ينقل وينسخ، إذ يجب عليه أن ينقل الأصل وإلا فسد المعنى وضاعت الفائدة من المادة المنسوخة. وقد ورد في الفهرست عن أحد الوراقين (الكرماني) بأنه شخص مضطلع بعلم اللغة والنحو، مليح الخط، صحيح النقل، يرغب الناس في خطه[25].

مشاهير الوراقين:

لقد اشتغل بالوراقة علماء أجلاء ومؤلفون مرموقون حتى أصبحت مهنة راقية محترمة. ولهذا فقد انتشرت دكاكين الوراقين في طول البلاد الإسلامية وعرضها. فقد كان ابن النديم وراقا، حيث يقول عنه ياقوت: "كنيته أبو الفرج... مصنف كتاب الفهرست... ولا أستبعد أن يكون قد كان وراقا يبيع الكتب"[26]. كذلك كان ياقوت نفسه وراقا يبيع الكتب وينسخها ويتاجر بها[27]. أما ابن الهيثم (العالم الفيزيائي الشهير) فقد اشتغل بالنسخ فترة مهمة من حياته أثناء إقامته في القاهرة عند ذهابه إلى مصر. وكان له خط في غاية الصحة وتذكر المصادر أنه كان

---

(24) محمد ماهر حمادة، المكتبات في الإسلام، ص175 – 176..

(25) ابن النديم، الفهرست، ص118.

(26) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج18، ص17.

(27) محمد ماهر حمادة، المكتبات في الإسلام، ص77.

ينسخ في مدة سنة ثلاثة كتب ضمن اشتغاله وهي إقليدس، والمتوسطات، والمجسطي[28].

ولقد كانت الوراقة مهنة الفضلاء والصلحاء الذين يريدون أن يكسبوا رزقهم حلالا وبكد يمينهم. فقد كان الحسن بن عبد الله المرزباني النحوي قاضيا زاهدا لم يأخذ على الحكم أجرا، وإنما كان يأكل مما تكتب يمينه. حيث كان لا يخرج إلى مجلس الحكم ولا إلى مجلس التدريس حتى ينسخ عشر ورقات يأخذ أجرتها عشرة دراهم تكون بقدر مؤونته، ثم يخرج إلى مجلسه"[29]. كذلك يذكر ابن خلكان أن أبا الفتوح أسعد بن أبي الفضائل، ويصفه بأنه من الفقهاء الفضلاء الموصوفين بالعلم والزهد مشهور بالعبادة والنسك والقناعة، لا يأكل إلا من كسب يده وكان يورق ويبيع ما يتقوت به[30]. وعندما يترجم مؤرخو العلم والأدب لبعض الوراقين نراهم يذكرون أخبارهم بكل احترام وإجلال، ومن ذلك ما ذكره ابن النديم عن حارث بن علي الوراق: "من أهل الدين والورع والتقى، رئيس من رؤساء النظر، قليل النظير في زمانه، وله تأليف محكم وكتب جياد مشهورة ونقوض لعدة كتب..."[31].

ويمكن القول إنه كان هناك ثلاثة أنواع من الوراقين في الحضارة العربية الإسلامية: نوع ينسخ بالأجرة لمن يدفع له حسب كمية المنسوخ ومن هؤلاء

---

(28) القفطي، تاريخ الحكماء، ص167.

(29) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج8، ص146 – 147.

(30) ابن خلكان، وفيات الأعيان، الجزء الأول ص188.

(31) ابن النديم، الفهرست ص218.

مالك بن دينار. ونوع يعمل عند الأغنياء والحكام والعلماء لكي ينسخ لهم مقابل أجر شهري أو سنوي ومن هؤلاء خالد بن أبي الهياج الذي يعتبر من أوائل الوراقين، وكان موصوفا بحسن الخط. يقول عنه ابن النديم: وهو الذي كتب الكتاب الذي في قبلة مسجد النبي صلى الله عليه وسلم بالذهب من (الشمس وضحاها إلى آخر القرآن) ويقال إن عمر بن عبد العزيز قال له: أريد أن تكتب لي مصحفا على هذا المثال. فكتب له مصحفا تنوق فيه[32]. ونوع ثالث يكون عبدا مملوكا لا يحصل على مقابل لشغله.

وقد كانت هناك طريقتان للنسخ: الطريقة الأولى وفيها ينسخ الوراق من المخطوط مباشرة بنفسه ودون مساعدة أحد، وبعد فراغه من نسخ الكتاب يراجعه غيره للتأكد من صحة ما نسخ وأنه لم يهمل ولم يقفز عن السطور. الطريقة الثانية وفيها يجلس عدد من الوراقين في أماكنهم ويملي عليهم شخص آخر من مخطوط أريد الحصول على عدة نسخ منه، وبعد الفراغ من عملية النسخ تجرى المقابلة[33].

ويبدو أنه من الصعب جدا حصر مشاهير الوراقين، ذلك أن كتب التراجم تحوي أسماء جملة من اولئك الوراقين الذين فرضوا أنفسهم على دنيا الثقافة العربية الإسلامية. ولو تحرينا كتب التراجم العربية لخرجنا بأسماء المئات من الوراقين المترجم لهم ولعل من مشاهير الوراقين على سبيل المثال لا الحصر: الإمام الجليل أحمد بن حنبل والقاضي أبو سعيد السيرافي وترجمته في الأعلام، وابن النديم وترجمته في الأعلام أيضا. ومن مشاهيرهم أيضا أبو حيان التوحيدي الأديب

---

(32) عبدالسلام هارون، تحقيق النصوص ونشرها، ص19.

(33) محمد ماهر حمادة، المكتبات في الإسلام، ص175 – 176.

الفيلسوف وترجمته في الأعلام وأحمد بن أبي الدايم المقدسي، أحد المحدثين الفقهاء الحنبليين وترجمته في الوافي بالوفيات. ومن هؤلاء ابن القوطية العالم اللغوي والمؤرخ الفيلسوف وله ترجمة في الأعلام، والخطاط بن مقلة وترجمته في معجم البلدان، ومنهم أيضا دلال الكتب سعد بن علي الأديب الشاعر وترجمته في تاريخ آداب اللغة العربية لزيدان، ومنهم الحجاج بن مطر وترجمته في تاريخ الأدب العربي لبروكلمان، وأحمد بن طيفور الأديب والمؤرخ وترجمته في الأعلام، ومالك بن دينار وترجمته في الأعلام والفهرست، وعلان الشعوبي وترجمته في معجم الأدباء. ومن العلماء الوراقين أبو موسى الحامض وأبو عبد الله الكرماني. ومنهم يحيى بن عدي المنطقي النصراني وهشام بن يوسف الراوي القاضي وأبو علي الحسن بن شهاب العكبري وياقوت الحموي وغيرهم كثير[34].

لقد كان عدد الوراقين في الحضارة العربية الإسلامية كبيرا. فقد كان للجاحظ أكثر من وراق، منهم زكريا بن يحيى الذي ذكره القالي في الأمالي[35]، ومنهم أبو القاسم عبد الوهاب بن عيسى الذي ذكره الخطيب في تاريخ بغداد[36]، والزبيدي في تاج العروس[37] وكان لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد وراقون منهم ابن الزجاج والساسي. أما القاضي أبو المطرف، قاضي الجماعة بقرطبة، فقد كان له ستة وراقين ينسخون له دائما. ولم يخل هذا الميدان من عنصر المرأة، إذ نجد من

---

(34) لطف الله فارس، الوراقة والوراقون في التاريخ الإسلامي، ص72 – 77.

(35) الأمالي، الجزء الأول ص148.

(36) تاريخ بغداد، الجزء الخامس، ص569.

(37) تاج العروس، الجزء العاشر، ص108.

أسمائهن (ثناء) الكاتبة، ذكرها ابن النديم ممن كتبوا الخطوط الأصلية الموزونة[38].

أعمال الوراقين وواجباتهم:

يمكن القول إن أعمال الوراقين وواجباتهم كانت كثيرة ومتعددة. وقد لخصها ابن خلدون عندما قال: "... فكثرت التأليف العلمية والدواوين وحرص الناس على تناقلها في الآفاق والأمصار... وجاءت صناعة الوراقين المعانين للانتساخ والتصحيح والتجليد وسائر الأمور الكتبية والدواوين." [39] كما لخص حمادة واجبات الوراق على النحو التالي: ينتخب الورق، وينسخ الكتاب أو ينسخ تحت إشرافه، ويصحح هذا النسخ حتى لا يقع فيه تحريف ويجلده ويبيعه[40]. أما قاري فيلخصها على النحو التالي: الحصول على الورق بأرخص الأسعار، اختيار أشهر الكتب في أول صدورها، الإجادة في تزويق الكتاب وزخرفته ليروج بعد التصحيح والضبط، ونشر الكتب من مكان لآخر بقصد استجلاب المنفعة[41].

لقد لعب الوراقون دورا رئيسيا في تطوير مقتنيات المكتبة العربية الإسلامية من الكتب خلال عملية النسخ باعتبارها أهم طرق الحصول على الكتب في تلك الفترة. فقد كان لدى أغلب المكتبات العربية الإسلامية وراقون يتناوبون النسخ. "ففي مكتبة بني عمار في طرابلس الشام كان هناك مائة وثمانون وراقا يتناوبون العمل فيها ليل نهار. كما ألحق بأغلب المكتبات العربية الإسلامية غرفة أو غرف

---

(38) ابن النديم، الفهرست، ص11.

(39) ابن خلدون، المقدمة، ص367 – 368.

(40) محمد ماهر حمادة، المكتبات في الإسلام، ص77.

(41) لطف الله القاري، الوراقة والوراقون في التاريخ الإسلامي، ص51.

أعدت لجلوس النساخ وممارسة أعمالهم. كما زودت تلك الغرف بمستلزمات النسخ من أثاث وتجهيزات ومحابر وأقلام وورق"[42]. لقد كان الوراقون بمثابة المطابع الحديثة[43]. والفرق بين حوانيت الوراقين ودور الطباعة والنشر هو الفرق بين المخطوط والمطبوع.

ومن ناحية أخرى كان هؤلاء الوراقون هم الذين يصححون الكتب التي ينسخونها. روى الزرقاني محدثا عن يحيى بن أكثم أن يهوديا دخل على المأمون فجالسه، فأعجب المأمون به، ورغبه في الإسلام فلم يرض. فأخبره اليهودي بأنه خرج من عنده فنسخ نسخة من التوراة حرف فيها وباعها فقبلت منه، ثم نسخ نسخة من الإنجيل وباعها محرفة فقبلت منه، ثم نسخ نسخة من القرآن الكريم، فلما جاء بها إلى الوراقين، بصفتهم تجار كتب، راجعوا تلك النسخة وردوها إليه بعد اكتشاف التحريف[44]. من هذا يتضح مدى عناية الوراقين بالكتب التي ينسخونها، ولكن يجب أن نعرف أن ذلك لم يكن قاعدة عامة عند الوراقين جميعا. فلكل قاعدة شواذ كما يقولون. حيث وجد من بين الوراقين من زيف الكتب بقصد، ووجد فيهم من لا يدقق ما نسخه. فقد روي أن وراقا عند إسحق الموصلي يدعى سندي بن علي، اتفق وشريك له على وضع كتاب نسباه إلى إسحق الموصلي لكي يضمنا له الرواج[45].

---

(42) محمد ماهر حمادة، المكتبات في الإسلام، ص175.

(43) عبد السلام هارون، تحقيق النصوص ونشرها، ص4.

(44) لطف الله القاري، الوراقة والوراقون في التاريخ الإسلامي، ص48.

(45) ياقوت الحموي. معجم الأدباء، الجزء 6، ص57.

لقد كان العلماء والأدباء والمؤلفون شديدي الاتصال بالوراقين لا سيما المثقفين منهم. ولهذا نجد أن بعض العلماء من غير الوراقين اعتمدوا كثيراً على الوراقين كمساعدين لهم في بحوثهم. وقد كان للعديد من هؤلاء العلماء وراقون مخصصون ينسخون مؤلفاتهم وينشرونها، وينسخون لهم مؤلفات غيرهم لتضاف إلى مكتباتهم. إن دور الوراقين لم يقف عند النسخ لهؤلاء العلماء بل تعداه إلى مساعدتهم في البحث والتأليف ثم القيام بنشر هذه المؤلفات وهي وظيفة دور النشر حالياً. وتشير المصادر إلى أن حنين بن إسحق كان له وراق والجاحظ كذلك وابن سلام والمبرّد والفراء والواقدي وغيرهم[46]. وقد كان بعض الوراقين يتجاوزون مهنتهم الأصلية إلى صناعة التأليف[47].

كذلك لعب الوراقون دوراً في زخرفة المخطوط العربي وتذهيبه. أما الزخارف فقد كانت تقصد لتحلية المخطوط، وكانت في بداية الأمر مجرد خطوط بسيطة لم تلبث أن تطورت بعد ذلك إلى رسوم هندسية لها أصول وقواعد. وأحياناً كانت تتخذ أشكالاً نباتية. وقد كانت المصاحف مجالاً خصباً لهذه الزخارف، لأن الوراقين تحرجوا من رسم أشكال آدمية أو حيوانية فتوسعوا في استعمال الأشكال الهندسية والنباتية. أما بالنسبة إلى التذهيب فإنه أول ما وجد في المصاحف. فقد كتب الوراقون المصاحف بماء الذهب[48]. حيث وجدت في خزانة العزيز بالله الفاطمي نسخ من القرآن الكريم بخطوط منسوبة (أي معروف كاتبها) زائدة

(46) لطف الله قاري، الوراقة والوراقون، ص41 – 42.

(47) عبدالسلام هارون، تحقيق النصوص ونشرها، ص23.

(48) شعبان خليفة، المخطوط العربي: دراسة في نشأته وملامحه البيلوغرافية، ص112، 113.

الحسن محلاة بذهب وفضة وغيرها[49]. ولم يلبثوا أن نقلوا التذهيب إلى الكتب الأخرى وأغرقوا في استخدامه. ولم يقتصر عمل بعض الوراقين على تذهيب صفحات المخطوط وإنما تعدى الأمر إلى تذهيب الجلود أحياناً.

وفيما يتعلق بتجليد المخطوط فقد كان القرآن الكريم أول كتاب يجلّد حتى منتصف القرن الثاني للهجرة، لأنه كان أول كتاب عربي يصنع على شكل كتاب. وبعد أن أخذ شكل المخطوط العربي شكل الكتاب، بعد أن ظل فترة طويلة على شكل لفافة، أخذ ميدان التجليد يتسع ويجذب اهتمام الناس. وقد ذكر ابن النديم أسماء سبعة من المجلدين في مكتبة بيت الحكمة في بغداد. ويقال أن العرب قد أخذوا فن التجليد عن الأحباش، ويقال عن أقباط مصر[50]. وقد سيطر الذوق الجميل على تجليد الكتب. فقد اهتم الوراقون بالجلود كل الاهتمام. وقد اشتهر العراق بتجليده المتقن الجميل، كما اشتهرت مالقة في الأندلس بأنها مركز صناعة الجلود الممتازة ومركز التجليد الفاخر. أما المكتبات العربية فقد كانت تحوي قسماً خاصاً للتجليد في بعض الأحيان وكانت ترسل الكتب لتجليدها بعد الفراغ من نسخها[51].

ويمكن تلخيص سلسلة الأعمال التي يقوم بها الوراقون على النحو التالي:

أولاً: اختيار الورق المناسب من حيث الحجم والنوع واللون وإعداده للنسخ.

---

(49) المقريزي، الخطط المقريزية، الجزء الثاني، ص253.

(50) شعبان خليفة، مصدر سابق، ص112 - 113.

(51) محمد ماهر حمادة، المكتبات في الإسلام، ص183.

ثانياً: اختيار الكتب المناسبة والمشهورة بعد صدورها.

ثالثاً: نسخ الكتب. وهنا إما أن يقوم الوراق بعملية النسخ أو يقوم النساخون بذلك تحت إشرافه.

رابعاً: تصحيح الأخطاء التي قد يرتكبها النساخون وضبط المنسوخ وتدقيقه.

خامساً: زخرفة المخطوط وتحليته وتذهيبه إن لزم الأمر.

سادساً: تجليد الكتب. وهنا إما أن يقوم الوراق بعملية التجليد أو يقوم المجلدون بذلك تحت إشرافه.

سابعاً: بيع الكتب والمؤلفات وهي عملية التوزيع أو التسويق أو النشر للعلماء والأدباء والعامة وبخاصة أولئك الذين يرتادون دكاكين الوراقين وأسواقهم. وهذا الدور كان له أثر كبير في نشر التراث العربي المخطوط سواء داخل البلاد العربية الإسلامية أو خارجها.

حوانيت الوراقين وأسواقهم:

مع كثرة الورق وانتشار استعماله وازدياد عدد العاملين في مهنة الوراقة فتحت دكاكين الوراقين وحوانيتهم في معظم المدن الإسلامية. لقد وجدت دكاكين الوراقين في الدولة العباسية منذ أوائل أيامها. فقد كان "علاّن الشعوبي وراقاً زمن المأمون وكان له دكّان يورق فيه"[52]. ويذكر اليعقوبي[53] أن عدد حوانيت الوراقين في ربض وضاح مولى أمير المؤمنين من ضواحي بغداد بلغ أكثر

---

(52) فيليب حتي، تاريخ العرب منذ أقدم العصور حتى الآن، ص414.

(53) اليعقوبي، كتاب البلدان، ص245.

من مائة حانوت، وذلك في زمانه وهو أواخر القرن التاسع الميلادي (الثالث الهجري). وقد كانت حوانيت الوراقين وأسواقهم أماكن ثقافية يرتادها العلماء والأدباء والفضلاء، يتذاكرون فيها الحوادث ويتناشدون الأشعار ويتجادلون ويتساجلون ويبحثون آخر الأخبار الأدبية. فقد اعتاد أبو الفرج الأصفهاني صاحب الأغاني التردد على سوق الوراقين في بغداد والجلوس في حانوت وراق بعينه[54].

وقد وصفت حوانيت الوراقين بأنها "من أبرز الأماكن التي أرست دعائم الحركة الثقافية وكانت مقصد طلاب العلم والمعرفة، فقد كانت هذه الحوانيت منبعاً غزيراً للثقافة، ومجالاً واسعاً للمناظرات الأدبية والحوار العلمي، يؤمها المثقفون والأدباء، ويتخذونها منتدىً لهم وملتقىً لاجتماعاتهم، ومكاناً لعرض أبحاثهم، وإقامة مناظراتهم، ثم تحولت هذه الحوانيت رويداً رويداً لتصير مقصداً لكل من يبغي علماً أو يهوى أدباً، حتى إنهم ليذكروا أن الجاحظ "كان يبيت فيها للبحث والنظر""[55]. وقد وصفت أسواق الوراقين بالمعاهد العلمية[56].

ويمكن القول إن لكل حرفة في الحضارة العربية الإسلامية سوقاً معينة. فهناك سوق للبزازين وأخرى للعطارين وسوق للوراقين. ومما قيل في مدح مجالس الوراقين وأسواقهم:

مجالسة السوق مذمومة ومنها مجالس قد تحتسب

(54) محمد ماهر حمادة، المكتبات في الإسلام، ص80.

(55) أحمد جمال العمري، حوانيت الوراقين وقيمتها العلمية، ص16.

(56) عبد السلام هارون، تحقيق النصوص ونشرها، ص20.

فلا تقربن غير سوق الجياد وسوق السلاح وسوق الكتب

فهاتيك آلـة أهـل الوغى وهاتيـك آلـة أهـل الأدب[57]

وقد انتشرت أسواق الوراقين في كل مدينة كبرى من مدن العالم الإسلامي. وتذكر لنا المصادر المختلفة أخباراً عن كثير من أسواق الوراقين في تلك المدن. ويبدو أن سوق الوراقين الرئيسة في بغداد زمن ابن النديم (أواخر القرن الرابع للهجرة) كانت في الجانب الشرقي. إذ أنه يقول في أخبار أحمد بن أبي طاهر إنه من أبناء خراسان... تخصص وجلس في سوق الوراقين في الجانب الشرقي[58].

ويبدو أنه كان في بغداد أكثر من سوق للوراقين. وفي البصرة كان هناك سوق للوراقين. وفي القاهرة بنيت سوق للوراقين حوالي سنة 700 للهجرة وكانت مجمعاً للعلماء. وفي "فسطاط مصر كان في زمن عهد الطولونيين والأخشيديين سوق عظيمة للوراقين تعرض فيها الكتب للبيع. وأحياناً تدور في دكاكينها المناظرات"[59]. ويذكر المقريزي[60] سوق الوراقين في القاهرة في أكثر من موضع وفي أكثر من مناسبة. كما يذكر سوق الوراقين القديم التي أصبحت مكاناً لصبغ الجلود. ونجد ذكر أسواق الكتب والوراقين في سوريا[61]، وفي قرطبة كذلك، حيث كان عدد الوراقين من الكثرة بحيث نجد في كتاب علماء الأندلس لابن

---

(57) لطف الله قاري، الوراقة والوراقون، ص22.

(58) ابن النديم، الفهرست، ص209.

(59) أحمد شلبي، تاريخ التربية الإسلامية، ص41.

(60) المقريزي، الخطط المقريزية، الجزء الثاني، ص195 – 197.

(61) أحمد شلبي، مصدر سابق، ص41.

الفرضي تراجم لأحد عشرة وراقاً قرطبياً. ومع الانتشار الواسع لحوانيت الوراقين وأسواقهم أصبحت لها أحياء خاصة بها تعرف باسمها[62].

ومن الأدلة على ازدحام الناس في حوانيت الوراقين وأسواقهم أن أحد زبائنهم وهو عبد الله بن أحمد الخشاب كان إذا حضرها وأراد شراء كتاب، غافل الناس وقطع منه ورقة، وقال: إنه مقطوع، ليأخذه بثمن بخس[63].

نهاية حركة الوراقين:

يبدو أن مهنة الوراقة كانت من المهن المتعبة. فقد روى ياقوت أن محمد بن أحمد الدقاق المعروف بابن الخاضبة المتوفى سنة **489** للهجرة كان يورق للناس وينفق على أهله. وقد اضطر لإرهاق نفسه بالعمل المتواصل، إذ أنه نسخ في سنة واحدة صحيح مسلم سبع مرات. يقول ابن الخاضبة عن نفسه: "فلما كان ليلة من الليالي، رأيت في المنام أن القيامة قد قامت ومناد ينادي ابن الخاضبة. فأحضرت، فقيل لي: ادخل الجنة. فلما دخلت الباب وصرت في الداخل استلقيت على قفاي ووضعت إحدى رجلي على الأخرى وقلت: آه، استرحت والله من النسخ"[64].

وقد وصف الشاعر أبو محمد عبد الله محمد البكري الأندلسي مهنة الوراقة والنتائج التي تترتب على ممتهنها عندما قال:

---

(62) شعبان خليفة، مصدر سابق، ص107 – 116.

(63) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، الجزء 12، ص51.

(64) معجم الأدباء، الجزء 11، ص184، الجزء 17، ص228.

أما الوراقـــة فهي أنكد حرفة ... أوراقهـــا وثمارهـــا الحرمـان
شَبّهت صاحبها بصاحـب إبرة ... تكسو العراة وجسمها عريان[65]

وعلى الرغم من أن عدداً كبيراً من العلمـاء والفضـلاء والصلحـاء اشتغلـوا بمهنة الوراقة، إلا أنه كان ينظر في بعض الأوقات إلى منتحلها بشيء مـن الازدراء. فهذا علاّن الشعوبي، وكان صاحب دكان في سوق الوراقين، أحضر إلى دار أحـد رجال الدولة العباسية ليكتب هناك وينسخ. فدخل الدار أحمد بن أبي خـالد يومـاً، فقام إليه جميع من فيها سوى علاّن الشعوبي فإنه لم يقم. فقال أحمد: "ما أسوأ أدب هذا الوراق. فسمعه علاّن فقال: كيف أنسب إلى سوء الأدب ومني تتعلم الآداب وأنا معدنها". وقد حصل شيء من هذا القبيل لأبـي حيـان التوحيـدي. فقـد كـان ينسخ ذات يوم في دار الصاحب ابن عباد، فرآه الصاحب. يقول أبو عـلان: فلمـا أبصرته قمت قائماً. فصاح بحلق مشقوق: اقعـد فـالوراقون أخـسّ مـن أن يقومـوا لنا[66]. وقد وصف أبو حيـان التوحيـدي، وهـو أحـد الوراقـين المشـهورين، حرفـة الوراقة بأنها حرفة الشـؤم[67]. وكـان الوراقـون عمومـاً يشكـون مـن هـذه المهنـة الشاقة. ومن هؤلاء وراق من نيسابور يدعى أبا حـاتم عمـل في المهنـة لمـدة خمسـين سنة وهو القائل:

إن الوراقة مهنـة مذمومـة ... محرومـــة عيشي بها زمن

---

(65) ابن خلكان، وفيات الأعيان، الجزء الثاني، ص279 – 280.

(66) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج12، ص191 – 192، ج15، ص26.

(67) حبيب الزيات، الوراقة والوراقون، ص20.

إن عشت عشت وليس لي أكل أو مت مت وليس لي كفن[68]

بشكل عام، يمكن القول إن حركة الوراقين في الحضارة العربية الإسلامية قد مرّت بثلاث مراحل رئيسة على النحو التالي: المرحلة الأولى وتشمل العصر الراشدي والأموي، وهي مرحلة الانطلاقة للحركة، وفيها تم تدوين القرآن الكريم وبعض الكتب وبخاصة في الموضوعات الدينية. ولم تنتشر الحركة بشكل واسع خلال هذه الفترة لعدة عوامل أهمها نقص الورق. المرحلة الثانية وهي مرحلة التطور والازدهار وتشمل الفترة ما بين القرن الثاني وبداية القرن السابع للهجرة. وتعتبر هذه المرحلة العصر الذهبي للحضارة العربية الإسلامية بوجه عام ولحركة الوراقين بوجه خاص. فقد انتشرت صناعة الورق وازدهرت حركة التأليف والتدوين والترجمة وأسست المدارس والمعاهد وامتلأت الديار الإسلامية بالعلماء والفقهاء وطلاب العلم. أما المرحلة الثالثة فقد بدأت مع القرن السابع للهجرة، عندما تعرضت الحضارة العربية الإسلامية، نتيجة عوامل داخلية وخارجية متعددة، إلى الجمود والتقهقر والدخول في عصور الظلمة. ويمكن القول إن حركة الوراقين قد توقفت وانتهت عندما دخلت الطباعة إلى البلاد العربية والإسلامية.

وهكذا انتهت حركة الوراقين التي لعبت دوراً رئيسياً في إنتاج المخطوط العربي، وساهمت في نشره وتسويقه داخل البلاد الإسلامية وخارجها. ولعل أبرز نتائج هذه الحركة ظهور المكتبات وانتشارها بأنواعها المختلفة في الحضارة العربية الإسلامية التي يمكن حصرها في الأنواع التالية: مكتبات المساجد والجوامع، المكتبات الخاصة، مكتبات الخلفاء، المكتبات الأكاديمية، والمكتبات العامة.

---

(68) انظر يتيمة الدهر للثعالبي.

قائمة المصادر والمراجع

1- أحمد جمال العمري.

حوانيت الوراقين وقيمتها العلمية، المجلة العربية، السنة الثانية، العدد السادس، 1978، ص 16.

2- أحمد شلبي.

تاريخ التربية الإسلامية، بيروت، دار الكشاف للنشر، 1954.

3- الحموي ياقوت.

معجم الأدباء، القاهرة، مطبعة الحلبي، 1936.

4- ابن خلدون، عبد الرحمن.

كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، القاهرة، دار الطباعة الخديوية، 1284هـ.

5- ابن خلكان، أحمد بن محمد بن أبي بكر.

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، 1948.

6- السجستاني، أبو بكر عبد الله بن أبي داوود.

كتاب المصاحف، تحقيق آرثر جفري، القاهرة، المطبعة الرحمانية، [--19].

7- شعبان عبد العزيز خليفة.

المخطوط العربي: دراسة في نشأته وملامحه البليوغرافية، مجلة الفيصل، العدد 35، 1980، ص 107-117.

8- عبد السلام هارون.

تحقيق النصوص ونشرها، الطبعة الثانية، القاهرة، مؤسسة الحلبي، 1965.

9- فيليب حتي.

تاريخ العرب من أقدم العصور حتى الآن، الطبعة السادسة، لندن، ماكميلان، 1956.

10- القرآن الكريم.

11- القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي.

صبح الأعشى في صناعة الإنشا، القاهرة، دار الكتب المصرية، 1914-1919.

12- كوركيس عواد.

الورق أو الكاغد.: صناعته في العصور الإسلامية، مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، العدد 23ص.

13- لطف الله قاري.

الوراقة والوراقون في التاريخ الإسلامي، الرياض، دار الرفاعي، 1982.

14- محمد طه الحاجري.

الورق والوراقة في الحضارة الإسلامية، مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد 12، 1965.

15- محمد فؤاد عبد الباقي.

المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، بيروت، دار الفكر، 1987.

16- محمد كرد علي.

الإسلام والحضارة العربية، الطبعة الثانية، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة، 1950.

17- محمد ماهر حمادة.

المكتبات في الإسلام، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1978.

18- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي.

الخطط المقريزية، الشياح، مكتبة إحياء العلوم [--19].

19- ميري عبودي، فتوحي.

فهرسة المخطوط العربي، بغداد وزارة الثقافة والإعلام، 1980.

20- ناجي معروف.

الورق البغدادي، مجلة كلية الدراسات الإسلامية، المجلد الثالث، 1969-1970.

21- ابن النديم، محمد بن إسحق.

الفهرست، القاهرة، المكتبة التجارية الكبرى، 1348هـ.

22- اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب.

كتاب البلدان، تحقيق دي غوية، ليدن، إبريل، 1892م.

(هـ) حركة التدوين والتأليف في الحضارة العربية الإسلامية

من المتفق عليه أنه لم يكن للعرب في جاهليتهم علم ولا فن ولا أدب مكتوب. وكانت الروايات والأشعار والأخبار والأنساب تتداول بينهم مشافهة عن طريق التواتر، حيث أنهم عاشوا في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام في عزلة عن العالم الخارجي. صحيح أنه كانت لهم اتصالات بالروم في الشمال والفرس في الشمال الشرقي إلاّ أنها كانت اتصالات بسيطة ومقتصرة على التجارة وحراسة القوافل ولم تكن تساعد على الإبداع والتطور والتغيير الثقافي.

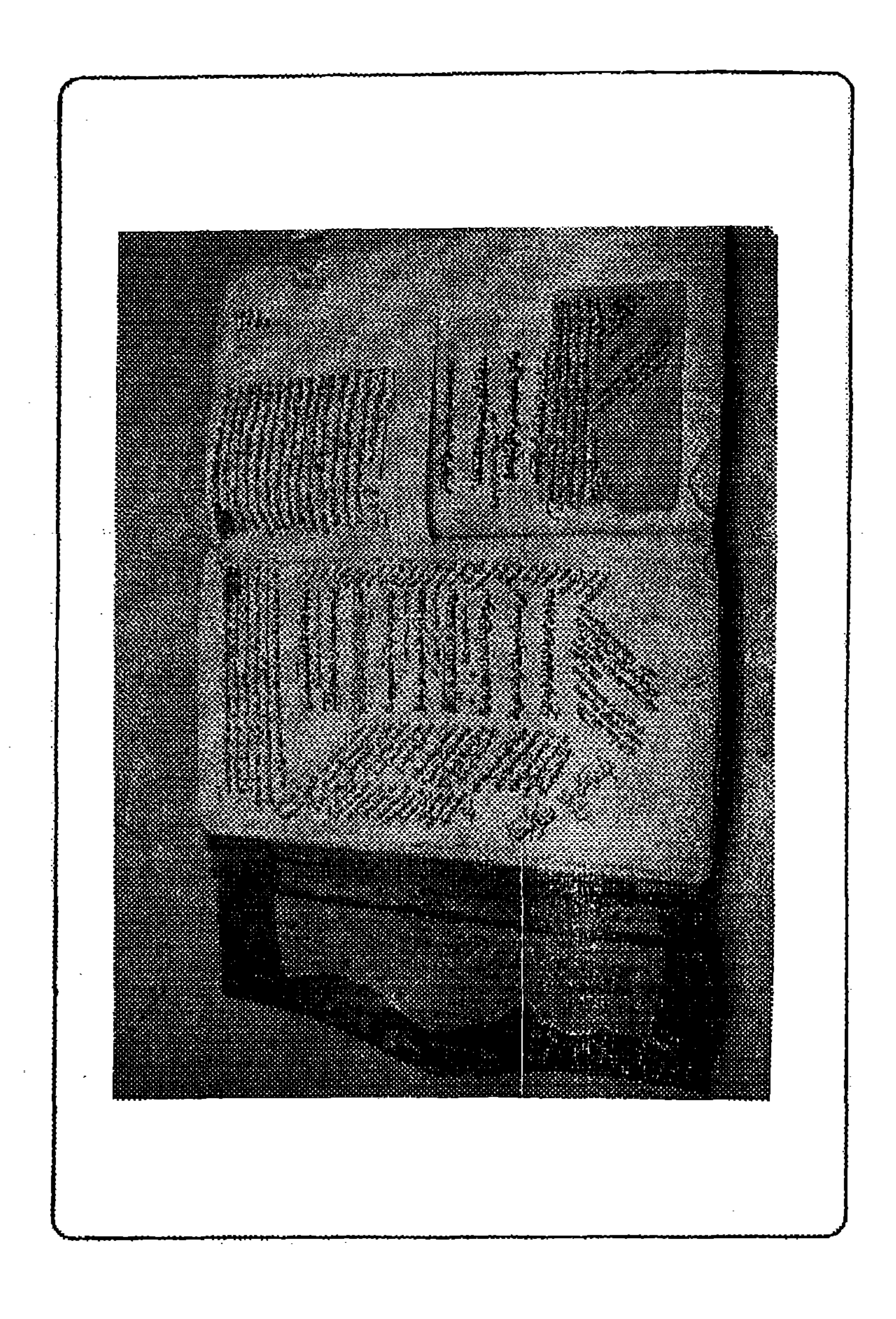
حقاً لقد كانت لدى العرب بعض العلوم الأدبية والعملية إلاّ أنهم لم تكن لديهم سجلات مكتوبة أو كتب أو شيء من هذا القبيل، لأن حياة البداوة والترحال الدائم جعلتهم يعتمدون اعتماداً مطلقاً على الذاكرة. وكانوا يجتمعون في الأسواق الموسمية يتبادلون هذه المعلومات. وأشهر هذه الأسواق سوق عكاظ، وذو المجاز والمجنة. ونستثني من هذه الظاهرة العامة بعض النقوش التي ترجع إلى ما قبل الإسلام، وأهمها نقش النمارة الذي وجد مكتوباً على قبر امرئ القيس لدى عرب الشمال، وكذلك النقوش الكثيرة التي وجدت لدى عرب الجنوب.

ولما بزغ فجر الإسلام لم يكن في قريش من يحسن القراءة والكتابة ألاّ حوالي عشرة أفراد في مكة المكرمة. ويذهب الأستاذ (محمد كرد علي) في كتابه "الإسلام والحضارة العربية" إلى أن حرباً وابنه أبا سفيان هما اللذان نقلا الخط العربي إلى الحجاز قبل ظهور الإسلام. وما أن انتشر الإسلام شرقاً وغرباً، حتى استتبع ذلك

انتقال العرب إلى الأقطار الداخلة في الإسلام، وتأثروا تأثراً مباشراً بالثقافات التي كانت موجودة في تلك المناطق. وهذه الثقافات هي اليونانية والفارسية، ومن المعروف أن المسلمين قد تأثروا بالثقافة اليونانية في سورية ومصر تأثراً كبيراً، ونقلوا عنها الشيء الكثير، كما تأثروا بكتب ومكتبات الفرس.

ومن هنا لا نستطيع أن نؤرخ للتدوين والتأليف عند العرب إلاّ بعد الإسلام ولقد كان المسلمون الأوائل يعتمدون على الذاكرة في استظهار وحفظ القرآن الكريم. ولكن وجد في عهد الرسول صلّى الله عليه وسلّم بعض الصحابة الذين سجلوا القرآن الكريم وبعض الأحاديث النبوية الشريفة، بدليل قوله صلّى الله عليه وسلّم "لا تكتبوا عني شيئاً سوى القرآن ومن كتب عني شيئاً سوى القرآن فليمحه". وكانت هذه الكتابات تتم على سعف النخيل ورقاق الحجارة والعظام. وكان عدد كبير من الصحابة يحفظ القرآن غيباً، ولمّا استشهد نفر كبير منهم خاف أبو بكر الصديق على القرآن من الضياع فاستشار الصحابة في جمع القرآن في طرس واحد، فوافقوا على ذلك وشكلت لجنة لهذا الغرض يرأسها زيد بن ثابت فكتب القرآن على ورق.

ولما جاء زمن عثمان بن عفان ورأى اختلاف الأمصار في قراءة القرآن، أمر بكتابة نسخ رسمي من القرآن وتوزيعها على الأمصار لجمعها على قراءة واحدة. فنسخت خمس نسخ رسمية من القرآن وأرسلت إلى مكة والمدينة والكوفة والبصرة وبقي لدى عثمان بن عفان مصحف عرف بالمصحف الإمام، وظل الناس يقرأون في مصحف عثمان هذا أكثر من أربعين سنة إلى زمن عبد الملك بن مروان، وبعد دخول العجم في الإسلام كثر التصحيف في تلاوته مما أدى إلى إدخال الشكل في



(كتاب من الحضارة العربية الإسلامية)

المصحف عن طريق النقط أولاً، ثم دخل الإعجام ذلك. وقد انتشرت مهمة نسخ المصاحف منذ ذلك التاريخ، ومن هنا يمكن القول بأن (المصحف هو أول كتاب عربي يدوّن).

بعد تدوين القرآن في المصاحف، وبعد انتشار المسلمين في الأمصار التي فتحوها واتساع الآفاق العلمية والثقافية أمامهم وتزايد الخبرات والتجارب، أصبح من العسير عليهم الاعتماد على الذاكرة فبدأوا في تدوين العلوم. وبداية التدوين في هذه العلوم غير معروفة لنا بالضبط، لأن التاريخ لم يحفظ لنا أوليّات الكتب، بل اندثرت ولم نسمع بها إلاّ من كتب أخرى اعتمدت عليها.

ويكاد المؤرخون يجمعون على أن العصر الأموي قد خلا من التأليف أو الترجمة ووصفوه بالجدب الفكري، ويؤكدون أن التأليف والترجمة لم يبدأ إلاّ في العصر العباسي، فيذكر حاجي خليفة في (كشف الظنون) أن أول من عنى بالعلوم هم العباسيون في عصر الخليفة الثاني أبي جعفر المنصور الذي كان بارعاً في الفقه والفلسفة.وذكرت بعض المصادر أن أقدم مخطوط عربي عثر عليه مكتوباً على ورق بردي من سبع وعشرين صفحة، ويرجع إلى سنة 228هـ 884م، وليس على شكل لفافة بل على شكل كرّاسة.

وليس لنا أن نتجنى على العصر الأموي، فإن النهضة الفكرية التي وجدت في العصر العباسي كانت امتداداً لبذرة وجدت في العصر الأموي فالعلوم التي كانت أجنة في بطون أمهاتها في ذلك العصر خرجت إلى النور في العصر العباسي، إذ يذكر ابن النديم في (الفهرست) أن خالد بن يزيد بن معاوية بعد أن عجز عن الوصول إلى الخلافة، اشتغل بالعلم، وكان له فضل البدء في نقل الكتب من

اللغات اليونانية والقبطية إلى اللغة العربية.

وقد استمرت حركة الترجمة هذه زمن بقية الخلفاء الأمويين وصدر الخلافة العباسية، ويجب أن نتذكر جيداً أن الدواوين قد عُرّبت عن اليونانية في سورية على يد عبد الملك بن مروان وعن الفارسية بالعراق، وعن القبطية واليونانية في مصر. ومن المؤكد أنه وجد مؤلفون كثيرون في العصر الأموي على الرغم من عدم وصول مؤلفاتهم إلينا، نذكر منهم ثلاثة كان لهم أثر كبير في التأليف وهم:

– الإمام مالك: صاحب "الموطأ". وعلى الرغم من أن هذا الكتاب يعود في تأليفه إلى العصر العباسي، إلاّ أن المؤلف في الأعم الأغلب استوفى مادته العلمية من مؤلفات سابقة عليه كما يتضح ذلك من الكتاب نفسه.

– عبد الحميد الكاتب: الذي كان كاتباً لمروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، وتذكر المصادر أن رسائله بلغت ألف ورقة.

– عبد الله بن المقفع: الفارسي الأصل الذي كان تلميذاً لعبد الحميد الكاتب وهو الذي نقل إلى العربية كتاب "كليلة ودمنة" وألف كتباً أخرى كالأدب الكبير والأدب الصغير.

ولعل أهم موضوعات التأليف في عصر صدر الإسلام هو تسجيل جميع الحوادث التي لها علاقة برسول الله صلّى الله عليه وسلم وبالحديث الشريف، وذلك أنّ الرغبة في ضبط الحديث وضبط رواته فيما عرف بالتعديل والتجريح قادت إلى العناية بالسير والتراجم، كما أدت إلى تسجيل سيرة الرسول صلّى الله عليه وسلّم ومغازيه، حتى لقد قيل أن علم التاريخ نشأ وشب وترعرع في أحضان مدارس الحديث وعلى أيدي المحدثين.

وعلى الرغم من أن أقدم سيرة للرسول هي سيرة ابن إسحاق برواية ابن هشام التي تعود إلى أوائل العصر العباسي، إلاّ أنه ليس هناك شك في أن ابن إسحاق قد استقى معلوماته من كتب ومصادر أخرى ترجع إلى العصر الأموي، ولعل أهم محدث اهتم بتدوين سير الرسول وأحاديثه هو عروة بن الزبير المتوفي سنة 712م. وقد بدأ المسلمون بعد ذلك بالعناية بالأنساب وأشجار العائلات، فقد كان الزمان زمان عصبيات قبلية، وهذا أيضاً يدخل في عداد التأريخ.

كذلك كان الشعر والأدب في تلك الفترة من موضوعات التأليف، فقد كان القوم يجتمعون بالمربد (قرب البصرة) ويتناشدون الأشعار ويتفاخرون ويتهاجون بجميع أنواع الشعر قديمه وحديثه وقد برز عدد من الشعراء أهمهم: جرير والأخطل والفرزدق، وقد حدث اختلاف شديد في أول من دوّن وألّف فيذكر محمد كرد علي أن أول من أمر بتدوين القصص والأخبار والتواريخ هو معاوية بن أبي سفيان الذي جمع حوله الرواة وأهمهم عبيد بن شرية وأمر بتدوين ما يلقونه من أخبار وتواريخ وأشعار.

وعلى الرغم من ذلك يذكر حاجي خليفة في (كشف الظنون) أن أول من صنف في الإسلام الإمام عبد الملك بن عبد العزيز جريج البصري المتوفي 155هـ وذلك بالحجاز، وقيل أن أول من ألّف بالعراق هو أبو نصر سعيد بن أبي عروبة المتوفي 156هـ، وقيل ربيع بن صبيح المتوفي سنة 160هـ.

ولما انتقلت الخلافة من بيت بني أمية إلى بيت بني العباس وانتقلت الخلافة من دمشق إلى بغداد واشترك الموالي في الحكم. ازدادت رقعة التأليف والترجمة، فقد أولى الخلفاء العباسيون حركة الترجمة عناية كبرى، وكانت هذه الترجمة من عدد

من اللغات هي اليونانية والفارسية والهندية والقبطية والسريانية إلى اللغة العربية.

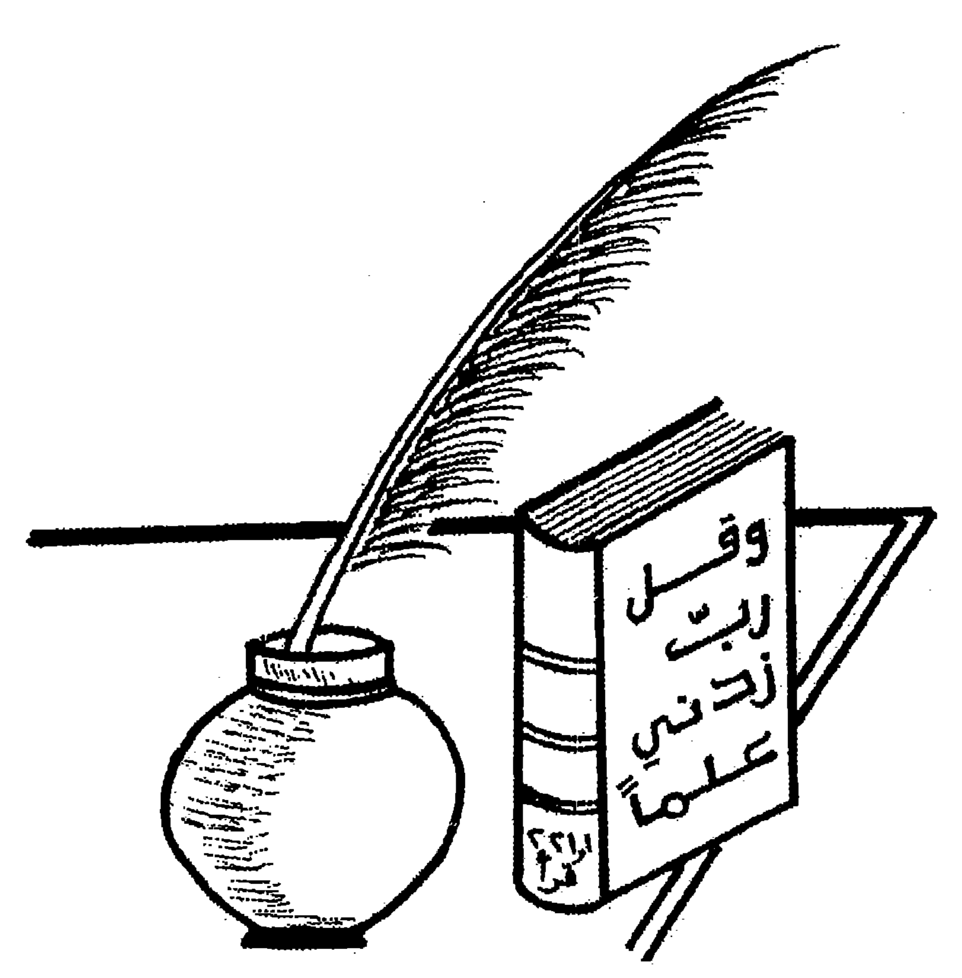
وقد بدأت حركة النقل من اللغات اليونانية والفارسية إلى اللغة العربية في عصر الخليفة العباسي الثاني "المنصور" وكان هذا الخليفة يهتم بالطب لأنه كان ممعوداً وكان جورجيوس بن جبرائيل يعالجه، ونقل له كتباً كثيرة في الطب إلى اللغة العربية.

ويعتبر عصر الرشيد وابنه المأمون العصر الذهبي للترجمة إلى اللغة العربية. فقد كانت الترجمة عملاً رسمياً تتولاه الدولة وتنفق عليه بسخاء من ميزانيتها العامة، وقد أسس الخليفة الرشيد مؤسسة كبرى للقيام بهذه الحركة العلمية. وهذه المؤسسة تعرف في تاريخ المكتبات باسم "بيت الحكمة" وقد كانت أكاديمية تحتوي قسماً للترجمة وقسماً للتأليف ومكتبة ومرصداً فلكياً. وكانت غزوات الخلفاء العباسيين للدول الأخرى تعود ومعها غنائم من كتب، كذلك كان الخلفاء يرسلون البعثات للبحث عن كتب الأولين.

ومن أشهر المترجمين لدى المأمون حنين بن إسحاق الذي كان يشرف على عملية الترجمة من اليونانية إلى العربية. وقد ترجمت كتب كثيرة في العلوم والفلك والطب، ككتب جالينوس وأبقراط وبطليموس وغيرهم، وكذلك نقلت كتب في الفلسفة والسياسة مثل كتب أرسطو وقد أدخل حنين بن إسحاق كثيراً من التعديلات على طريق الترجمة. ومن المعروف أن حنيناً كان يأخذ زنة ما يترجمه ذهباً.

هذا وقد سار التأليف جنباً إلى جنب مع حركة الترجمة والنقل هذه فقد زخرت العصور الإسلامية بالعلماء والمفكرين الذين ألّفوا في مختلف العلوم الدينية

والفقهية والتاريخية واللغوية والأدبية، والعلوم البحتة والتطبيقية، يدلنا على ذلك حياة الجاحظ الأدبية الزاخرة في تلك الفترة، ومن المعروف أن الخوارزمي قد ابتدع علم الجبر والمقابلة في زمن المأمون، كذلك قام أبناء شاكر بقياس محيط الأرض وذلك عن طريق قياس دائرة نصف النهار، وكان تقديرهم قريباً من الطول الحقيقي لها. وقد ساعد على انتشار التأليف والترجمة وازدهار الحركة الفكرية بصفة عامة على نحو لم يسبق له مثيل، انتشار الورق وظهور حركة الورّاقين في جميع أنحاء العالم الإسلامي.



قائمة المصادر

(1) أبو بكر محمد الهوش. رحلة الكتاب العربي حتى ظهور الوراقة.– تراث الشعب.– مج 2، ع7 (1982).– ص 40–54.

(2) ربحي مصطفى عليان. تطور الكتابة والتدوين والتأليف في الحضارة العربية الإسلامية. الخفجي.– ع 1، م 20 (نيسان 1990).– ص 30–35.

(3) عبد الستار الحلوجي. المخطوط العربي منذ نشأته إلى آخر القرن الرابع الهجري.– الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 1978.

(4) محمد ماهر حمادة. المكتبات في الإسلام: نشأتها وتطورها ومصائرها.– بيروت، مؤسسة الرسالة، 1986.

(5) محمود عباس حمودة. تاريخ الكتاب الإسلامي. القاهرة: دار الثقافة للطباعة والنشر، 1979.

(هـ) المخطوط العربي الإسلامي

كلمة مخطوط مشتقة لغة من الفعل خط يخط أي كتب أو صور اللفظ بحروف هجائية. أما المخطوط اصطلاحا فهو المكتوب باليد. وتعرف الموسوعة الأمريكية المخطوط بأنه المكتوب باليد في أي نوع من أنواع الأدب سواء كان على ورق أو على أية مادة أخرى كالجلود والألواح الطينية القديمة والحجارة وغيرها.

ويرجع أقدم المخطوطات في العالم إلى 3500 سنة قبل الميلاد وكانت عبارة عن لفائف من البردي. أما أقدم مخطوط عربي فيرجع إلى عام 884م وهو مكتوب أيضا على ورق البردي على شكل كراسة وليس لفافة. وقد كان للتراث الإسلامي المخطوط دوره الحضاري من حيث مساهمته في:

أولا: نقل التراث العلمي والفلسفي اليوناني إلى اللغة العربية.

ثانيا: تصحيح الكثير من هذا التراث والاستدراك عليه وإكمال نقصه.

ثالثا: تقديم إضافات جديدة عن التطورات والاكتشافات والاختراعات التي لم تكن الحضارات الأخرى تعرفها.

وتعتبر المخطوطات العربية والإسلامية المبعثرة في مكتبات العالم تراثا إنسانيا وذخيرة عالميا سواء ما كان منها في العلوم أو في الآداب أو في المعارف العامة. فلم تقتصر المخطوطات العربية على نوع معين من العلوم، بل امتدت إلى العلوم

الفيزيائية والبصريات والعلوم الرياضية والهندسية والطبية، ومن أعلام هذه العلوم جابر بن حيان وابن الهيثم والرازي وابن سينا وابن رشد وغيرهم الكثير. وقد تجاوزت المخطوطات العربية الإسلامية هذه الموضوعات إلى الجغرافيا والرحلات والاكتشافات الجغرافية، هذا بالإضافة إلى المخطوطات العربية في مجال الآداب وخاصة الشعر وفي مجال الفنون وخاصة الموسيقى.

ولكن ماذا عن الملامح المادية للمخطوط العربي الإسلامي؟

- بالنسبة لصفحة العنوان فقد بقي المخطوط العربي الإسلامي طوال حياته بدون صفحة عنوان وكان عنوان المخطوط واسم مؤلفه يأتيان في مقدمة المخطوط بعد قسم كبير من الكلام أو في نهاية المخطوط. إلاّ أن المخطوط العربي كان يبدأ بورقة بيضاء لحماية النص. وقد أضاف من تملّك المخطوطات أو نسخها في العصور المتأخرة عنوان ومؤلف المخطوط على هذه الورقة البيضاء.
- بالنسبة للاستهلال أو بداية المخطوط العربي فقد يبدأ بالبسملة والحمد لله والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ثم الهدف من تأليفه ومحتوياته وبعض المصادر التي اعتمد عليها المؤلف أحياناً ثم اسمه وعنوان مخطوطته. وكان الاستهلال يؤدي ثلاثة أغراض هي صفحة العنوان، قائمة المحتويات والمقدمة.
- أما الفصول والعناوين الفرعية فلم تكن ترد في صفحة مستقلة أو سطر مستقل أو منتصف السطر بل كانت تتداخل مع النص دون تمييز لا في لون الحبر ولا في حجم الخط وكان الفصل يبدأ بكلمة فصل كذا ثم يبدأ المؤلف بالكتابة. وبعد ذلك بدأوا يميزون عناوين الفصول والعناوين الفرعية بتضخيم الخط أو تمييزه عن خط النص.

الورقة الأخيرة من هداية طلاب قوانين الحُسّاب لابن فيروز،

ويتضح في آخرها قراءة الناسخ للكتاب على مؤلفه

وكان الناسخ العربي يحرص على ترك هوامش أربعة متساوية ومسافات متساوية بين السطور ومع مرور الوقت بدأ قرّاء المخطوطات يكتبون تعليقاتهم على هذه الهوامش حتى اعتبرت هذه التعليقات كتباً مستقلة أحياناً وتدل الهوامش على أن صاحب المخطوط قد عاش في فترة متقدمة عن الذي كتب التعليقات.

وقد اختلفت أعداد السطور من صفحة إلى أخرى في نفس المخطوط إلاّ أنها كانت في المعدل بين 25–30 سطراً في المخطوطات الكبيرة و20–25 سطراً في المخطوطات متوسطة الحجم و 12–15 سطراً في المخطوطات صغيرة الحجم. وأغلب الظن أنهم لم يكونوا يُسطّرون الصفحات قبل البدء بكتابة المخطوط.

ولم يعرف العرب من علامات الترقيم في القرن الأول للهجرة سوى النقطة والتي كانت عبارة عن دائرة في وسطها نقطة، ثم اختفت الدائرة بعد ذلك وبقيت النقطة. كما ظهرت الفاصلة والنقطتان. كذلك لم تكن الحروف منقوطة في الكتابة العربية الأولى فكان يحدث التباس في قراءتها، ولهذا وُضعت إشارات معينة فوق بعض الحروف لئلا تُقرأ خطأ كوضع حاء صغيرة فوق حرف الحاء حتى لا تُقرأ خاء.

ومن مميزات المخطوطات القديمة وجود اختصارات لبعض الكلمات كاستعمال ثنا بدلاً من حدثنا وأنا بدلاً من أخبرنا و أ هـ (ألف هاء) بدلاً من انتهى. وكان اختصار الصلاة على النبي مكروهاً.

وكان الناسخ إذا أخطأ في الكتابة يشطب الخطأ ويكتب الصواب بعده أو فوقه وبالنسبة للكلمات المنسية فقد كانت توضع في الهامش وعلى موازاة السطر أو فوق موقعها الحقيقي إذا توفرت المسافة الكافية لذلك. وقد بقي المخطوط

العربي بدون ترقيم حتى نهاية القرن الخامس الهجري تقريباً ثم ظهرت طريقة التعقيبات ثم الترقيم بالورقة وليس بالصفحة وبعد ذلك أصبح الترقيم بالصفحة.

وكان المخطوط العربي ينتهي بعبارة أو بيت شعر يدل على انتهاء النص بالإضافة إلى اسم الناسخ وأحياناً كان النسخ وتاريخ النسخ باليوم والشهر والسنة الهجرية. وإذا كان للمخطوط أكثر من مجلد فقد كان يُشار إلى ما يفيد الربط بين المجلد والمجلد الذي يليه. وكان المؤلف يذكر في بداية المخطوط أو نهايته بعض العبارات التي تفيد ملكية الكتاب لشخص معين أو مسجد أو مكتبة وهذه تُعرف بالتمليكات.

ولأن نظام التعليم كان يقوم على أستاذ يشرح كتاباً وتلاميذ يسمعون، فكان يذكر أن فلاناً قد سمع هذا الكتاب عن الشيخ الفلاني وهذه تُعرف بالسمّاعات. ولكي يقوم التلميذ بتدريس مادة الكتاب لا بد أن يُجاز له القيام بذلك وهذه تُعرف بالإجازات وهي قريبة مما يحدث الآن في رسائل الماجستير والدكتوراه.

بالنسبة لأحجام المخطوطات العربية فلم تكن ثابتة كما يحدث الآن في الكتب المطبوعة ولم تكن تساوي أحجام أوراق المخطوط الواحد أحياناً وهناك حجمان للمخطوطات العربية هما: 18 × 12 سم و 25 × 18 سم.

أما بالنسبة لحجم التراث العربي المخطوط، فالتراث العربي المخطوط لا يزال مبعثراً في جميع أنحاء العالم، في المكتبات العامة والخاصة والأكاديمية كالمتاحف والأديرة والمساجد، ولم يُعرف حتى الآن عدد هذه المخطوطات على وجه التحقيق والدقة سواء في المكتبات الأوروبية والأمريكية والتي وصلت مراحل متقدمة في

مجال الفهرسة والتصنيف أو مكتبات الدول الأخرى التي لم تصل هذا المستوى. والجدير بالذكر أنه يتوالى العثور على مجموعات جديدة من المخطوطات العربية في عدد من البلدان العربية والإسلامية. ولا تزال المكتبات الأجنبية تتلقى أعدادا من هذه المخطوطات بوسائل مختلفة حيث يتم تخزينها لفترة طويلة حتى تسجلها وتفهرسها وتعرف بها ولهذا لا نعرف عن بعضها شيئا حتى الآن. ونفس الشيء ينطبق على بعض المكتبات العربية كالخزانة الملكية في المغرب التي لا تزال تحتفظ بالآلاف من المخطوطات دون تسجيل. بالإضافة إلى هذه المشكلات هناك عدد من فهارس المخطوطات التي وضعها غير الخبراء والتي لا يمكن الاعتماد عليها كليا في تقدير عدد المخطوطات.

ولهذا لا بد من الاعتماد على التقديرات التقريبية ومن هذه التق رات ما قدمها كوركيس عواد حيث يقول إن المخطوطات العربية في خزائن الكتب الأوروبية لا تقل عن ستين ألف مخطوط هذا غير العدد الذي بأيدي الناس، ويقول إن المكتبات الأمريكية التي زارها فيها ما لا يقل عن عشرين ألف مخطوط. إن استعمال عبارة لا تقل تعني أن الرقم غير دقيق إطلاقا.

ومن هؤلاء هلموت الذي يقول أن في استنبول أكثر من 124 ألف مخطوط وفي تركيا بشكل عام أكثر من 200 ألف مخطوطة. أما بيرسون فيقول إن ألمانيا تعتبر أغنى الأقطار الأوروبية بالمخطوطات العربية وفيها نحو 14250 مخطوطة تليها بريطانيا وفيها 14 ألف مخطوطة. وفي روسيا حوالي 12 ألف مخطوطة. ومن الدول الأوروبية الأخرى التي لديها ما بين ثلاثة إلى عشرة آلاف مخطوط إسلامي: يوغسلافيا، فرنسا، إيطاليا، هولندا، النمسا، إسبانيا، بلغاريا، إيرلندا، والفاتيكان.

أما بقية الأقطار ففي كل منها حوالي ألف مخطوطة.

والجدير بالذكر أن تقديرات بيرسون تبدو فيها الضآلة ذلك أنه في روسيا وحدها عشرات الآلاف من المخطوطات. هذا بالنسبة للدول الأجنبية. أما بالنسبة للدول العربية والإسلامية فإن فهارس المخطوطات العربية لا تتضمن إلا جزءا بسيطا مما كانت تحتويه المكتبات العربية والإسلامية.

ففي مصر واعتمادا على الفهارس هناك أكثر من مئة مخطوطة وفي العراق لا تزال تصدر الفهارس وخاصة عن مكتبات الأوقاف، وفي سوريا أيضا وخاصة عن المكتبة الظاهرية ولهذا يصعب تقدير العدد في هذين البلدين ونفس الشيء ينطبق على البلدان العربية الأخرى وخاصة المغرب حيث عشرات الآلاف من المخطوطات واليمن بالإضافة إلى بقية أقطار العالم العربي والإسلامي.

أما المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية في عمان فيقدر العدد التقريبي لهذه المخطوطات العربية المعروفة بمليون ونصف، كما يقدر المخطوطات العربية غير المعروفة والمنتشرة في أنحاء العالم بمثل هذا العدد أو يزيد.

قائمة المصادر

(1) شعبان خليفة. المخطوط العربي: دراسة في نشأته وملامحه البيبليوجرافية.- الفيصل. س 3، ع 35 (1980).- ص 107-116.

(2) صلاح الدين المنجد. دراسات في تاريخ الخط العربي.- بيروت: دار الكتاب الجديد، 1979.

(3) عبد الله الشريف. المخطوطات العربية: أماكن وجودها في العالم.- مج4، ع 1 (1981).- ص 18-38.

(4) عبد الستار الحلوجي. المخطوط العربي منذ نشأته إلى آخر القرن الرابع الهجري.- الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 1978.

(5) عماد حليم. الحرف العربي والخط العربي.- شؤون عربية.- ع 16 (1982).- ص 260-265.

(6) محمد أبو الفرج العش. نشأة الخط العربي وتطوره: الخط العربي قبل الإسلام.- الدرة.- س 5، ع1 (1979).- ص 108-135.

(7) محمد شريفي. الخط العربي في الحضارة الإسلامية.- المجلة العربية للثقافة.- مج 2، ع2 (1982).- ص 113-134.

(8) محمد ماهر حمادة. المكتبات في الإسلام: نشأتها وتطورها ومصائرها.- بيروت مؤسسة الرسالة، 1986.

(9) وجيه الشربجي. مليون مخطوط عربي تنتظر الكفاح الثقافي.- الدوحة.- ع

77 (1982).— ص 38—42.

(10) يوسف ذنون. الخـط العربـي بعـد ظـهور الإسـلام إلى نهايـة القـرن السـابع الهجري.— عالم الكتب.— م3، ع (1982).— ص 354—362.

(11) يوسـف محمـد غـلام. الفـن في الخـط العربـي.— الريـاض: وزارة المعـارف، 1982.



أنواع المكتبات في الحضارة العربية الإسلامية :

(أ) مكتبات المساجد في الحضارة العربية الإسلامية.

(ب) مكتبات الخلفاء والمكتبات الخاصة في الحضارة العربية الإسلامية.

(جـ) مكتبات المدارس في الحضارة العربية الإسلامية.

(د) المكتبات العامة في الحضارة العربية الإسلامية.

(هـ) أشهر المكتبات في الحضارة العربية الإسلامية.

(أ) مكتبات المساجد في الحضارة العربية الإسلامية

مقدمة عامة:

إذا كان لا بد من تعريف شامل للمكتبة يضعها في مكانها الطبيعي باعتبارها مؤسسة أوجدها الإنسان لتعمل على خدمته من خلال قيامها بجمع ثروته الفكرية وتنظيمها ونقلها للأجيال القادمة، فيمكن القول بأن المكتبة هي تلك المؤسسة الثقافية التربوية الاجتماعية التي وُجدت لتجمع وتحفظ مجموعات معينة من مصادر المعرفة بحيث تنظم وترتب وفق طرق معينة وتحت إشراف فرد أو مجموعة أفراد متدربين على القيام بأعمال المكتبة وخدمة روّادها. وتوجد حالياً أنواع مختلفة للمكتبات يمكن حصرها في الأنواع الرئيسية التالية:

- المكتبات الوطنية أو القومية والتي تهدف إلى جمع التراث الفكري الوطني للأمة وحفظه والإعلام عنه.
- المكتبات العامة وتهدف إلى تقديم الخدمات المكتبية إلى كافة أفراد المجتمع.
- المكتبات الأكاديمية وطابعها العام التعليم والبحث العلمي وتشمل مكتبات الكليات والمعاهد والمدارس.
- المكتبات المتخصصة وتهدف إلى تقديم خدماتها للمؤسسة المتخصصة وللعاملين فيها.
- المكتبات الخاصة وهي مكتبات الأفراد والعائلات.

ويعود السبب في اختلاف أنواع المكتبات إلى عدة أسباب أهمها اختلاف

الأهداف والغايات واختلاف المقتنيات من حيث الكم والنوع والمستوى، واختلاف طبيعة الرواد وطبيعة التنظيم والخدمات.

بالنسبة للمكتبات الإسلامية، فهي نتاج طبيعي للحضارة الإسلامية وانعكاس لها. وقد ساهمت في توسيع نطاق هذه الحضارة والحفاظ عليها ونقلها إلى الأجيال المسلمة، وعندما اتسع أفق المسلمين العقلي وازدهرت حضارتهم وتنوعت اهتماماتهم الفكرية والعلمية زاد عدد المكتبات وتنوعت أغراضها حتى شملت جميع الأنواع التي تؤسس المكتبات من أجلها. ولهذا فقد عرفت الحضارة العربية الإسلامية المكتبات العامة على اختلاف أنواعها والمكتبات الخاصة التي يمتلكها الأفراد والمكتبات التي تتبع الدولة أو التي ينشئها الخلفاء والأمراء والمكتبات التابعة للمدارس ومكتبات المساجد وغيرها.

مكتبات المساجد في الإسلام:

هذا النوع من المكتبات يعتبر أول المكتبات نشوءاً في الإسلام ولا ندري بالضبط متى أنشئت أولى مكتبات المساجد، ولكن يبدو أن العادة جرت منذ أقدم العصور الإسلامية أن يودع الناس في المساجد عدداً من نسخ القرآن الكريم وغيره من الكتب الدينية النافعة، ولهذا فإن مكتبة المسجد قد ظهرت منذ اتخذ المسلمون المسجد مكاناً للصلاة وللدراسة، ذلك لأنه لا دراسة بدون كتب.

وبشكل عام، فقد كانت جميع الظروف مهيأة لظهور مكتبات المساجد وهذه الظروف تتلخص فيما يلي:

أولاً- تشجيع الإسلام للعلم والعلماء من خلال القرآن الكريم، ويكفي أن نعرف أن أول آية في القرآن الكريم هي: "اقرأ"، والتي بها افتتح رب العزة

سبحانه وتعالى المصدر الرئيسي للمعلومات الإسلامية وهو القرآن الكريم ويقول سبحانه وتعالى في مجال الحض على العلم وتشجيع العلماء: "قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون". "ن والقلم وما يسطرون". "إنما يخشى الله من عباده العلماء". "يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات". "ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون". "الرحمن، خلق الإنسان، علمه البيان".. صدق الله العظيم.

ثانياً- تشجيع الرسول عليه الصلاة والسلام للعلم والعلماء ويتضح ذلك من عدد من الأحاديث نذكر منها: "اطلب العلم ولو في الصين". "طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة". "ولا يزال الرجل عالماً ما طلب العلم فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل". "إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم".. صدق رسول الله.

ثالثاً- توفر مادة لمكتبات المساجد كالمصحف الشريف وكتب الحديث والكتب الدينية الأخرى، بالإضافة إلى كتب العلوم والآداب الأخرى التي شجعها الإسلام، وكذلك توفر مادة الكتابة اللازمة للنسخ والتدوين.

رابعاً- التشجيع والدعم من الأئمة والشيوخ وكل رجال الدين الإسلامي للمكتبات بشكل عام ولمكتبات المساجد بشكل خاص.

وبالإضافة إلى ما ذكر فإن الدراسة كانت تتم في المسجد أو الجامع حتى وقت قريب. ولهذا فإن معظم المساجد الإسلامية وبخاصة الهامة منها كانت ولا تزال تمتلك مكتبات خاصة. والجدير بالذكر أن مكتبات المساجد الإسلامية لم تحتو كتباً دينية فقط بل كتباً في مختلف العلوم والآداب التي لا تتعارض مع الإسلام.

وقد ازدهرت بعض المساجد الإسلامية وأصبحت من أكبر مراكز التعليم

والدراسة التي جذبت الطلاب من جميع أنحاء العالم الإسلامي. وكانت تعقد في هذه المساجد جلسات الدراسة والمناظرة كما كان يحدث في جامع بني أمية في دمشق وفي جوامع مكة والمدينة وفي الجامع الأزهر بالقاهرة، وفي جامع المنصور في بغداد، وفي جوامع قرطبة وطليطلة في الأندلس. وتقول المصادر أن الطلاب غير المسلمين من انجلترا واسكوتلندا وبقية أوروبا كانوا يقصدون هذه الجلسات التي كانت تعقد في جامع طليطلة الذي كان يضم مكتبة غنية اشتهرت كمركز للثقافة الإسلامية.

وكانت هناك مجموعات ضخمة من الكتب في مختلف فروع المعرفة في كل من الحرم المكي والمسجد النبوي، حيث غذاهما المسلمون بالكتب على مدى العصور، أما الجامع الأزهر فيعتبر اقدم جامعة في العالم، وكان يضم ولا يزال مكتبة غنية بثمرات العقول، والشيء نفسه صحيح بالنسبة لجامع الزيتونة في تونس.

وقد كان يوجد في بعض المساجد الكبرى أكثر من خزانة واحدة للكتب فيذكر ياقوت الحموي أنه كان يوجد في أيامه في مدينة (مرو) خزانتان في المسجد الجامع، إحداهما يقال لها العزيزية والأخرى يقال لها الكمالية. ويبدو أن بعض العلماء قد اعتاد أن يوصي بكتبه أو مكتبته كوقف في مسجد بلدته من خلال خزانة خاصة في المسجد تسمى باسمه.

ونحن نعلم أن الخلفاء والأمراء والعلماء والأغنياء وحتى متوسطي الحال من المسلمين اعتادوا أن يوقفوا أشياء كثيرة على المساجد ابتغاء الأجر والثواب في اليوم الآخر، ومن جملة هذه الأشياء الكتب. فقد وضع الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله (814) مصحفا شريفا في مكتبة جامع ابن طولون، وترك في وصيته عددا

من الكتب للجامع الأزهر، كما جعل المستنصر بالله، الخليفة العباسي، في مسجد القمرية ببغداد خزانة للكتب، وحمل إليها كتباً كثيرة. وقد كان لخزائن كتب المساجد في أغلب الأحيان قوام ومشرفون من العلماء المشهود لهم بالفضل والصلاح والكفاية والعدل.

وبشكل عام، فقد انتشرت المكتبات في مختلف المساجد والجوامع الإسلامية، كما لعبت هذه المكتبات دوراً هاماً في التراث الإسلامي المدون ونقلته إلى الأجيال المسلمة، كما لعبت هذه المساجد دوراً مهماً في مجال التدريس والتعليم عند المسلمين. أما أشهر مكتبات المساجد في الحضارة الإسلامية فهي:

- في العراق مكتبة مسجد القمرية الذي بناه المستنصر بالله، ومكتبة جامع المنصور في بغداد وغيرها من المساجد.
- في بلاد الشام مكتبة جامع بني أمية في دمشق، مكتبة مسجد أبي الفداء في حماة، مكتبة جامعة حلب، ومكتبة المسجد الأقصى في القدس.
- في مصر مكتبة الجامع الأزهر ومكتبة جامع ابن طولون ومكتبة جامع الفسطاط.
- في الأندلس، مكتبة جامع طليطلة ومكتبات مساجد قرطبة.
- في المغرب العربي مكتبة جامع الزيتونة في تونس ومكتبة مسجد القرويين في المغرب.

وهكذا نجد أن الحضارة العربية الإسلامية قد عرفت مكتبات المساجد وفتحتها للمسلمين عامة ولطلاب العلم خاصة، وقدمت هذه المكتبات كل خدمة ممكنة لروادها، ولعل انتشارها في المدن الإسلامية المختلفة وسهولة ارتيادها وخدماتها دليل على اهتمام الإسلام بالثقافة الجماهيرية وتقديره وتشجيعه للعلم والعلماء.

قائمة المصادر

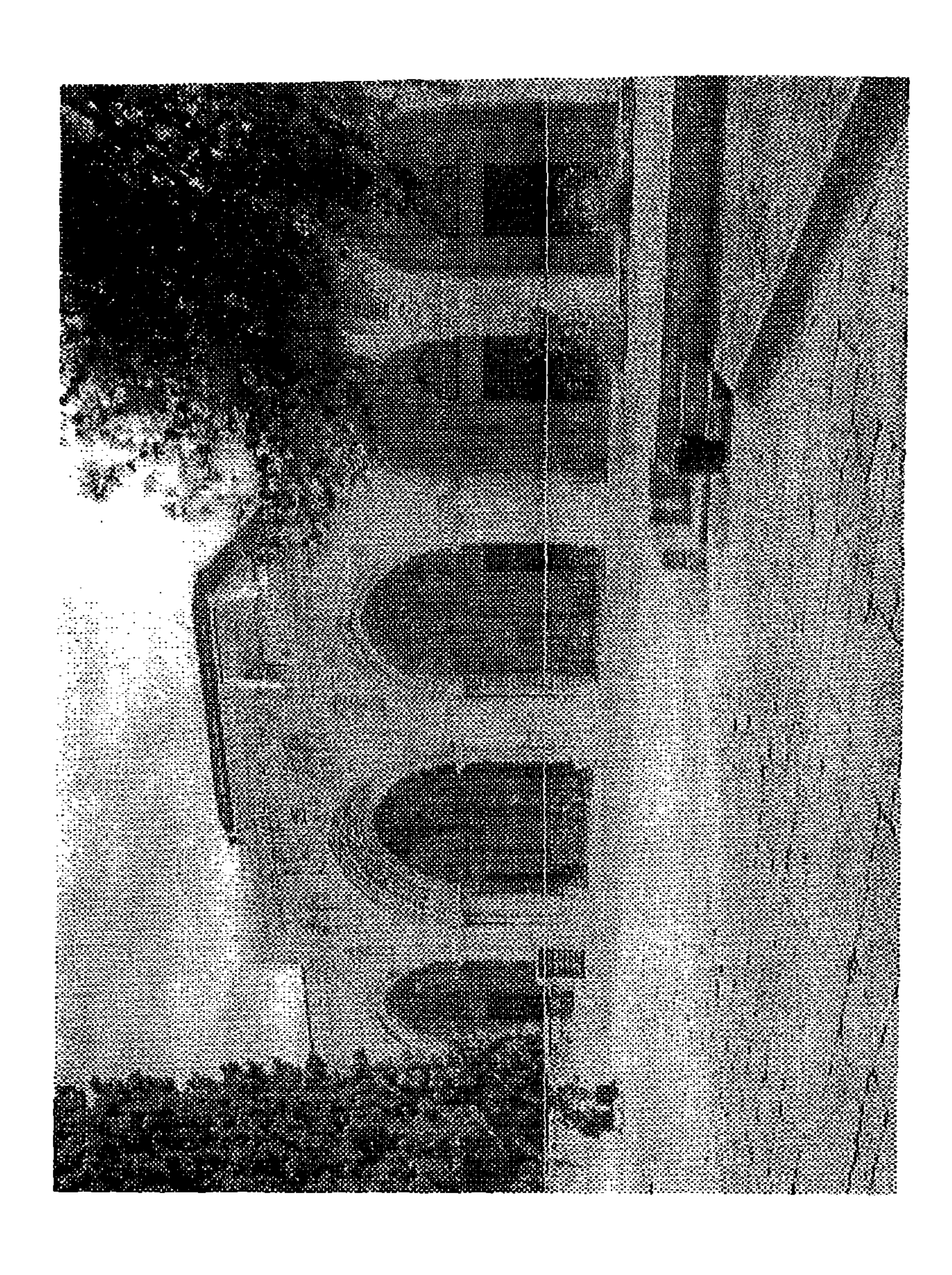
(1) ربحي مصطفى عليان. الإسلام والمكتبات.- مجلة الأقصى.- ع 785 (1987).- ص 48-51.

(2) ربحي مصطفى عليان. مكتبات المساجد في الحضارة العربية الإسلامية- الهداية.- ع 161 (1991).- ص 74-77.

(3) ربحي مصطفى عليان. مكتبات المساجد والمكتبات العامة في الحضارة العربية الإسلامية.- مجلة الخفجي.- 1990.- ص 8-11.

(4) سعيد أحمد حسن. أنواع المكتبات في العالمين العربي والإسلامي.- عمان: دار الفرقان، 1984.

(5) محمد ماهر حمادة. المكتبات في الإسلام: نشأتها وتطورها ومصائرها. بيروت: مؤسسة الرسالة، 1986.



(معظم المساجد في الإسلام ضمت مكتبات غنية ومن بينها المسجد الأقصى)

(ب) مكتبات الخلفاء والمكتبات الخاصة

في الحضارة العربية الإسلامية

بالنسبة لمكتبات الخلفاء فتشمل المكتبات التي كان ينشئها الخلفاء والأمراء والحكام المسلمون من أجل أنفسهم. وقد جعلها بعضهم حلقات للمناظرة والمحاضرات وإلقاء العلوم المختلفة. وقد ازدهرت هذه المكتبات حيث ومتى وجد خليفة أو أمير أو حاكم مسلم محب للعلوم والآداب وراغب في الكتب وأهلها ومقرب للعلماء والأدباء. وفي كثير من الأحيان كان يباح دخول بعض هذه المكتبات للمسلمين جميعاً. أما بعضها الآخر فكان مقصوراً على استعمال الخليفة، ذلك لأن من سمة الخليفة أو الحاكم المسلم الصالح أن يهتم بالعلوم والآداب وأن يشجعها وأن يجمع حوله العلماء والأدباء حتى يذاع اسمه ويُشتهر بأنه حاكم صالح محب للعلوم والآداب وخاصة العلوم الشرعية ومقرب من أهلها.

وقد ساهم الانقسام السياسي سواءً في المشرق أو في شمال إفريقيا أو في الأندلس، في كثرة عدد مكتبات الخلفاء من شرق الحضارة العربية الإسلامية حتى غربها. فقد أوجد السامانيون في بلاد خراسان دولةً قويةً عُرفت باسم الدولة السامانية وقد بلغت أوج عزّها في القرن الرابع الهجري، واهتم ملوكها بالعلوم والآداب وشجعوها. واهتموا اهتماماً خاصاً بالمذهب الإسماعيلي الذي هو مذهبهم وسعوا لنشره بالطرق السلمية من خلال الدعاية والتعليم. وقد أسسوا مكتبةً خلافيةً كبرى في مقر إمارتهم في بخارى احتوت كتباً كثيرةً من كلّ علم وفن. ويصف ابن سينا المكتبة بأنها دار ذات بيوت كثيرة في كل بيت صناديق كتب

بعضها فوق بعض، في بيت تجد كتب العربية والشعر وفي آخر تجد كتب الفقه وهكذا. وكانت المكتبة تحوي كتباً نادرةً لم يرها ابن سينا من قبل ولا من بعد. وكانت هذه المكتبة غير مفتوحة لعامة الناس ولا يدخلها إنسان إلاّ بإذن من السلطان نفسه.

أما عضد الدولة البويهي فقد أسس في شيراز مقر حكمه دار كتب فخمة صار صيتها في الآفاق وجمع فيها من الكتب الكثير. ويذكر المقدسي أن عضد الدولة بنى داراً ضخمة في شيراز لم ير مثلها لا في الشرق ولا في الغرب ضمت مكتبة ضخمة مؤثثة بشكل جيد وتضم فهارس لمحتوياتها المختلفة. ويستنتج مما كتبه المقدسي أن المكتبة كانت منظمةً تنظيماً جيداً حتى بمقاييس هذه الأيام وكانت بعهدة ثلاثة أشخاص يشرفون عليها وعلى خدماتها، ومن هؤلاء المؤرخ الشهير ابن مسكويه الذي يسميه القفطي مسكويه الخازن. وقد عاشت المكتبة بعد مؤسسها عضد الدولة البويهي فترة من الزمن حتى سرى إليها الخلل والاضطراب والإهمال في عهد خلفائه.

وقد اهتم خلفاء بغداد بالعلم والمدارس والمكتبات كل الاهتمام، ويرد في هذا المضمار أسماء ثلاثة منهم هم الخليفة الناصر والخليفة المستنصر والخليفة المعتصم. أما الخليفة الناصر فقد كان محباً للعلوم جامعاً للكتب. وقد اعتنى بالمكتبات بشكل عام وخاصة بمكتبة المدرسة النظامية حيث أعاد عمارتها ونقل إليها آلاف الكتب النفيسة. كذلك بنى الخليفة الناصر رباطاً يعرف باسم الرباط الظاهري غربي بغداد ونقل إليها كتباً كثيرة من أحسن الكتب. كما اهتم أيضاً بتغذية الخزائن الخليفية التي كانت موجودة سابقاً وزاد عليها واشترى كتباً كثيرة

ونظّمها أحسن تنظيم. وقد اعتمد الناصر في مهمة اختيار الكتب من أجل مكتباته جميعها على مبشر بن أحمد بن علي الرازي الذي كان عالماً متميزاً. أما الخليفة المستنصر فقد تولى الخلافة بعد الناصر وورث عنه حب العلم والعلماء واهتمامه بالكتب والمكتبات ولا يذكر اسم المدرسة المستنصرية إلا مقروناً باسمه. أما آخر الخلفاء العباسيين وهو المعتصم بالله فقد أنشأ خزانتين للكتب نقل إليهما نفائس الكتب وولىّ على كلّ واحدة مشرفاً وكان يجلس بعض الأحيان في الخزانتين بالتناوب. ويبدو أن الخزانتين قد أنشئتا في دار الخليفة المعتصم بالله.

وإذا انتقلنا إلى بلاد الشام فإننا لا نجد فيها مكتبات كثيرة خاصة بالحكام والأمراء وذلك بسبب الحروب الطاحنة التي كانت بلاد الشام مسرحاً لها وانصراف الأمراء والحكام لهذه الحروب كان أحد أسباب قلة المكتبات الخاصة بهم. ويعتبر سيف الدولة الحمداني من أشهر أمراء سوريا الذين اهتموا بالعلم والأدب وكان مقر سيف الدولة في حلب حيث التفّ حول بلاطة عدد من أعظم الأدباء والشعراء والعلماء ومنهم المتنبي وأبو فراس الحمداني وابن خالويه والفيلسوف المعروف الفارابي. كذلك اهتم سيف الدولة بالنقل من السريانية إلى العربية وأوجد مكتبة كبرى جعلها في عهدة شاعرين أخوين.

وإذا أتينا إلى مصر زمن الخلافة الفاطمية وجدنا اهتماماً منقطع النظير بالعلم والكتب والمكتبات ذلك أن الدعوة الفاطمية قامت على العلم. ولعل أول من اهتم بالعلم على نطاق واسع هو المعزّ لدين الله الفاطمي الذي بنى القاهرة والجامع الأزهر ثم جاء ابنه العزيز الذي توسَّع في ميدان العلم والتعليم وأنشأ داراً للعلم بجوار الأزهر. وكان اهتمامه بالغاً بالكتب وساعده في ذلك وزيره يعقوب بن

كلّس الذي كان محباً للعلوم.

وتوصف خزائن كتب الفاطميين أنها من عجائب الدنيا ولم يكن في جميع بلاد الشام دور كتب أعظم منها. وكان عندهم نوعان من خزائن الكتب: الأولى خزائن القصر الخارجية وعدّتها أربعون خزانة، والثانية خزائن القصر الداخلية وكان الاطلاع عليها محظوراً على العامة، في حين كان مسموحاً للعامة الاطلاع على خزائن القصر الخارجية. ويقدر البعض عدد مجلدات مكتبات القصر بمليوني مجلد. والواقع أن مكتبات الفاطميين كانت تحوي نسخاً عديدة من الكتاب وكانت مؤثثة بأفخم الأثاث. إلا أن الفتن والحروب والثورات تعاونت على هذه المكتبات فتعرضت للنهب والسلب.

وإذا ما انتهينا إلى الأندلس وجدنا مركز العلم والثقافة والحكام الذين كانوا محبين للعلوم والآداب، ولهذا أسسوا مكتبات رائعة. فقد أسس عبد الرحمن الأوسط مكتبة فخمةً في قرطبة، كذلك اهتم الخليفة عبد الرحمن الناصر بالعلوم والآداب وقصده العلماء من كل مكان. وقد أسس الناصر مكتبة كبرى في قصره وخزن بها الكتب في جميع اللغات. أما الخليفة الذي يقرن اسمه دائماً بالعلوم والكتب والمكتبات فهو الحكم الثاني المستنصر بالله. فقد جمع في قصره نوادر الكتب والحذاق في النسخ والضبط والتجليد. وفي عصره اجتمعت في الأندلس خزائن من الكتب لم تكن لأحد من قبله ولا بعده. ولقد كان مصير مكتبة المستنصر بالله مفجعاً حيث أحرقت بعد وفاته الكتب الفلسفية وكتب العلوم الأوائل في الميدان العام في قرطبة وبيع الجزء الآخر ونُهب ما تبقّى على يد البربر عندما دخلوا قرطبة عنوةً. كذلك فقد اهتم ملوك الطوائف في الأندلس بالكتب

والمكتبات وجمعوا في خزائنهم كتباً في مختلف العلوم والآداب.

بالنسبة للمكتبات الخاصة في الإسلام فقد انتشرت في جميع أنحاء العالم الإسلامي وحرص المسلمون على اقتناء مجموعات ضخمة من الكتب في مختلف الموضوعات وخاصة الموضوعات الدينية. وهذا النوع من المكتبات يوصف بالخاصة لأنها تخص أفراداً معينين أنشأوها لفائدتهم ومصلحتهم ومن أموالهم الخاصة. إلاّ أنها في حقيقة الأمر كانت شبه عامة. فبعض المسلمين كان يتيح للناس جميعاً فرصة استخدام مكتبته الخاصة كما كان يفعل ابن المنجم والبعض الآخر يفتحها لأصدقائه أو للعلماء والباحثين ومن يثق بهم. أما البعض فقد اقتصرت مكتباتهم الخاصة على أنفسهم وحاشيتهم. وبشكل عام فقد كان لدى كبار المسلمين والوزراء والأغنياء والعلماء مكتبات خاصة غنية بمجموعاتها.

ويعتبر هذا النوع من المكتبات (المكتبات الخاصة) مع مكتبات المساجد أول أنواع المكتبات ظهوراً في الإسلام. وقد انتشرت بين المسلمين عادة جمع الكتب واقتنائها وحبها والعناية بها ولا سيما بعد انتشار الورق ورخص ثمنه وهبوط أسعار الكتب نتيجة لرخص المواد التي كان يصنع منها ولرخص أجور النسخ والتجليد وغيرها من العمليات ذات العلاقة بالكتب. وتعتبر مكتبة خالد بن يزيد بن معاوية من أوائل المكتبات الخاصة التي عرفتها الحضارة العربية الإسلامية. ومن محبيّ الكتب وهواة جمعها الجاحظ والفتح بن خاقان وعلي بن يحيى المنجم الذي كان مهتماً بكتب الحكمة. وممن جمع خزانة كتب قيمة اشتهر بها واهتم بها كل الاهتمام الفيلسوف العربي الكندي الذي اهتم بجمع كتب الحكمة والفلسفة اليونانية وعلوم الأوائل.

كذلك يذكر في مجال المكتبات الخاصة ابن العميد وزير البويهيين ومكتبته الخاصة التي كان المؤرخ الشهير ابن مسكويه خازنها. فقد جمع ابن العميد مكتبة احتوت كل علم وكل نوع من أنواع المعارف والآداب تحمل على مائة جمل وقد ظلّ طوال حياته يتعهدها بعناية ويغذيها بعلمه وأدبه وبالكتب التي يشتريها أو يأمر باستنساخها وكان حريصاً عليها بل ويفضّلها على ماله.

أما تلميذ ابن العميد إسماعيل بن عباد والمعروف باسم الصاحب بن عباد لأنه كان يصاحب ابن العميد ويرافقه كثيراً فقد كان أشد حباً للكتب من أستاذه وأكثر جمعاً لها. ولا ندري بالضبط كم عدد كتبه ولكنا نعلم أن تلك المكتبة ضمت حمولة أربعمائة جمل من كتب العلم. ورغم أننا لا يمكن أن نأخذ هذا الرقم على محمل الجد إلاّ أنه يعطينا فكرة عن حجم المكتبة. وتذكر المصادر أن الصاحب كان يستصحب حمل ثلاثين جملاً من كتب الأدب ليطالعها أثناء سفره وتنقلاته. وكانت خزانة كتبه تضم مائتين وستة آلاف مجلد. ومهما يكن الأمر فقد كانت المكتبة ضخمة وتضم كتباً في مختلف الموضوعات.

أما المؤرخ المشهور الواقدي وصاحب كتاب المغازي فقد كان يمتلك مكتبةً احتاج إلى مائة وعشرين جملاً لنقلها من الجانب الغربي من بغداد. وقد أسس جعفر بن محمد الموصلي الشافعي المعروف بابن حمدان في بلده الموصل مكتبةً خاصةً يسميها ياقوت الحموي "دار علم" وقد جعل فيها خزائن كتب في جميع العلوم، وكانت تفتح أبوابها لكل طالب علم، وإذا جاءها غريب يطلب الأدب وكان معسرا أعطاه ورقا. وكانت المكتبة تفتح كلّ يوم لجميع الناس فهي إذن مكتبة خاصة– عامة.

وتروي المصادر أن الأصمعي خرج يوماً مع الرشيد إلى إحدى المدن فلقي إسحاق الموصلي هناك فسأله هل حمل معه شيئاً من كتبه؟ فقال له: حملت ما خفَّ، فقال له الأصمعي: كم مقداره؟ فقال: ثمانية عشر صندوقاً، فعجب الأصمعي وقال: إذا كان هذا ما خفَّ فكم يكون ما ثقل؟ فقال الموصلي أضعاف ذلك. وقد استمر حب الكتب والاهتمام بجمعها وإيجاد المكتبات الخاصة واستعمالها والتباهي بها مستمراً حتى أواخر الدولة العباسية، بل وما بعدها. فقد أنشأ وزير المعتصم آخر الخلفاء العباسيين دار كتب اشتملت على عشرة آلاف مجلد.

وإذا انتقلنا إلى بلاد الشام ومصر وجدنا أيضاً اهتماماً واضحاً بالمكتبات الخاصة ولكن ليس على نفس المقياس. فالوزير جمال الدين القفطي وزير حلب كان مغرماً بالكتب وجمع من الكتب الكثير. كذلك وجد في مصر مكتبات خاصة جمعها بعض الوزراء والأطباء والأفراد، فقد كان ليعقوب بن كلس وزير العزيز بالله الفاطمي خزانة كتب لنفسه. وكان محباً للعلوم، يجمع حوله العلماء والأدباء، وكان في دار كتبه قوم يكتبون القرآن الكريم وآخرون يكتبون الحديث والفقه والأدب وحتى الطب.

وقد اشتهر الأطباء المسلمون في مصر وسوريا بحب الكتب وجمعها فقد ذكر ابن أصيبعه عدداً من الأطباء الذين أولعوا بالكتب وجمعها ومن بينهم موفق الدين بن المطران الذي مات وفي خزانته من الكتب الطبية ما يناهز عشرة آلاف مجلد، وكان في خدمته ثلاثون نسّاخاً يكتبون له بشكل دائم. وابن المطران هذا كان من أطباء دمشق ومعاصراً لصلاح الدين الأيوبي وتوفي في زمانه.

أما في الأندلس فقد غالى المسلمون في اقتناء الكتب وفي زخرفتها وتجليدها

وقد بلغت المكتبات في تلك الديار الإسلامية درجة عالية جداً من التقدم وذلك كنتيجة طبيعية للحضارة التي أوجدها الإسلام هناك. والواقع أن حضارة الإسلام في إسبانيا نافست حضارة الإسلام في المشرق. وقد بلغ من عظمة قرطبة وازدهارها وخاصة إبان العهد الأموي في الأندلس أنها كانت أعظم مدينة في أوروبا كلّها وتأتي على قدم المساواة مع القسطنطينية وبغداد إبان عزّهما. لذلك لا غرابة أن انتشرت المكتبات في جميع أنحاء الأندلس وكثر روّادها وكثر التأليف والمؤلفون ولا سيما أنه وُجد حكام مسلمون شجعوا العلم وهم أنفسهم كانوا مثلاً عالياً في حب الكتب وجمعها والاهتمام بها كالحكم الثاني وغيره.

ويبدو أن دخول الورق إلى الأندلس قد تأخر بعض الوقت أو أن العادة في كتابة المصاحف على الرقوق ظلت سائدة رغم توفر الورق. ويذكر المقدسي عن أهل الأندلس أن مصاحفهم ودفاترهم كانت في رقوق وأنهم كانوا أحذق الناس في الوراقة وخطوطهم مدورة. وكان من عادة أهل الأندلس أن يرحلوا إلى المشرق العربي ويحضروا معهم الكتب المختلفة.

وممن اشتهر في الأندلس في جمع الكتب القاضي أبو المطرف عبد الرحمن بن محمد بن عيسى ابن اصبع وقد جمع من الكتب في العلوم المختلفة ما لم يجمعه أحد من أهل عصره في الأندلس. وكان له ستة ورّاقين ينسخون له دائماً. كذلك جمع المؤلف المشهور ابن حزم مكتبةً كبرى ولكنها أحرقت.

ولقد وُجد بالأندلس نسوة عالمات اهتممن بجمع الكتب وبالأدب ومن هؤلاء عائشة بنت أحمد بن قادم القرطبية التي لم يكن في الأندلس في زمانها من يعدلها فهماً وعلماً وأدباً وشعراً وفصاحةً وعفةً وكانت حسنة الخط تكتب

المصاحف وتجمع الكتب ولها خزانة كتب ضخمة.

وقد انتشرت عادة اقتناء الكتب في الأندلس وإنشاء المكتبات الخاصة كما ينشيء أحدنا هذه الأيام غرفة الاستقبال لضيوفه أو غيرها من الغرف الأساسية. حتى أن البعض قد يكون جاهلاً أو غير مهتم بالموضوع ولكن لكي يقال بين الناس في الحي أو البلدة أن فلاناً من الناس عنده بعض خزائن الكتب الجيدة التي تحوي كتباً نادرةً كان ينشئ مكتبةً خاصةً وأحياناً يفتح أبوابها للآخرين.

والواقع أن الثقافة العربية الإسلامية والتربية والتعليم إنتشرت في القرن العاشر والحادي عشر الميلاديين في الأندلس المسلمة إلى درجة جعلت أحد المؤرخين الأجانب يقول بأن أغلب الناس في الأندلس كانوا قادرين على القراءة والكتابة. وقد انتقلت الثقافة العربية الإسلامية إلى الإسبان غير المسلمين الذين عاشوا تحت ظل الحكم الإسلامي، وقد سرت إليهم العادات الإسلامية وتعلّموا اللغة العربية وكتبوا بها بل واقتنوا مكتبات عربية حتى أنه يروى عن كاتب نصراني متعصب وهو قس أنه قال:

((إن إخواني المسيحيين يدرسون كتب فقهاء المسلمين وفلاسفتهم لا لتنفيذها بل لتعلم الأسلوب العربي البليغ. واأسفاه، إنني لا أجد اليوم من يقبل على قراءة الكتب الدينية المسيحية أو الإنجيل، بل أن الشباب المسيحي الذين يمتازون بمواهبهم الفائقة أصبحوا لا يعرفون علماً ولا أدباً ولا لغةً إلاّ العربية. ذلك لأنهم يقبلون على كتب العرب في نهم وشغف ويجمعون منها مكتباتٍ ضخمةً تكلفهم الأموال الطائلة في الوقت الذي يحتقرون الكتب المسيحية وينبذونها.))
وهذا دليل واضح على انتقال عادة اقتناء المكتبات الخاصة من المسلمين إلى

المسيحيين في أسبانيا.

وفي الواقع يصعب جداً حصر المكتبات الخاصة التي عرفتها الحضارة العربية الإسلامية ولكن يستطيع المرء أن يقول أن كثيراً من طبقات المسلمين كان لها مكتباتها الخاصة تنشئها وتمولها من أموالها الخاصة، وقد تفتحها لعامة الناس أو يقتصر إستخدامها عليها وعلى المقربين منها. وقد لعبت المكتبات الخاصة دوراً هاماً في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية حيث حافظت على الكثير من الكتب النادرة والمخطوطات العربية الإسلامية. وقد فُقد عدد كبيرة من هذه المكتبات الخاصة لأسباب عديدة كالحريق والتمزيق والخلافات السياسية والمذهبية.

قائمة المصادر

(1) ربحي مصطفى عليان. مكتبات الخلفاء والمكتبات الخاصة في الإسلام. – مجلة الهداية (البحرين). – السنة 17، العدد 193 (سبتمبر 1993). – ص29–33.

(2) سعيد أحمد حسن. أنواع المكتبات في العالمين العربي والإسلامي. – عمان: دار الفرقان، 1984.

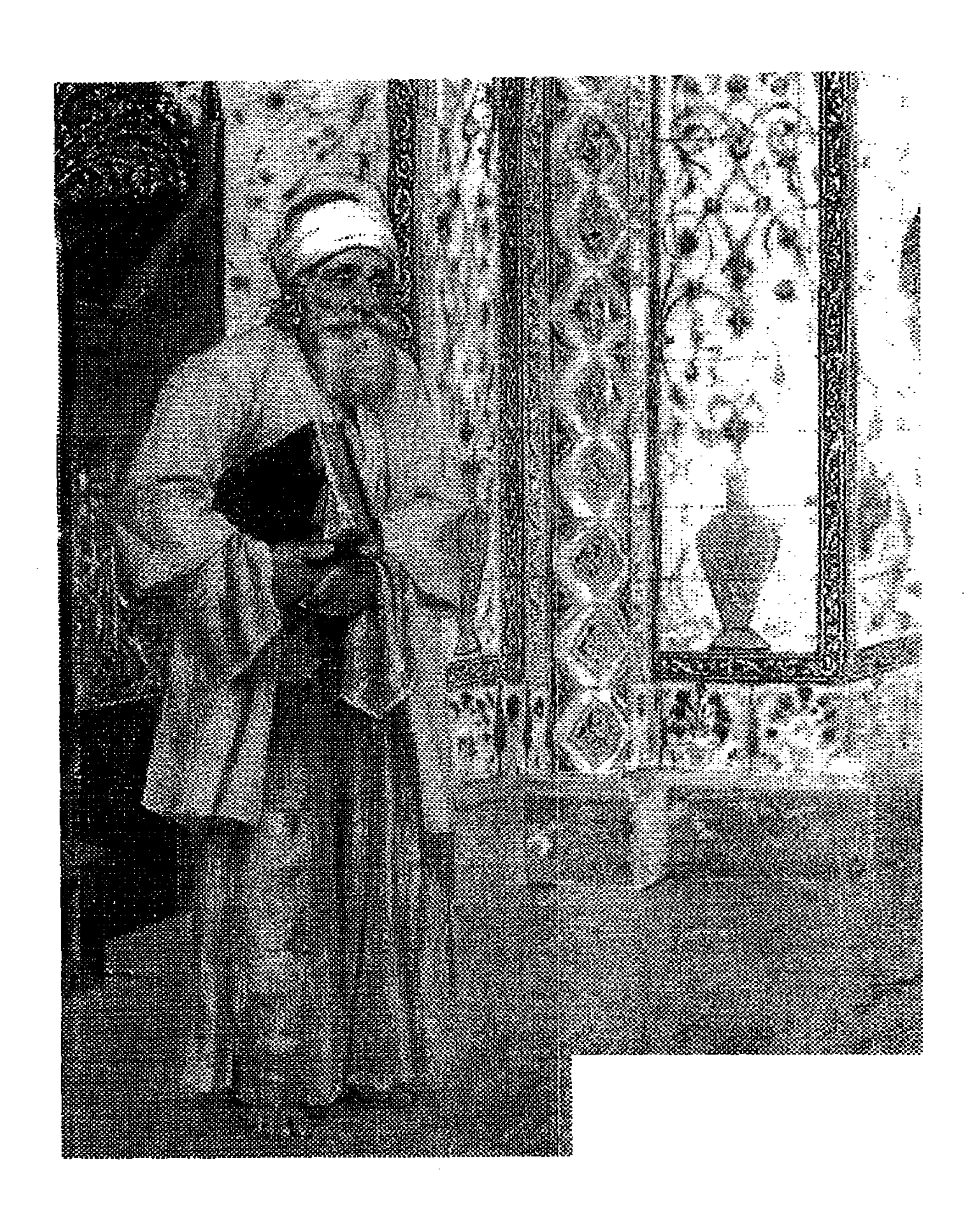
(3) محمد ماهر حمادة. الحاكم بأمر الله ودار الحكمة. – المجلة العربية. – س4، ع3 (1980). – ص59–61.

(4) محمد ماهر حمادة. الكتب والمكتبات في الأندلس. مجلة كلية العلوم الإجتماعية. ع6 (1982). –ص345–367.

(5) محمد ماهر حمادة. مكتبات الفاطميين الخلافية. – المجلة العربية. –س4، ع9 (1980). – ص58–61.

(6) محمد ماهر حمادة. المكتبات في الإسلام: نشأتها وتطورها ومصائرها. بيروت: مؤسسة الرسالة، 1986.

(7) يوسف العش. دور الكتب والمكتبات العامة وشبه العامة لبلاد العراق والشام ومصر في العصر الوسيط. – بيروت: دار الفكر المعاصر، 1991.



(شيخ .... وكتاب)

(ج) مكتبات المدارس في الحضارة العربية الإسلامية.

في بداية ظهور الإسلام كانت المدرسة مؤسسة جديدة نسبياً، ولم يكن للمسلمين عهد طويل بها، ذلك لأن مكان التعليم والتدريس الطبيعي في الإسلام هو المسجد والجامع والكتاتيب وغيرها. ولم يحدث أن بنيت المدارس في الحضارة العربية الإسلامية إلاّ في مرحلة متأخرة.

وعلى الرغم من أن المؤرخين يذكرون أن أول من أسس مدرسة في الإسلام هو نظام الملك وزير السلاجقة في النصف الأول من القرن الخامس للهجرة، إلاّ أن المدارس قد وُجدت في الإسلام قبل ذلك بفترة ليست وجيزة، ولكن نظام الملك هو الذي جعلها عملاً رسمياً تقوم به الدولة الإسلامية وتلتزم به وهو الذي نشرها في عدد كبير من المدن في شرقي الإمبراطورية الإسلامية مثل بغداد واصفهان ونيسابور والري ومرو وغيرها. أما أشهرها جميعاً فهي نظامية بغداد التي خرَّجت عدداً من علماء المسلمين وظلّت حتى سقوط بغداد بيد المغول.

وقد خُصصت المدرسة النظامية لتدريس علوم السُنة وخاصةً المذهب الشافعي وألحق بها نظام الملك مكتبةً غنيةً منظمةً وزوَّدها بنوادر الكتب. وممن درَّس في المدرسة النظامية الغزالي وابن شداد صاحب كتاب السيرة اليوسفية. وقد زارها ابن جبير إبَّان الحروب الصليبية ووصفها في رحلته المعروفة برحلة ابن جبير. كما زارها الرحالة المسلم ابن بطوطة ووصفها في رحلته. كما وصفها المؤرخ المصري ابن الفرات.

وقد شغل منصب أمين المكتبة في المدرسة النظامية أناس هم في الذروة فضلاً وأدباً ومكانةً فأول خازن للمكتبة كان شاعراً وأديباً. وقد كانت المكتبة تحاط بعناية فائقة وتهوي إليها أفئدة الطلاب والدارسين. أما مصيرها فغير معروف، حيث يعتقد البعض أنها أدمجت بمكتبة المدرسة المستنصرية ويعتقد الآخر أنها دُمرت عندما مرَّ تيمورلنك من بغداد في أوائل القرن الرابع عشر.

أما آخر مدرسة أنشئت في بغداد قبل سقوطها بيد المغول سنة 656هـ ولعلّها أفخمها، فهي تلك التي عُرفت باسم مؤسسها الخليفة المستنصر بالله العباسي (المدرسة المستنصرية). واعتماداً على وصف المؤرخين لها ولتكاليف إنشائها يمكن القول إنه لم يُبن ما هو أجمل منها وأفخم. وقد كان المستنصر بالله محباً للأدب ومشجعاً له ويحب أهل العلم والأدب ويُقربهم منه ولهذا ازداد المشتغلون بالعلوم في أيامه حيث وسعهم بعطاياه وكرمه وفضله.

ورغم أن المستنصر أنشأ مكتبةً خاصةً في قصره، إلاّ أن اسمه لا يقترن بها وإنما بالمكتبة التي ألحقها بالمدرسة المستنصريةوزوّدّها بالكتب اللازمة من مكتبته الخاصة.حيث يقول ابن القوطي أن المستنصربالله نقل يوم تكامل بناء المدرسة المستنصرية من المصاحف والكتب النفيسة في مجال العلوم والآداب ما حمله مائة وستون جملاً. وفي روايات أخرى ما حمله مائتان وتسعون جملاً سوى ما نقل إلى خزائن كتب المدرسة بعد ذلك، ويقدر البعض ذلك بثمانين ألف مجلد. وقد ازداد عدد الكتب فيما بعد حتى أن ابن القوطي الذي أصبح خازناً لمكتبة المستنصرية في أواخر القرن السابع الهجري يذكر أنه لم يوجد مثل مكتبة المستنصرية في العالم. وهذه شهادة تعطي انطباعاً عن المكتبة ومقتنياتها وتنظيمها حيث نُظمت المكتبة

بشكل دقيق ليسهل استخدامها من قبل الطلاب والعلماء الذين كـانوا يقصدونـها من مختلف الديار الإسلامية.

بشكل عـام فقـد انتشـر بنـاء المـدارس في الإسـلام إنتشـاراً واسـعاً في مـدن العراق وسوريا ومصر وغيرها، وقد ألحقـت بجميـع المـدارس الإسـلامية مكتبـات. فنور الدين الشهيد بنى مدرسةً في دمشق وألحق بها مكتبةً، وكذلـك فعـل صـلاح الديـن، والقـاضي الفـاضل وزيـر صـلاح الديـن أسّـس مدرسـةً في القـاهرة سمّاهـا الفاضلية وأودع فيها حوالي مائتي ألف مجلد مما أخذه من خزائن الفاطميين. ويذكر ياقوت الحموي عدة مدارس في مرو كانت تحوي في زمانه مكتباتٍ ضخمةً وكانت أبوابها مفتوحةً للجميع.

ومن المكتبات المخصصة للبحث والدرس وللدراسـات العليـا كذلـك مكتبـة بيت الحكمة في بغداد والتي تعتبر أشهر المكتبات الإسلامية على الإطـلاق. وتعتـبر المكتبة أول بيت حكمةٍ عرفت في الإسلام، وترجّح المصادر أن مؤسس المكتبة هـو أبو جعفر المنصور حيث كانت خزانة كتبه نواةً لهذه المكتبة. وعندمـا جـاء الخليفـة هارون الرشيد شجّع حركات الترجمة وأضاف إلى خزانة جده المنصـور مـا اجتمـع لديه من الكتب المؤلفة والمترجمة فتوسّعت الخزانة وأصبحت مكوّنةً من عدة خزائن ولكل خزانةٍ مشرف. كما عين الرشيد في المكتبة عدداً من المـترجمين الذيـن كـانوا يترجمون من لغاتٍ مختلفةٍ إلى العربيـة ومـن بـين المـترجمين المشـهورين زمـن الرشـيد يوحنا بن ماسويه الذي كان يترجم للرشيد الكتب التي نقلها من عموريـة وأنقـره. ومن النسّاخ البارزين في عهد الرشيد علاّن الشعوبي.

ولما تولى الخليفة المأمون الحكم اهتم بالحركة العلمية ودعمها ماديـاً ومعنويـاً

ووسَّع خزائن بيت الحكمة وأرسل البعثات إلى الجهات المختلفة من العالم الإسلامي واختار المترجمين من اليونانية والسريانية والفارسية والعبرية والهندية والقبطية والحبشية إلى العربية. لقد كان المأمون يجزل العطاء في المكتبة حتى أنه كان يعطي حنين بن اسحق المترجم المعروف وزن الكتاب الذي يترجمه ذهباً. وفي مجال التأليف كان الخوارزمي وغيره منقطعين للتأليف.

وممن أشرف على المكتبة سهل بن هارون أمين المكتبة وسعيد بن هارون الذي كان شريكاً لسهل. وقد كانت أجورهم عاليةً إلى حد الشك في صحتها. فتذكر المصادر أن ثابت بن قره وحنين بن اسحق كانا يتعاطان راتباً شهرياً قدره خمسمائة دينار. والحقيقة أن ميزانية المكتبة كانت غير محدودة بسبب دعم المأمون لها.

أما طرق الحصول على الكتب لمكتبة بيت الحكمة فقد كانت متنوعةً ومنها جلب الكتب من الدول التي يفتحها المسلمون، ومنها الشراء ومنها الهدايا، ولكن المصدر الرئيسي كان ما يؤلّف أو يترجم أو ينسخ داخل حدود الدولة الإسلامية بشكل عام وداخل المكتبة بشكل خاص. ولهذا بلغ عدد كتبها مليوناً وستمائة ألف كتاب.

وتذكر المصادر أن بيت الحكمة كان مؤثثاً بأفخر الأثاث من حيث الرفوف والأبواب والستائر والسجاد وغيره. وقد كانت مكتبة بيت الحكمة مفتوحةً لكل قارئ أو باحثٍ ولهذا يعتبرها البعض مكتبةً عامةً، إلاّ أن البعض يعتبرها أكاديميةً بسبب نشاطاتها في مجال التأليف والترجمة والنقل والنسخ وكذلك في مجال الندوات والمحاضرات. بالنسبة لمصير بيت الحكمة فقد بدأت تضعف تدريجياً بعد موت المأمون إلى أن دخل المغول بغداد وأحرقوا المكتبة التي خلّدت ذكر الرشيد

والمأمون بل والمكتبات العربية الإسلامية عبر عصورها المختلفة.

أما ثاني أكبر وأضخم وأشهر مكتبة عرفتها الحضارة العربية الإسلامية فهي مكتبة دار العلم في القاهرة والتي تأسست على يد الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله عام 395هـ. وكان من أسباب إنشائها بالإضافة إلى نشر العلم والثقافة منافسة مكتبة بيت الحكمة في بغداد. أما مكانها فكان وسط القاهرة وقد زودت المكتبة في بداية تأسيسها بالكتب التي كانت لدى الحاكم بأمر الله في قصره بالإضافة إلى خزائن القصور الأخرى ويقدر عدد هذه الكتب بستمائة ألف مجلد. وتذكر المصادر بأن المكتبة كان لديها مصورات جغرافية وآلات فلكية وتحف فنية وكرتان أرضيتان.

وكان لمكتبة دار العلم أمين يسمى الخازن يشرف على محتوياتها وموظفيها. كما عين لها مترجمون ومجلدون. وكان هناك عدد من المناولين والذين نسميهم حاليا موظفي الإعارة. وكانت الإعارة مسموحة لعامة الناس. وضمت المكتبة النساخ من ذوي المهارات العالية وجودة الخط. كما خصصت قاعات خاصة للنسخ توفر ما يلزم من أقلام وحبر وورق. وكان الحاكم بأمر الله يشرف بنفسه على الحركة العلمية التي كانت تدور في دار العلم وكان يكرم العلماء الذين يشتركون في المناظرات والمجالس الدينية والعلمية التي كانت تقام داخل دار العلم.

وقد لعبت دار العلم دورا حضاريا هاما لكن دخول التيارات والمعتقدات والفتن المختلفة أدت إلى نهايتها. فقد أمر الملك الأفضل بإغلاقها لمحاولة جماعة من الناس نشر تعاليمهم الغريبة من خلالها. ثم أعيد فتحها زمن الخليفة الآمر بأحكام الله وبقيت إلى أن انتهى الحكم الفاطمي وجاء صلاح الدين الأيوبي ليبني مكانها مدرسة للشافعية.

قائمة المصادر

(1) ربحي مصطفى عليان. المكتبات في الحضارة العربية الإسلامية. -أنباء الجامعة. -ع182 (1987). -ص30-32.

(2) رمزية محمد الاطراقجي. بيت الحكمة وأثره في الحركة العلمية. -المؤرخ العربي. -ع14 (1980). -ص317-355.

(3) سعيد أحمد حسن. أنواع المكتبات في العالمين العربي والإسلامي. -عمان: دار الفرقان، 1984.

(4) محمد ماهر حمادة. المكتبات في الإسلام: نشأتها وتطورها ومصائرها. - بيروت: مؤسسة الرسالة، 1986.

(5) ناجي معروف. مكتبة المستنصرية. -ص329-369. (في) ناجي معروف. - تاريخ علماء المستنصرية. -ج2. -ط3. -القاهرة: دار الشعب 1976.

(6) يوسف العش. دور الكتب والمكتبات العامة وشبه العامة لبلاد العراق والشام ومصر في العصر الوسيط. - بيروت: دار الفكر المعاصر، 1991.

(د) المكتبات العامة في الحضارة العربية الإسلامية.

تعد المكتبات العامة المقياس الحقيقي والدقيق لرقي الشعوب والأمم. وان انتشارها وسهولة ارتيادها دليل على ثقافة الشعب وحبه للعلم. وقد كانت المكتبات العامة في الحضارة العربية الإسلامية ذائعة كل الذيوع ومنتشرة في أرجاء العالم الإسلامي من حدود الصين شرقاً إلى الأندلس غرباً. وقلما تخلو بلدة إسلامية أو ناحية من مكتبة عامة، هذا عدا عن مكتبات الأفراد ومكتبات المساجد ومكتبات الخلفاء ومكتبات المدارس وغيرها.

ولا بد من القول بأن المكتبة العامة في الإسلام كانت عامة بالمعنى الحرفي والدقيق للكلمة، ولم يمنع أحد من ارتيادها. وكان دخولها أو ارتيادها والمطالعة فيها يتم عادة بالمجان. وكثيراً ما كانت المكتبات العامة في الإسلام تقدم الورق والحبر وأدوات الكتابة مجاناً لروّادها. وكان في بعضها مرشدون لمساعدة القرّاء في ايجاد الكتب التي يبحثون عنها. وقد ذكر ياقوت الحموي أن عدد المكتبات في (مرو) في زمانه بلغ العشر، بعضها في الجوامع وبعضها في المدارس وبعضها في أبنية خاصة، أي أنها مكتبات عامة تمتاز بأن المطالعة فيها حرة وتسمح أحياناً بالاعارة الخارجية بدون رهن.

ومما شجع على انتشار المكتبات العامة في الإسلام أن من عادة العلماء والوزراء والأغنياء أن يوقفوا بعد وفاتهم مكتباتهم الخاصة لمدنهم كما فعل الصاحب بن عباد إذ أوقف مكتبته لمدينة الري فأصبحت مكتبة عامة. وقد أنشأ

أبو علي بن سوار الكاتب أحد رجال عضد الدولة البويهي دار كتب عامة في مدينة رام هرمز على شاطئ الخليج العربي.

أما أشهر المكتبات العامة في الحضارة العربية الإسلامية فهما مكتبة سابور في بغداد ومكتبة بني عمار في طرابلس الشام. بالنسبة لمكتبة سابور بن أردشير فقد أسسها وزيره بهاء الدولة البويهي وكان ذلك سنة 382هـ، وكان يطلق على هذه المؤسسة تسميتان مختلفتان، إحداهما خزانة الكتب والثانية دار العلم. وقد أوقف الوزير أوقافاً كثيرة مجزية على الدار كانت كافية للانفاق عليها طوال مدة حياتها. ولم تحتج لأحد طوال هذه الفترة. وقد بلغ عدد كتبها أكثر من عشرة آلاف مجلد من أصناف العلوم. وقد ازدهرت هذه المكتبة ازدهاراً رائعاً وارتفع صيتها وطارت سمعتها في الآفاق، وقصدها الأدباء والعلماء والشعراء من مختلف الديار الإسلامية. وقد كان يسر المؤلف أن تقبل مكتبة سابور العامة نسخة من كتابه كهدية، أو ما يسمى حالياً الايداع، والذي كان يسمى التخليد.

هذا ويعتبر أبو العلاء المعري الشاعر المعروف أشهر من قصد بغداد لزيارة دار العلم والتعرف على محتوياتها وعلى العلماء والأدباء الذين كانوا يرتادونها. وقد كان المشرف على دار العلم عندما زارها المعري الشريف المرتضي، وبقي يتردد عليها عاماً وبعض العام حتى صار بينه وبين العاملين فيها صداقة وصحبة.

وقد ظلت المكتبة حتى عام 451هـ حيث شبت نار هائلة واحترقت دار العلم ونهبت بعض كتبها، ويذكر بعض المؤرخين أن المكتبة قد أحرقت أثناء دخول طغرل بك بجيشه إلى بغداد. ولا بد من الإشارة إلى أنه وجد في بغداد أبان عزها ومجدها ستاً وثلاثين مكتبة عامة مفتوحة الأبواب لجميع العامة من الناس.

أما مكتبة بني عمار في طرابلس الشام فقد أصبحت قصتها كالأساطير وقد بالغ البعض في أهميتها، في حين حاول الآخرون التقليل من أهميتها، وقد حكم بنو عمار قسماً من الساحل السوري في القرن الخامس الهجري واستمروا في حكمه حتى الحروب الصليبية، وقد جعلوا من طرابلس الشام عاصمة لهم، وقد ازدهرت الزراعة والتجارة والصناعة في عهدهم، ونشطت الحياة الإقتصادية.

وكان بنو عمار شيعة على المذهب الإسماعيلي، اهتموا بنشر مذهبهم والدعاية له وبذلك أوجدوا مؤسسة تقوم بهذا الدور هي دار العلم في طرابلس الشام. وقد تعاقب على المدينة عدد من الأمراء الذين اهتموا بهذه المكتبة وتزويدها بالكتب، حتى أنه كان لهم وكلاء يجوبون الأقطار الإسلامية المختلفة بحثاً عن الكتب والمخطوطات النادرة. بالإضافة إلى ذلك كان فيها عدد من النساخ يعملون بشكل مستمر. وكان عدد النساخ يزيد على مائة وثمانين ناسخاً يتناولون العمل ليل نهار. وقد قيل أن عدد كتبها بلغ ثلاثة ملايين مجلد، منها خمسون ألف مجلد من القرآن الكريم، وثمانون ألف نسخة تفاسير. وقد اختلفت الآراء حول عدد الكتب التي احتوتها المكتبة. ولكن هذا ليس بالمهم، إنما المهم هو النهاية التي انتهت إليها هذه المكتبة العامة الشهيرة في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية.

تقول المصادر أن الصليبين أحرقوا هذه المكتبة العامة مع محتوياتها وأرضها، عندما احتلوا طرابلس عام 1009م. فقد حدث أن دخل أحد القساوسة إلى المكتبة وشاهد الكتب من حوله ويبدو أنه دخل القاعة المخصصة للقرآن الكريم، فتناول أول كتاب وفتحه فإذا هو القرآن الكريم، فرماه والتقط الثاني، فإذا به مصحف شريف فرماه، وظل يفعل نفس الشيء حوالي عشرين مرة. فلما وجد جميع الكتب

التي وقعت في يده نسخاً من القرآن الكريم، اعتقد أن المكتبة كلها تتألف من مصاحف ولذا غضب وثار، وقال: (هذه مكتبة مملوءة بالمصاحف، احرقوها). ولم يدر أنه دخل قسم المصاحف والتفاسير والذي يضم آلاف النسخ وهكذا ذهب التعصب والجهل الصليبي بثروة لن تعوض.

بشكل عام يمكن القول أن المكتبات العامة قد انتشرت في أرجاء العالم الإسلامي. ويعتبر البعض مكتبة بيت الحكمة في بغداد، ودار العلم في القاهرة مكتبات عامة بالإضافة إلى كونها أكاديمية. ويجب أن لا ننسى أن كثيراً من المكتبات الخاصة ومكتبات الخلفاء المسلمين ومكتبات المساجد، كانت تقوم في نفس الوقت بدور المكتبات العامة، حيث كانت تفتح أبوابها لعامة المسلمين، وذلك لأن الهدف النهائي من جميع أنواع المكتبات الإسلامية نشر العلم والثقافة بين المسلمين.

بالإضافة إلى المكتبات العامة فقد ظهرت مكتبات المشافي في الحضارة العربية الإسلامية، فمن مآثر الإسلام عنايته بالمرضى وإيجاد الأماكن اللازمة لمعالجتهم والعناية بهم. وقد استعمل المسلمون كلمة المارستان الفارسية الأصل للدلالة على المشفى أو بيت المرضى. وقد أنشأ الخلفاء والحكام المسلمون المشافي في طول البلاد الإسلامية وعرضها. فقد أوجد عضد الدولة البويهي في القرن الرابع الهجري مارستاناً في بغداد سمي باسمه. كذلك أنشأ نور الدين الشهيد في دمشق في القرن السادس الهجري مارستاناً وفعل مثل ذلك ملوك المماليك وحكامهم في مصر وسوريا.

وقد ألحق بهذه المشافي أو المارستانات مكتبات، لأن المشفى لم يكن

للتمريض فقط، وإنما كان أيضاً مكاناً للتعليم والتدريب العملي ومكاناً للدراسة النظرية. أما أشهر المشافي التي عندنا أخبار عن مكتباتها فهي البيمارستان العضدي وكذلك البيمارستان النوري في دمشق نسبة إلى نور الدين الشهيد الذي حكم قسماً من العراق وسوريا ومصر. ويروي المقريزي أن مكتبة كانت ملحقة بالمارستان المنصوري في القاهرة. وقد بلغت مقتنيات مكتبات المشافي عدداً ضخماً من الكتب حيث يذكر أن عدد الكتب التي وجدت في مستشفى قلاوون في القاهرة حوالي مائة ألف مجلد.

بالإضافة إلى جميع هذه الأنواع من المكتبات الإسلامية، فقد عرفت الحضارة العربية الإسلامية أنواعاً أخرى من المكتبات أقل شهرة كالمكتبات التي كانت تلحق بالترب والمقابر، حيث كان يلحق بقبور العظماء والملوك والأغنياء مكان للقراءة تلحق به مكتبة صغيرة تضم نسخاً من القرآن الكريم والكتب الدينية. كذلك ظهرت المكتبات في الخوانق، حيث تذكر المصادر أن خانقاه مرو كانت تضم مكتبة كبرى. وكانت هذه المكتبات تهدف إلى خدمة الناس البعيدين عن مراكز المكتبات الكبرى والمكتبات العامة.

وهكذا نجد أن الحضارة العربية الإسلامية قد عرفت الأشكال المختلفة للمكتبات العامة وفتحتها لعامة المسلمين وأثثتها ونظمتها، وقدمت لروّادها الخدمات المختلفة. وهذا دليل قاطع على اهتمام الإسلام بالثقافة الجماهيرية التي تسعى الدول حالياً إلى نشرها وتعميمها.

قائمة المصادر

(1) ربحي مصطفى عليان. مكتبات المساجد والمكتبات العامة في الحضارة العربية الإسلامية. –مجلة الخفجي. –1990. –ص8–11.

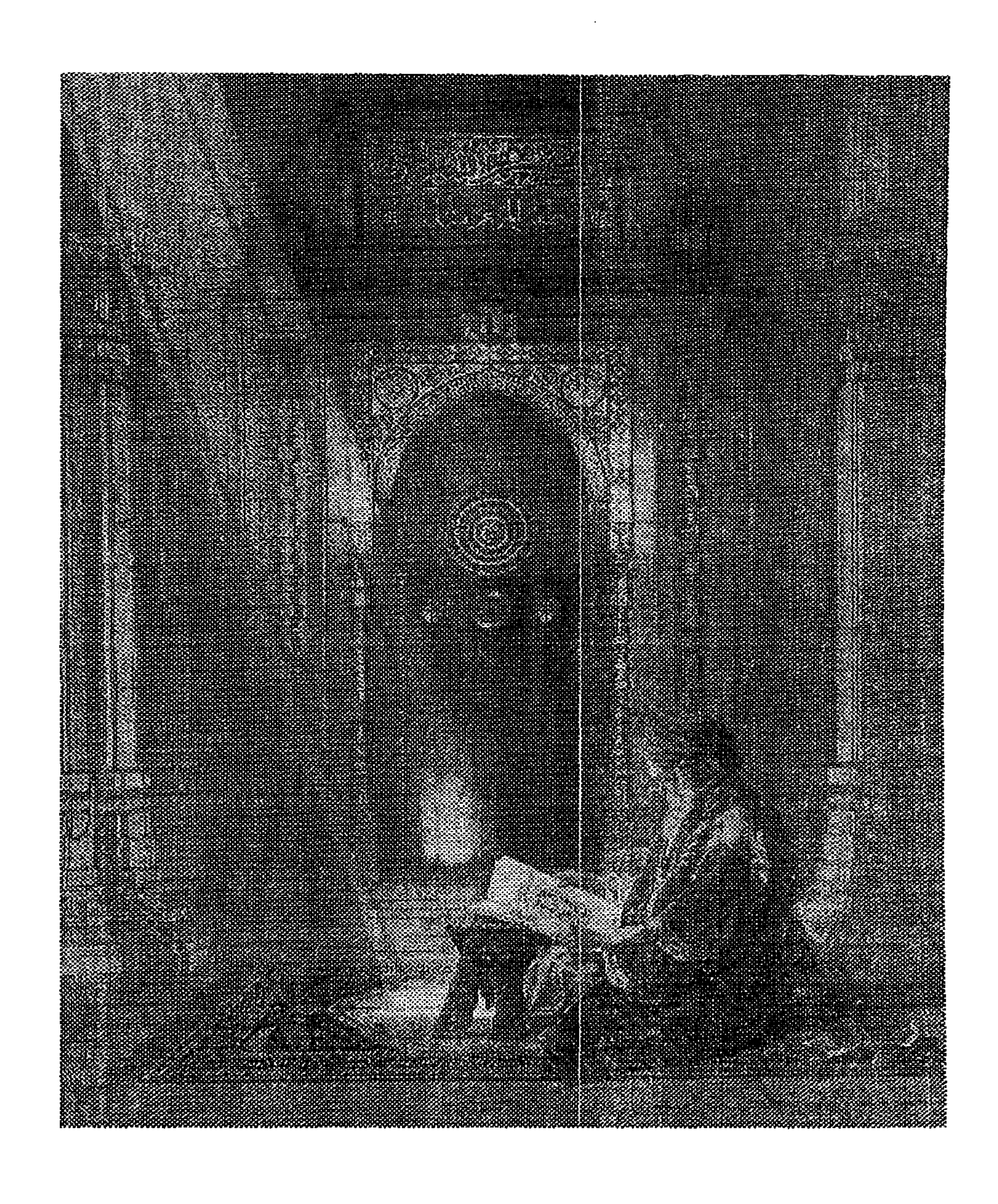
(2) سعيد أحمد حسن. أنواع المكتبات في العالمين العربي والإسلامي. –عمان: دار الفرقان، 1984.

(3) محمد صالح محي الدين. مكتبات بغداد وموقف المغول منها. –مجلة كلية العلوم الإقتصادية. ع5 (1981). –ص81–112.

(4) محمد ماهر حمادة. الحاكم بأمر الله ودار الحكمة. –المجلة العربية. –س4، ع3 (1980). –ص59–61.

(5) محمد ماهر حمادة. المكتبات في الإسلام: نشأتها وتطورها ومصائرها. – بيروت: مؤسسة الرسالة، 1986.

(6) يوسف العش. دور الكتب والمكتبات العامة وشبه العامة لبلاد العراق والشام ومصر في العصر الوسيط. – بيروت: دار الفكر المعاصر، 1991.



(لوحة تصور المكتبات في الحضارة العربية الإسلامية. فوق الباب عبارة: جليس المرء مثله)

(هـ) أشهر المكتبات في الحضارة العربية الإسلامية.

اشتهرت المكتبات في الحضارة العربية الإسلامية، وقد وصلت شهرة بعضها مختلف الديار الإسلامية. وبشكل عام فقد اشتهرت معظم المكتبات في مراكز الحضارة العربية الإسلامية مثل بغداد ودمشق والقاهرة والقدس والمغرب العربي والأندلس وغيرها. وقد اتفقت معظم المصادر في هذا المجال، على أن مكتبة بيت الحكمة في بغداد، ومكتبة دار العلم في القاهرة، ومكتبة قرطبة هي من أشهر المكتبات التي عرفتها الحضارة العربية الإسلامية. ويؤكد ذلك الأستاذ منصور محمد سرحان في كتابه (المكتبات في العصور الإسلامية) وقد رتبها وكتب عنها في كتابه على النحو التالي:

أولاً: (بيت الحكمة في بغداد):

لقد ازدهرت المكتبات على اختلاف أنواعها في العصر العباسي بشكل صار يمثل سمة الدولة والشاهد على تقدمها وتحضرها. وأسست المكتبات الكبيرة كصرح ثقافي شامخ لأول مرة في تاريخ العالم الإسلامي مما يعكس مدى أهمية المكتبات عند الخلفاء العباسيين. وبالإضافة إلى ذلك فقد أدخلوا علوماً جديدة في حقول الإنسانيات والجغرافيا والكيمياء والطب وعلم الفلك. وازدهرت حركة التأليف والترجمة وتأسست المدارس والمعاهد، واهتم الخلفاء من بني العباس بالعلم والأدب، وأخذوا يقربون العلماء والأدباء والشعراء والفلاسفة. ومما زاد من نهضتهم العلمية وحركة رواج الكتاب التوصل إلى صناعة الورق في عهد هارون الرشيد.

وقد قرّب هارون الرشيد مشاهير المؤلفين والأدباء آنذاك مثل الأصمعي، وعيسى بن يونس الصوفي، وسفيان الثوري، وإبراهيم الموصلي الموسيقي، وجبرائيل بن بختيشوع الذي امتهن الطب. وكان يحيى بن خالد البرمكي الذي يعتبر بمثابة رئيس وزراء هارون الرشيد، انتدب السفراء إلى الهند لدعوة مشاهير الأطباء والفلاسفة للعمل في بلاط هارون الرشيد.

أنشأ هارون الرشيد المتوفى سنة (194هـ/786م) مكتبة "بيت الحكمة" في بغداد وهي أول مكتبة عامة وأكاديمية تقام في البلاد الإسلامية. وزوّدها بكل ما نقل إلى العربية من كتب الطب وعلم النجوم والفلك، وما ألّف في مجال العلوم الإسلامية. وأمر هارون الرشيد بأن تضاف إلى مقتنيات مكتبة بيت الحكمة جميع الكتب التي جمعها أبو جعفر المنصور، بالإضافة إلى الكتب التي جمعها بنفسه من كتب الروم[1].

وأصبحت بغداد في عهد الرشيد قبلة طلاّب العلم والمعرفة من جميع الأمصار الإسلامية، يرحلون إليها ليكملوا ما بدأوا فيه من العلوم والفنون. فهي المدرسة العليا، وبمثابة الجامعة لطلاب العلوم الدينية والعربية. وكان فيها كبار الفقهاء والمحدثين واللغويين والنحويين والقراء الذين ما برحوا يلقون دروسهم ومحاضراتهم على طلبتهم في المساجد التي كانت بمثابة مدارس أو جامعات حسب المصطلح الحديث.

ويذكر الشيخ محمد الخضري بك في كتابه "الدولة العباسية" أنه قلما كان يتم لإنسان وصف عالم أو فقيه أو محدث أو كاتب إلا إذا رحل إلى بغداد وأخذ

---

(1) منصور سرحان. المكتبات في العصور الإسلامية، ص54.

من علمائها. ويضيف: "ولم تكن بغداد بالمقصرة في علوم الدنيا كالطب والحكمة وغيرهما من سائر الصناعات. فقد حشد إليها الأطباء والمهندسون وسائر الصناع من الأقاليم المختلفة فاستفادوا العلوم ممن سبقهم من الأمم في المدنية كالفرس وأهل الهند وأهل الروم والصابئة وغيرهم"[1].

يقول الأستاذ منصور سرحان في كتابه (المكتبات في العصور الإسلامية): وبتولي المأمون بن هارون الرشيد المتوفى سنة (218هـ/832م) سدّة الحكم تطورت مكتبة بيت الحكمة ونمت وأصبحت أكبر مركز ثقافي في العالم. وقد عرف المأمون بغزارة علمه وسعة إطلاعه وحبه للفلسفة والأدب وبقية العلوم الأخرى. وكان مغرماً بجمع الكتب ونقلها من لغاتها الأصلية إلى اللغة العربية، وانشغل في عهده جمهرة من العلماء والمترجمين المسلمين والمسيحيين وغيرهم في ترجمة الكتب اليونانية والرومانية والفارسية والهندية. واستمرّ في إرسال البعثات إلى بلدان مختلفة للحصول على الكتب، وإحضار العلماء والمترجمين والبحاثة للعمل بقسم الترجمة بمكتبة بيت الحكمة.

وكان على رأس أولئك المترجمين في بيت الحكمة الطبيب النسطوري حنين بن إسحاق المتوفى سنة (260هـ/874م) الذي ترجم إلى اللغة السريانية مائة رسالة من رسائل جالينوس ومدرسته العلمية، وإلى اللغة العربية تسعاً وثلاثين رسالة منقذاً بفضل ترجمته بعض مؤلفات جالينوس من الفناء. كما ترجم كتب المقولات والطبيعة، والأخلاق الكبرى لأرسطو، وكتب الجمهورية، والقوانين لأفلاطون، وعهد أبقراط، وكتاب الأقرباذين لديوسقريدس، وكتاب الأربعة لبطليموس،

---

(1) محمد الخضري بك. الدولة العباسية. جـ1، ص131.

وترجم العهد القديم من الترجمة السبعينية اليونانية. وكاد المأمون أن يفلس بيت المال حين كافأ حنين بن إسحاق على عمله هذا بمثل وزن الكتب التي ترجمها ذهباً[1].

عمل المأمون على توسعة مكتبة بيت الحكمة لتستوعب الكميات الكبيرة من الكتب والمخطوطات التي أمر المأمون بجمعها ومن بينها سجلات أيام الجاهلية عند العرب، وشعر العرب القدامى والرسائل والوثائق. وازدحم قصر المأمون بكبار الأدباء والشعراء والأطباء والفلاسفة الذين قدموا من مختلف أرجاء المعمورة. وأغدق الأموال الطائلة على المؤرخين والفلاسفة والنحويين وجامعي الحديث. وذكر ذلك القاضي صاعد الأندلسي في كتابه "طبقات الأمم" بقوله: "لما أفضت الخلافة إلى الخليفة السابع منهم، عبد الله المأمون بن الرشيد بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور، تمم ما بدأ به جده المنصور فأقبل على طلب العلم في مواضعه واستخراجه من معادنه بفضل همّته الشريفة وقوة نفسه الفاضلة فداخل ملوك الروم وأتحفهم بالهدايا وسألهم صلته بما لديهم من كتب الفلاسفة فبعثوا إليه بما حضرهم من كتب أفلاطون وأرسطو طاليس وأبقراط وجالينوس وأقليدس وبطليموس وغيرهم من الفلاسفة، فاستجاد لها مهرة التراجمة وكلّفهم أحكام ترجمتها فترجمت له على غاية ما أمكن ثم حض الناس على قراءتها ورغبهم في تعلمها فنفقت سوق العلم في زمانه وقامت دولة الحكمة في عصره وتنافس أولو النباهة في العلوم لما كانوا يرون من إعطائه لمنتحليها واختصاصه لمتقلديها فكان يخلو بهم ويأنس بمناظرتهم ويلتذ بمذاكرتهم فينالون عنده المنازل الرفيعة والمراتب

---

(1) ول ديورانت. قصة الحضارة. جـ13. ص 178.

السنية وكذلك كانت سيرته مع سائر العلماء والفقهاء المحدثين والمتكلمين وأهل اللغة والأخبار والمعرفة بالشعر والنسب فأتقن جماعة من ذوي الفنون والتعلم في زمانه كثيرا من أجزاء الفلسفة وسنوا لمن بعدهم منهاج الطلب ومهدوا أصول الأدب حتى كادت الدولة العباسية تضاهي الدولة الرومية أيام اكتمالها وزمان اجتماع شملها"[1].

أسس المأمون ما نستطيع أن نطلق عليه أكاديمية الترجمة، وقد أشار النص السابق للقاضي صاعد الأندلسي إلى ذلك بوضوح. ومن بين من عملوا مترجمين ببيت الحكمة أبو يحيى بن البطريق وهو أحد علماء الإغريق. وكذلك حنين بن أسحق الذي تمت الإشارة إليه سابقا وكان أبوه صيدليا من قبيلة العبادين التي تسكن الحيرة المركز التجاري القديم في الفرات. وتعلم اللغة الإغريقية في آسيا الصغرى حتى أتقنها، كما تعلم الفارسية على يد أمهر معلمي البصرة، أما الآرامية فقد كان يعرفها ويتحدث بها منذ طفولته، هذا بالإضافة إلى إجادته التامة للغة العربية. وقد أجاد النقل إلى اللغة العربية، فهو في ترجمته لا يستبدل كلمة بأخرى، بل يصب المعاني بوضوح وفن ودقة في قالب عربي. وكان النقل يتم في السابق من اليونانية إلى السريانية ومنها إلى العربية فلما أتى حنين جعل النقل يتم مباشرة من اليونانية إلى العربية. ومن بين المترجمين أيضا ابن ماسوية المتوفي سنة 243هـ/857م.

أدى وجود كوكبة من المترجمين البارزين بمكتبة بيت الحكمة في بغداد إلى تشجيع المأمون في الاستمرار في طلب المزيد من الكتب من الخارج. فقد طلب المأمون من صاحب جزيرة قبرص أن يحصل على جميع الكتب اليونانية الموجودة في

---

(1) منصور سرحان. المكتبات في العصور الإسلامية، ص56.

الجزيرة. وكانت الكتب اليونانية قد جمعت في بيت في الجزيرة ومنع الناس من الإطلاع عليها. وأزاء طلب المأمون جمع صاحب الجزيرة رجاله وعلماء جزيرة قبرص وأبلغهم بطلب المأمون. فكان جوابهم الرفض، إلا أن مطراناً أشار عليه أن يسلم المأمون جميع الكتب دونما تردد. وعندما سئل عن سبب موافقته على إرسال الكتب، أجاب المطران أن هذه العلوم العقلية ما دخلت على دولة شرعية إلا أفسدتها وأوقعت بين علمائها. فوافق صاحب الجزيرة على رأي المطران وأرسل الكتب إلى المأمون الذي سرّه ذلك كثيراً.

ويروي ابن النديم في (الفهرست) ما يشابه الراوية السابقة بقوله: "فإن المأمون كان بينه وبين ملك الروم مراسلات، وقد استظهر عليه المأمون فكتب إلى ملك الروم يسأله الإذن في إنفاذ ما يختار من العلوم القديمة المخزونة المدخرة ببلد الروم. فأجاب إلى ذلك بعد امتناع. فأخرج المأمون لذلك جماعة، منهم الحجاج بن مطر وابن البطريق وسلمان صاحب بيت الحكمة وغيرهم. فأخذوا مما وجدوا ما اختاروا. فلما حولوه إليه، أمرهم بنقله فنقل. وقد قيل: أن يوحنا بن ماسويه ممن نفذ إلى بلاد الروم"[1].

من هنا كانت مكتبة بيت الحكمة عبارة عن مقر للترجمة والتأليف والنسخ والمطالعة والدرس. وكان يتردد عليها للبحث والتأليف الفيلسوف الكندي المتوفى سنة 246هـ/860م، ومحمد بن موسى الخوارزمي المتوفى سنة 850م، ويحيى بن أبي منصور الموصلي، والفضل بن نوبخت، وأولاد شاكر، وابن إسحاق وغيرهم.

(1) ابن النديم. الفهرست، ص 504.

وقد ضمت مكتبة بيت الحكمة الكتب على اختلاف أنواعها، منها كتب التراث الإسلامي والسير والتراجم والكتب العلمية والفلكية، وكتب الكيمياء والطب والجبر، وكتب الفلسفة والأدب. كما احتوت المكتبة على مرصد فلكي ومخطوطات ومصورات بلدانية. وقسمت المكتبة إلى أقسام منها أماكن لخزن الكتب حيث يستطيع طلاب العلم استعارة ما ينشدونه من كتب ومؤلفات، كما خصصت بعض غرف المكتبة للمطالعة والمناظرة والنقاش. وأفردت أماكن للنقل والترجمة. وخصص جناح لكل لغة، كما خصص قسم للتأليف والاستنساخ والتجليد والتذهيب.

ووصف ول ديورانت في كتابه "قصة الحضارة" بيت الحكمة بأنها مجمع علمي، ومرصد فلكي ومكتبة عامة. أنفق في إنشائها مائتي ألف دينار. وأقام فيه طائفة من المترجمين وأجرى عليهم الأرزاق من بيت المال. ويقول ابن خلدون أن الإسلام مدين إلى هذا المعهد العلمي باليقظة الإسلامية الكبرى التي اهتزّت بها ارجاؤه والتي تشبه في أسبابها – وهي انتشار التجارة، وإعادة كشف كنوز اليونان – وفي نتائجها – وهي ازدهار العلوم والفنون – نقول إنها تشبه في أسبابها ونتائجها النهضة الأوروبية التي أعقبت العصور الوسطى[1].

لم يتوقف دور بيت الحكمة على اقتناء الكتب وحركة الترجمة والمناظرات والمناقشات والندوات فقط، وإنما تعدى ذلك إلى رصد الأجرام السماوية وتسجيل نتائج تلك الارصاد. كما حقق علماء العرب في كشوف بطليموس ودرسوا كلف الشمس، ورصدوا مواضعها. ولم يكن هؤلاء الفلكيون يقبلون بشيء إلا بعد أن

---

(1) ول ديورانت. قصة الحضارة. جـ13. ص 178.

تثبته الخبرة والتجارب العلمية. وكانوا يسيرون في بحوثهم ودراساتهم وفق قواعد علمية خالصة[1].

ولخّص الشيخ محمد الخضري بك عهد المأمون بقوله أنه من أرقى عهود العلم في العصر العباسي وذلك لأمرين: الأول أن المأمون نفسه اشتغل بالعلم وأمعن فيه حينما كان بمرو. فقد جالس كثيراً من العلماء وأخذ عنهم جملة صالحة من العلوم الدينية كالحديث والتفسير والفقه واللغة العربية، فكان لذلك محباً للعلم وزيادة نشره. والثاني ما كان من الأمة نفسها إذ ذاك حيث وجد فيها شوق إلى العلم والبحث وكثرة العلماء في كل مصر من أمصار المسلمين[2].

---

(1) منصور سرحان. المكتبات في العصور الإسلامية، ص58.

(2) محمد الخضري بك. الدولة العباسية. جـ1، ص 196.

ثانيا : (دار العلم أو دار الحكمة في القاهرة) :

لقد بلغ الاهتمام بالمكتبات ذروته في عهد الفاطمين، وأصبحت القاهرة من أكبر المراكز الثقافية في العالم. ومارس الفاطميون دورا مميزا في نشر الثقافة وتطورها فأسسوا في مصر المكتبات التي باتت تتفوق بضخامتها وأهميتها على سائر المكتبات في العالم الإسلامي بما في ذلك مكتبة بيت الحكمة في بغداد.

وفي بداية الأمر أسس الخليفة العزيز بالله الفاطمي مكتبة ضخمة في قصره بالقاهرة ضمت العديد من المخطوطات والكتب بلغت حسب بعض المصادر 200 ألف مجلد، وتقدرها مصادر أخرى بزهاء 600 ألف مجلد، ومن ضمنها 240 نسخة من القرآن الكريم مزينة ومجلدة بشكل جيد، بالإضافة إلى 1800 مخطوطة حول العالم القديم[1]. وكانت الكتب الأخرى تشمل الشريعة والتجويد والنحو والتاريخ والسِّيَر والفلك والكيمياء.

وتصف المستشرقة الألمانية زيغرد هونكه في كتابها "شمس العرب تسطع على الغرب" اهتمام الخليفة بالمكتبة وما اقتنته من كتب بقولها: "ولا يستطيع أحد أن يقارن نفسه بالخليفة العزيز في القاهرة، حتى خليفة قرطبة، الذي بعث رجاله وسماسرته في كل أنحاء الشرق ليجلبوا له الكتب فيزيد روائع مكتبته، أنى له أن يصل إلى ما فعله العزيز لقد حوت مكتبة العزيز 1.600.000 مجلد، فكانت بذلك أجمل وأكمل دار للكتب ضمت 6500 مخطوطة في الرياضيات و 18000 مخطوطة في الفلسفة. ولم يمنع هذا قط ابنه من بعده، حين اعتلى العرش، من أن يبني مكتبة ضخمة فيها ثماني عشرة قاعة للمطالعة إلى جوار المكتبة القديمة"[2].

---

(1) الكسندر ستيبتشفيتش. تاريخ الكتاب. القسم الأول. ص 242.

(2) زيغرد هونكه. شمس العرب تسطع على الغرب، س 387.

وعلى الرغم مما قام به العزيز من جمع أعداد ضخمة من الكتب ووضعها في مكتبته الكبيرة، فإن ما قام به الحاكم بأمر الله من اهتمام شديد بالمكتبة ومحتوياتها فاق الجميع، وجعلت منه أعظم رجال التاريخ الذين اهتموا بأمور الكتاب والمكتبات على الإطلاق[1].

فقد أنشأ مكتبته التي أطلق عليها دار العلم أو دار الحكمة في عام 395هـ بجوار القصر الغربي بالقاهرة، ونقل إليها جميع الكتب التي كانت في القصور ووقف لها أماكن ينفق عليها من ريعها. ومن أجل جعلها أكثر جاذبية فقد فرشت وزخرفت جدرانها، وعلقت على أبوابها وممراتها الستائر. وخصص لها الخدم والعمال والموظفون الذين يقومون بخدمات الإعارة والتنظيم فيها.

ويوضح المقريزي (المتوفى سنة 845هـ / 1442م) في كتابه المشهور "الخطط المقريزية" أقسام المكتبة التي تتألف من قسم للفقهاء، وقسم لقراء القرآن الكريم، وثالثاً للمنجمين، وقسم رابع لأصحاب النحو واللغة، وقسم آخر للأطباء. وأباح الخليفة الحاكم بأمر الله المطالعة فيها لجميع الناس.

وتعتبر مكتبة دار العلم من بين أهم المكتبات العامة والأكاديمية التي أسست في الحضارة العربية الإسلامية. وكان الغرض من تأسيسها مساعدة سائر طبقات المجتمع في التعليم والتحصيل مما جعلها معهداً أكاديمياً بكل ما للكلمة من معنى. وقد أجزى الأرزاق للأطباء والمنجمين والقراء واللغويين والنحويين ووفّر لهم ما يحتاجونه من حبر وورق وأقلام. كما شجع على إقامة المناظرات بين رجال العلم واللغة وكان يحضر بنفسه جانباً من المناظرات التي قد تصل إلى الجدل المستحكم

---

(1) منصور سرحان. المكتبات في العصور الإسلامية، ص60.

والخصام. وفعل الحاكم بأمر الله في تكريم المناظرين كما كان يفعل المأمون بأن خلع عليهم الخلع.

ووصف الدكتور الكسندر ستيبتشفيتش مكتبة دار العلم بالقاهرة وما تقدمه من خدمات تجاه شرائح المجتمع آنذاك بقوله: "وقد تحولت دار الحكمة القاهرية أيضاً إلى مكان يلتقي فيه العلماء، وفي مكتبتها كان يمكن للعلماء والمترجمين والمهتمين أن يجدوا ما يحتاجون إليه من كتب في كل فرع من فروع العلم. وكان يمكن لأي شخص أن يدخل إلى مكتبة "دار الحكمة"[*] ، بينما كانت تقدم للقراء بالمجان الأوراق والأقلام والمحابر. وقد كان هناك خطاطون يختصون بنسخ الكتب والإكثار منها، إلا أن العدد الأكبر من كتب المكتبة كان يأتيها مع القوافل من المدن الأخرى"[1].

اقتنت دار الحكمة أو دار العلم مئات الآلاف من الكتب في مختلف العلوم، في الفقه واللغة والرياضيات والفلسفة والحديث والتفسير والفلك والكيمياء والطب وغير ذلك من علوم مختلفة. ونظراً لأهمية المكتبة التي أسسها العزيز في قصره والمكتبة التي أسسها الحاكم بأمر الله ابن العزيز وهي دار العلم، فقد اشتبه الأمر على البعض فاعتبروا أن مكتبة العزيز هي المكتبة التي أسسها الحاكم بأمر الله.

والواقع أن مكتبة العزيز كانت أضخم من بقية المكتبات التي أسست في العصور الإسلامية السابقة وبصورة خاصة مكتبة بيت الحكمة في بغداد. وعندما تولى الحاكم بأمر الله العرش بنى مكتبته الضخمة ونقل إليها جميع الكتب التي

(*) هي نفسها دار العلم.

(1) الكسندر س. تاريخ الكتاب. القسم الأول. ص 243.

كانت تابعة لمكتبة أبيه، مما جعلها أضخم مكتبة في ذلك العصر. لهذا لم تبالغ زيغريد هونكه في حديثها عن مقتنيات المكتبتين بقولها: "وفي القاهرة رتب مئات العمال والفنيين في مكتبتي الخليفة مليونين ومئتين من المجلدات، وهو ما يعادل عشرين ضعفاً مما حوته مكتبة الإسكندرية الوحيدة في عصرها"[1].

ومما يؤكّد ضخامة مقتنيات مكتبة دار العلم ما ذكره المقريزي (المتوفى سنة 845هـ/1442م) بوصفه المكتبة: "وحصل في هذه الدار من خزائن أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله من الكتب التي أمر بحملها إليها من سائر العلوم والآداب ما لم ير مثله مجتمعاً لأحد قط من الملوك". كما بهرت المكتبة جربرت فون أورياك الذي ارتقى كرسي البابوية في روما سنة 999م باسم البابا سلفستروس الثاني وقال متحسرً: "إنه لمن المعلوم تماماً أنه ليس ثمة أحد في روما له من المعرفة ما يؤهله لأن يعمل بواباً لتلك المكتبة. وأنّى لنا أن نعلم الناس ونحن في حاجة لمن يعلمنا، أن فاقد الشيء لا يعطيه"[2].

ومما لا شك فيه أن الحاكم بأمر الله أعطى عناية خاصة لدار العلم بالقاهرة وأرادها أن تكون أزهى مكتبات عصره من حيث المبنى والمحتوى والخدمات التي تقدمها. ولكي يضمن الحاكم بأمر الله سير الخدمات بالمكتبة فقد أعد ميزانية خاصة بها بلغت 209 دنانير في السنة، وهو مبلغ ضخم إذا ما قيس بتلك الفترة. ويذكر الدكتور محمد ماهر حمادة في كتابه "المكتبات في الإسلام" نقلاً عن المقريزي في كتابه "الخطط المقريزية" تفصيلاً شاملاً للبنود التي تم توزيع ميزانية المكتبة عليها[3].

---

(1) زيغرد هونكه. شمس العرب تستطع على الغرب. ص 353.

(2) زيغرد هونكه. نفس المصدر. ص 353.

(3) محمد ماهر حمادة. المكتبات في الإسلام. ص 158.

ثالثاً: (مكتبة قرطبة):

بدأ تأسيس المكتبات في الأندلس يشق طريقه بعد أن تهيّأت الظروف والأسباب المطلوبة لإنشائها. فبعد أن توطدت أركان الدولة الأموية في الأندلس، نعمت البلاد بحركة فكرية نشطة، وأخذت رياح التغيير تهب على الأدب نتيجة تغير البيئات والمناخات. واستطاع المزاج الأندلسي أن ينفخ في قوالب الشعر البدوي العتيقة روحاً جديدة ويزيد من رقة الشعر وعمق العواطف وهي استجابة لفاتن الطبيعة الجديدة. كما عنى أهل الأندلس بالفقه واللغة مما زاد في حركة الكتابة الأدبية هناك[1].

لم يتوقف النشاط الفكري في الأندلس على أمور الفقه واللغة فقط، بل اتجه إلى الاهتمام بمسائل الفلسفة والتي يرجع الفضل في إثارتها إلى ابن مسرة القرطبي الذي كان يرأس في عام 900م حلقة من الطلاب والمريدين، كانت تجتمع إليه في إحدى الصوامع القائمة على منحدرات جبل قرطبة. ونشأت في بقية المدن الأندلسية حلقات على غرار حلقة قرطبة، ظلت تنعقد حتى القرن الثالث عشر[2].

وعرفت قرطبة فقه اللغة على يد القالي (المتوفى سنة 356هـ/966م)، كما اهتم الأندلسيون بالتاريخ وبلغ ذلك ذروته عند بزوغ نجم محمد بن القوطية، وهو من المعاصرين للقالي كأحد أكبر كتاب التاريخ في العصر الأندلسي، والذي أرّخ وقائع الفتح الإسلامي.

---

(1) منصور سرحان. المكتبات في العصور الإسلامية، ص63.

(2) كارل بروكلمان. تاريخ الشعوب الإسلامية. ص 301.

ويذكر كارل بروكلمان في كتابه "تاريخ الشعوب الإسلامية" اهتمام عرب الأندلس بأمور الطب والعلوم الطبيعية بقوله: "فقد حاول المغاربة التحرر من سلطان التقليد المشرقي. والواقع أن الأندلس عرفت في عهد عبد الرحمن الثالث، ترجمة جديدة لنظريات ديسقوريدس في الأدوية المفردة، وضعت على أساس نسخة يونانية أرسلت إليه من القسطنطينية. وكان ولده الحكم الثاني نصيراً صادقاً للعلم والعلماء"[1].

أثار تأسيس المكتبات في بغداد وغيرها من الدول الإسلامية ولعاً خاصاً في الأندلس وكان أعظم المولعين بتأسيس المكتبات وجمع الكتب الحكم الثاني (المتوفى سنة 366هـ/976م) الذي اشتهر بشدة ميله للقراءة والاطلاع. وكان محباً للعلم وأهله، شديد الرغبة في جمع الكتب حتى أنه عين في المدن الأندلسية والسورية والمصرية وفي بغداد وفارس وخراسان مجموعات من الموظفين والتجار لجمع الكتب النادرة مهما غلا ثمنها، فجمع من الكتب النادرة والمتنوعة ما لم يجمعه غيره من الملوك. وتذكر المصادر التاريخية أنه حينما انتهى أبو الفرج الأصبهاني (المتوفى سنة 356هـ/ 967م) من كتابه مؤلفه الشهير "الأغاني" انتدب الحكم رسولاً خاصاً ليسجل هذا الكتاب في مكتبته في بادئ الأمر قبل استنساخه وتوزيعه، وتم له ما أراد وجلب إلى مكتبة الحكم بقرطبة.

أنشأ الحكم المستنصر الذي تولى الخلافة فيما بين عامي (350–366هـ/961م – 976م) مكتبة قرطبة وأنفق عليها الأموال الطائلة وجلب إليها الكتب من جميع الأمصار. وحاول الحكم أن يجعل من مكتبته هذه مكتبة متميزة في مقتنياتها،

---

(1) كارل بروكلمان. تاريخ الشعوب الإسلامية. ص 302.

فصرف بسخاء ودون تردد على شراء الكتب. كما حصل على كتب كتبت خصيصاً لمكتبته واستنسخت الأعداد الكبيرة من الكتب لهذه المكتبة، ومن بينها كتاب أوقات الصناعات الذي ألفه أبو الحسن عريب بن سيد وكتبه في قرطبة عام 961م، ثم نقّح وترجم إلى اللاتينية من قبل دوزي في عام 1873م[1].

وكان الحكم شغوفا بقراءة الكتب حتى قيل إنه قرأ معظم مقتنيات مكتبته وكتب تعليقاته في صدر كل كتاب[2]. كما كان شغوفا بتنظيم المكتبة وتصنيفها وتزيينها بالزخارف الفنية وترتيبها، فعين عددا من المجلدين المهرة لتجليد الكتب التي كتبت بحروف من الذهب وزينت بالتصاوير الجميلة. وبلغ عدد الكتب التي ضمتها المكتبة قرابة 400.000 كتاب، وهذا ما أورده ابن خلدون (المتوفى سنة 808هـ/ 1405م) والمقريزي (المتوفى سنة 845هـ/1442م). ويقول ابن خلدون وابن الآبار، أنه بالإضافة إلى عدد الصفحات التي دونت فيها أربعمائة ألف كتاب من كتبه في مختلف المواضيع، فإن دواوين الشعر فقط قد غطت ثمانمائة صفحة من فهارس المكتبة.

ووصف رينهارت دوزي في كتابه "تاريخ المسلمين في أسبانيا" الحكم المستنصر بأنه فريد من نوعه من حيث اقتناء الكتب النادرة بقوله: "لم يسبق أن تولى حكم اسبانيا حاكم عالم بهذه الدرجة، ورغم أن جميع أسلافه كانوا رجالا مثقفين، وأحبوا أن يغنوا مكتباتهم، فإن أحدا منهم لم يبحث بشغف ونهم عن

(1) محمد رستم ديوان. المكتبات في العالمين العربي والإسلامي في العصر الوسيط. المورد. م9، ع4 (1981) ص 288.

(2) منصور محمد سرحان. الكتاب والمكتبات. ص 135.

الكتب النادرة والثمينة كما فعل الحكم"[1].

أما الدكتور الكسندر ستيبتشفيتش في كتابه "تاريخ الكتاب" فيصف الحكم بأنه يحتل مكانة خاصة بين الحكام المتنورين العرب، جمع في مكتبته الكتب النادرة التي اشتراها بأثمان عالية. ويخلص إلى القول بأنه كان هناك جيش من الخطاطين والمزخرفين والمجلدين الذين كانوا يعملون لحاجات المكتبة، بينما تمكن العاملون في المكتبة من وضع فهرس لها في 44 مجلداً[2].

لم يقتصر وجود المكتبات في قرطبة فحسب بل كانت منتشرة في بقية المدن الأندلسية كغرناطة وأشبيلية وملاقة. وبالإضافة إلى تلك المكتبات التي كانت تؤسس في المدن وتستخدم كمكتبات عامة، كانت هناك مكتبات خاصة للأدباء والعلماء، منها ما هي إسلامية بحتة ومنها ما هي يونانية بيزنطية أو عبرية أو غيرها وذلك بحكم سياسة التسامح التي اتبعها العرب أثناء حكمهم الأندلس. وعلى الرغم من ذلك فقد بقيت قرطبة لفترة طويلة المركز الرئيسي للثقافة في الأندلس.

ويقول منصور سرحان حول نهاية المكتبة:

أما مكتبة قرطبة التي اهتم بها الحكم الثاني وبذل الأموال الطائلة في جمع الكتب والمخطوطات وزودها بأنفس الكتب والإصدارات التي كانت تؤلف حينذاك ، فقد تعرضت للحرق والتخريب والدمار بعد وفاة الحكم الثاني. والغريب في الأمر أن رجال المسلمين هم الذين ساهموا في القضاء على هذه

(1) رينهارت دوزي. تاريخ المسلمين في إسبانيا. ص 454.

(2) الكسندر ستيبتشفيتش. تاريخ الكتاب. القسم الأول. ص 245.

المكتبة . فعندما تولى المنصور بن أبي عامر حدث لغط حول مقتنيات المكتبة ونوعيات الكتب التي تضمها المكتبة من قبل بعض الفقهاء والعامة، فأمر بحرق كتب الفلسفة والعلوم إرضاءً للفقهاء والعامة. وبهذا خلت المكتبة من كتب ساهمت في بناء النهضة التي شهدتها الأندلس. وبعد وفاة المنصور بن أبي عامر بيعت مجموعات كبيرة مما تبقى من الكتب لتوفير المال أثناء الحصار الذي ضربه البربر على قرطبة في مطلع القرن الخامس الهجري. وعندما دخل البربر قرطبة عنوة قاموا بنهب ما تبقى من كتب فيها. وبهذا أسدل الستار على أكثر المكتبات الإسلامية انتقاء للكتب الثمينة والنادرة[1].

(1) منصور سرحان. المكتبات في العصور الإسلامية، ص66.

إدارة وتنظيم المكتبات الإسلامية.

إن وجود المكتبة في أي حضارة من الحضارات، ووفرة الكتب فيها يعتبر أمراً غير كاف في حد ذاته، ويجب أن يتوفر إلى جانب ذلك ناحية أخرى مهمة وهي كيفية تنظيم المواد في المكتبة وحسن إدارتها. ولقد كانت المكتبات في الإسلام منظمةً تنظيماً رائعاً وجيداً. نحسدها عليه نحن المسلمين في القرن العشرين. وقد مكّنها هذا التنظيم من خدمة روّادها أفضل خدمة ممكنة بمقاييس ذلك الزمان.

لم يكن للمكتبات الإسلامية أول الأمر أبنية مستقلة خاصة بها، ولا نعرف شيئاً عن هذا الموضوع بالنسبة للمكتبات الأولى في الحضارة العربية الإسلامية. ويغلب الظن أن المكتبة كانت جزءاً غير مستقل عن المؤسسة نفسها. أما المكتبات الكبرى كدار العلم التي أسَّسها الفاطميون في القاهرة، فقد كان لها بناء مستقل خاص بها أسّس منذ اللحظة الأولى ليكون مكتبةً. وقد كان عدد غرف مكتبة الخلفاء الفاطميين أربعين غرفةً في القصور الداخلية، مما يؤكد اتساع هذه المكتبة التي تضاهي المكتبات الضخمة في أيّامنا هذه. والشيء نفسه يقال عن مكتبة دار العلم في بغداد التي أسّسها سابور بن أردشير، حيث اشترى لها داراً خاصةً. وكذلك الحال مع بقية المكتبات الأخرى في البصرة والموصل والريّ ومرو وغيرها. إذ نفهم من المصادر التي وصلتنا أن هذه المؤسسات كانت في دور خاصة مستقلة. أما مكتبات المساجد والجوامع والمشافي والمدارس، فقد كانت في الغالب ملحقةً بالمؤسسة التي وجدت من أجل خدمتها.

وقد ألحق بأغلب المكتبات الكبرى في الإسلام غرفة أو أكثر، أعدت للنسخ، فيجلس فيها النسَّاخ على مراتب مهيأة لهم وبشكل معين، وينسخون الكتب التي يطلب منهم نسخها، وكان هناك موظف أو أكثر مهمته جلب الكتب إلى النسَّاخ وخدمتهم.

كذلك كانت المكتبات الإسلامية تزوَّد بالبسط والسجاجيد والستائر وجميع أنواع الأثاث الذي يساعد القارئ على المطالعة ويوفر له الراحة، كما هو الحال في دار العلم في القاهرة التي لم تفتح أبوابها للجمهور، إلاَّ بعد أن فرشت وزخرفت، وعلّقت على جميع أبوابها وممرَّاتها الستائر وكانت فيها غرف خاصة للمطالعة، وغرف أخرى من أجل المناظرة والبحث والإجتماعات والمحاضرات، وقد وجدت مكتبات عربية حوت غرفاً للموسيقى.

وكان يعلّق على المدخل الرئيسي ستارة سميكة غليظة في فصل الشتاء، لمنع دخول الهواء البارد إلى المكتبة. أما الغرف المعدة لخزن الكتب فقد زوّدت بالرفوف اللازمة لذلك. وكانت أغلب الرفوف مفتوحة ويمكن الوصول إلى محتوياتها بسهولة. أما الكتب الثمينة فكانت تحتفظ في رفوف خاصة مغلقة لكي لا تمتد إليها أيدي العابثين والطامعين.

وقد درجت أغلب المكتبات في الحضارة العربية الإسلامية على تزويد روّادها بالحبر والأقلام والمحابر والأوراق، وكلّ شيء يساعدهم على القراءة والنسخ. كذلك أضافت بعض المكتبات الإسلامية الكبرى إلى مجموعاتها مواد أخرى ليست كتباً كالأدوات الفلكية والكرات الأرضية ونحوها.

وقد كانت المكتبات الإسلامية الكبرى توضع تحت إدارة ثلاثة أشخاص هم:

أولاً: المشرف الأعلى ويسمى الوكيل.

ثانياً: أمين المكتبة ويسمى الخازن.

ثالثاً: المساعد ويسمى المشرف.

وأحياناً كانوا يصنفون بأشكال مختلفة كالخازن والمشرف والمناول وذلك لأن سلطة كل واحد لم تكن واضحة تماماً أو محددة بالضبط، بل وجد تداخل في الاختصاصات وتضارب في الصلاحيات. وبشكل عام فقد كان هؤلاء رجالاً هم في الذروة من مجتمعهم حسباً ونسباً وعلماً وفضلاً وأمانةً وصدقاً. وبطبيعة الحال، كان هناك فرّاشون وبوّابون وخدم في جميع المكتبات العربية الإسلامية وذلك من أجل خدمة المكتبة وصيانتها وتنظيفها ومن أجل خدمة القرّاء. وقد أوجد هؤلاء دواءً للعث والإرضة التي تأكل الورق والمخطوطات واستعملوه لحماية الكتب من التلف. كذلك عمل في المكتبات العربية الإسلامية عدد من النسّاخ والمجلدين والخطاطين بحسب حجم المكتبة ومتطلباتها وإمكاناتها المادية.

وقد تولى إدارة المكتبات العربية الإسلامية ألمع الشخصيات وأذكاها حتى أن سمعة عدد كبير من المكتبات الإسلامية وعظمتها وأهميتها يعود بشكل رئيسي إلى الرجال الذين تولوا القيام بمهامها وأمورها. وإذا ما استعرضنا أسماء هؤلاء المكتبيين لوجدنا أنهم رجال أدب وعلم وفضل وأن لهم المؤلفات العديدة. ومن هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر، ابن مسكويه المؤرخ الشهير، الذي كان خازناً لمكتبة عضد الدولة، وعليّ بن محمد الأديب الفاضل الذي كان أميناً لخزانة كتب العزيز بالله الفاطمي والشريف المرتضى الذي كان وكيلاً لمكتبة سابور. وممّن عمل في مكتبة سابور أيضاً أبو منصور الخازن وأبو أحمد عبد السلام بن الحسين البصريّ

الذي كان عالماً أديباً قارئاً للقرآن.

أما أبرز أمناء مكتبة المدرسة النظامية في بغـداد فتذكـر المصـادر أبـا يوسـف الأسفرايني الذي كان شاعراً وأديباً. ومحمد بن أحمد الأبيوردي وعليّ بن أحمـد بـن بكري وهم من المؤلفين وأصحاب المصنَّفات. أما مكتبة المستنصرية فـهناك العديـد ممّن تولى الإشراف على شؤونها فعند الإفتتاح، عيَّن الخليفة علي بن الكتـبي خازنـاً للمكتبة، وعيَّن العماد علي بن الدباس مشرفاً وإبراهيم بن الحذيفة مناولاً.

ومن أشهر من تولى أمر خزانة كتب المدرسة المستنصرية إثنان اشتهرا بأنّهما من المؤلفين البارزين في زمانهما وهما ابن القوطي ويُوصـف بأنـه كـاتب ومـؤرّخ وفيلسوف وحسن الخط، ألّف في التاريخ العديد من الكتب، أمـا الثـاني فـهو ابـن الساعي تاج الدين علـي بـن أنجـب، وكـان مؤرِّخـاً وإمامـاً حافظـاً وقارئـاً ومحّدثـاً وشاعراً ومن أشهر كتبه (التاريخ الكبير في بغداد).

وقد اهتم المسلمون أيضاً بفهرسة مكتباتهم وتصنيفها وتنظيمها بحيث يسهل الوصـول إلى محتوياتـها وتناولها مـن قبـل البـاحثين والدارسـين. وقـد انتبـه أوائـل مؤسسي المكتبات الإسلامية إلى أهميـة الفـهارس والـتي كـانت علـى نوعـين: إمـا مكتوبةً في مجلدات وتستعمل كالكتب تماماً، حيث يرجع إليها المطالع الباحـث مـن أجل معرفة محتويات المكتبة، وإما أن تكون أسمـاء الكتـب والمؤلفـين مكتوبـةً علـى لائحةٍ معلقةٍ على كل قسمٍ من الأقسام. وقد كان كلا النوعين شائع الاستعمال في المكتبات العربية الإسلامية.

وقد بلغ الأمر في بعض المكتبات أو وصل عـدد فـهارس الدواويـن الشعريـة فيـها أربعـة وأربعـين فهرسـاً، في كـل فـهرس عشـرون ورقـة، فكيـف بفـهارس

الموضوعات الأخرى. وهذا أن دل على شيء فإنما يدل على حجم مقتنيات المكتبات العربية الإسلامية وتنظيمها الذي كان موضوعياً كما يبدو، أي حسب الموضوعات. وكانت الفهارس تعرف بثبت الكتب في المكتبات العربية الإسلامية. وقد كانت الكتب في المكتبات الإسلامية مرتبةً ومنظمةً وذلك ليسهل تناولها ولا يتعب مناولها، على أن ترتيب الكتب على الرفوف في المكتبات العربية الإسلامية اختلف عن ترتيبنا الحالي لها. ذلك أنهم كانوا يضعون الكتب على الرفوف مستلقيةً الواحد فوق الآخر، بحيث تكون المجلدات ذات الحجم الكبير أو الضلع الكبير في الأسفل، والصغرى وذوات الضلع الصغير في الأعلى حتى لا تتساقط من على الرفوف.

أما عنوان الكتاب واسم مؤلفه فلم يكونا يُكتبان على كعب الكتاب كما هو متبع الآن، وإنما على أطراف صفحات الكتاب ومن الجهة الخارجية للرف. أما الكتب الثمينة، فقد خُصصت لها صناديق خاصة في حجم كل كتاب.وكتب اسم المؤلف وعنوان الكتاب على جانب الصندوق.

بالنسبة للأمور المالية للمكتبات العربية الإسلامية، فلا ندري بالضبط، وليس لدينا مصادر كافية لنعرف موازنتها. ولكن يبدو من الملاحظات الواردة في بعض المصادر، أن الأموال التي كانت تنفق على المكتبات لم تكن قليلة بأي حال من الأحوال. فقد أوقف مؤسسو هذه المكتبات الأوقاف السخية ليضمنوا استمراريتها وحسن أدائها لمهمتها التي وجدت من أجلها وبخاصة بعد وفاة مؤسّسها كما فعل المأمون ونظام الملك والحاكم بأمر الله والحكم الثاني والمستنصر بالله وغيرهم.

وقد كانت الميزانية المخصَّصة لمكتبة بيت الحكمة في بغداد موزعةً على النحو التالي:

- ثمن الورق للنسخ.. تسعون دينار.
- رواتب الخازن والمشرف والفرّاشين وغيرهم .... خمسة وسبعون ديناراً.
- إصلاح الكتب وترميمها............................... اثنا عشر ديناراً.
- ثمن الماء.. اثنا عشر ديناراً.
- الحصر وفرش الأرضية................................. خمسة عشر دينار.
- ستائر(ترميم وصيانة)................................. دينار واحد.

ومما سهَّل عمل الباحث المسلم أن الكتب كانت متوفرة في المكتبات العربية الإسلامية للجميع من أجل المطالعة الحرة، وكانت الأوراق والأقلام والحبر تقدَّم في بعض الأحيان بالمجان لمن يريد استنساخ شيء من مقتنيات المكتبة. كذلك فقد أدت تسهيلات الإعارة والمطالعة والاستنساخ وسهولة الوصول للكتب إلى استغناء الباحثين والعلماء عن شراء الكتب وإنفاق الأموال في شرائها، وبخاصة إذا كانت أحوالهم الاقتصادية ليست على ما يرام. فهذا أبو حيان الغرناطي لم يشتر كتاباً واحداً لأنه إذا أراد كتاباً استعاره من المكتبة وقضى حاجته.

أما الإعارة خارج المكتبة، فقد اختلفت شروطها باختلاف الظروف. والمبدأ الأساسي هو السماح بإعارة الكتب أحياناً دون مقابل وأحياناً مقابل رهن. فهذا ياقوت الحموي يقول: أن الاعارة الخارجية في مكتبات مدينة مرو كانت مباحة وبأعداد كبيرة، ولهذا كان مسروراً في الإقامة بتلك المدينة. ولولا غزو التتر لها لما

فارقها حتى الممات... وعندما فارقها كان فيها عشر مكتبات لم ير في الدنيا مثلها كثرةً وجودةً... وكانت كتبها سهلة التناول. ويبدو أن القاعدة كانت السماح باعارة الكتب للأشخاص المعروفين والموثوقين.

وبمناسبة الحديث عن الإعارة في المكتبات العربية الإسلامية، فلا بد أن نذكر أن العادة جرت أن يستعير الأدباء والعلماء المسلمون بعضهم من بعض. وقد كان بعضهم ضنيناً بكتبه وبخاصة الأصول منها، حيث لا يعير الأصل بل نسخة منسوخة عنه. في حين وجد آخرون كرماء وأسخياء في إعارة كتبهم وبخاصة لطلاب العلم.

وقد كانت المكتبات الإسلامية تحرص على أن تملك أكبر كمية ممكنة من الكتب المخطوطة بخطوط مؤلفيها، حيث كانت تتفاخر بذلك. وكانت المكتبات العربية الإسلامية تحصل على كتبها بطرق متعددة أهمَّها الشراء والوقف والنسخ والهبات والهدايا والمصادرة. أما القاعدة الرئيسية في إغناء المكتبات العربية الإسلامية بالكتب فكانت من خلال الشراء، حيث ازدهرت تجارة الكتب في العالم الإسلامي ازدهاراً واسعاً، واشتغل بها علماء وأدباء أجلاَّء مثل ياقوت الحموي الذي كان تاجراً للكتب يشتريها ويبيعها وينقلها للبلاد المختلفة.

وقد ظهرت تجارة الكتب في العالم الإسلامي في وقت مبكر جداً، أي منذ دخول الورق وانتشار استعماله، وظهور أسواق وحوانيت الورَّاقين ودكاكينهم التي كانت تبيع الكتب كأية سلعة عامة. وقد كان الخلفاء يبعثون الرسل إلى أسواق الورَّاقين من أجل الحصول على نفائس الكتب ونوادر المخطوطات.

وقد جرت العادة أن تباع كتب العالم بعد موته، ولا سيما إذا كان أولاده

لا يحبون الكتب أو العلم أو لأي سبب آخر. وقد كانت تقام الحلقات لبيع الكتب وكان ينادى عليها بالمزاودة. وكان بعضهم يستغل جهل البائع بقيمة الكتاب فيشتريه بأرخص الأسعار.

هذا وقد منع بعض الحكام تصدير الكتب من ديارهم إلى أي بلد آخر، وبخاصة إذا كانت تلك الكتب نادرةً. ذلك انهم يريدون أن تبقى تلك الكتب في البلاد التي يحكمونها، لأن في ذهابها إضعافاً للحركة الثقافية. أما بالنسبة لأسعار الكتب فقد اختلفت باختلاف العصور والدول والأزمان والأماكن وهناك صفات ومواصفات معينة تحكمت في أسعار وأثمان الكتب العربية الإسلامية ومنها:

أولاً: جودة خط الكتاب وشهرة الخطاط.

ثانياً: نسبة المخطوط إلى شخص عظيم كالخليفة أو الوزير أو الأمير أو الحاكم وهذا ما يسمى بكتب العظماء. وتزداد قيمة مثل هذه الكتب مع ارتفاع مكانة الشخص الذي كان يملك هذه الكتب سابقاً.

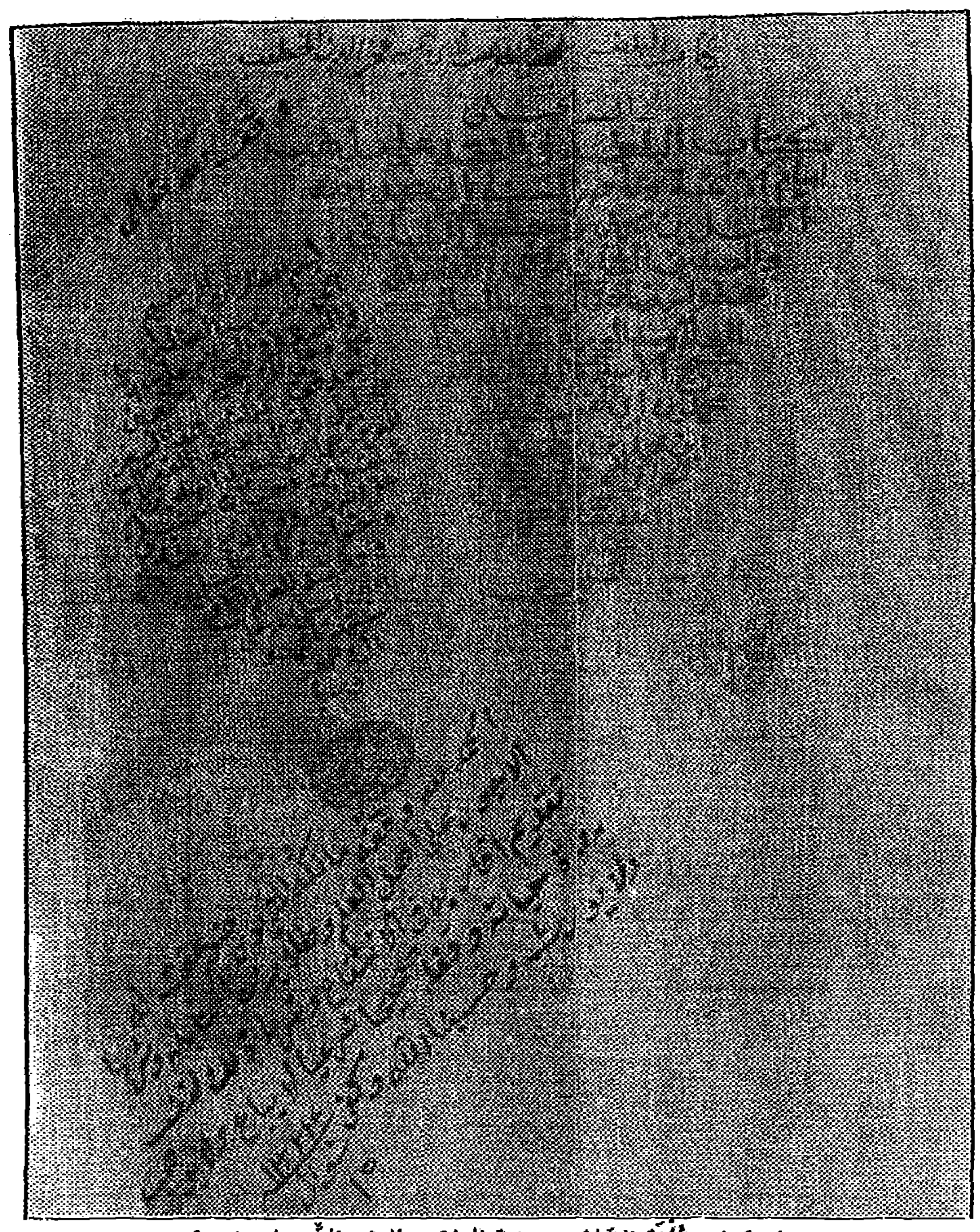
ثالثاً: شهرة مؤلف الكتاب، فالكتاب الذي مؤلفه مشهور ومعروف أغلى ثمناً من الكتاب الذي ألّفه شخص مغمور أو ناشئ في عالم التأليف. فيذكر ياقوت أن نسخة من كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني بيعت في القرن الرابع الهجري بعشرة آلاف درهم.

وقد كانت الكتب العربية الإسلامية تماماً كالسلع تخضع لقانون العرض والطلب، وكان لها أوقات رواج كما كانت تجارتها تصاب بالكساد أحياناً. فإذا وجد حكام شجّعوا الآداب والعلوم ازدهرت تجارة الكتب وراج سوقها وارتفع

ثمنها. ويعتبر وقف الكتب على المكتبات مصدراً رئيساً آخر من مصادر تزويد المكتبات العربية الإسلامية بالكتب. وقد درج الخلفاء والحكام والعلماء والأغنياء وأهل الخير من المسلمين على أن يقفوا أشياءً كثيرةً على المساجد والمدارس والمعاهد والمشافي .. الخ ابتغاء ثواب الله تعالى والأجر في الآخرة، وكان للمكتبات نصيب موفور من المحسنين.

أما النسخ فيعتبر من أهم مصادر الحصول على الكتب للمكتبات العربية الإسلامية والواقع أن معظم هذه المكتبات كان عندها نساخ يتناولون العمل فيها، ففي مكتبة بني عمار في طرابلس الشام على سبيل المثال كان هناك مئة وثمانون نساخاً يتناوبون العمل فيها ليل نهار، وكذلك الحال في معظم المكتبات العربية الإسلامية الضخمة. وقد أُلحق بأغلب المكتبات الإسلامية غرفة أو عدة غرف أعدت لجلوس النساخ لممارسة أعمالهم وقد زوّدت تلك الغرف بمستلزمات النسخ من أثاث وتجهيزات ومحابر وأقلام وورق .... الخ، ولم يكن باستطاعة أي إنسان أن يحترف النسخ، إذ أن الشرط الأول والأساسي لهذه المهنة كان جودة الخط ووضوحه وصحته وكانت هناك طريقتان للنسخ:

الأولى: أن ينسخ فيها الناسخ بنفسه من المخطوط مباشرة دون مساعدة أحد، وبعد انتهائه من النسخ يراجع ما نسخه شخص آخر للتأكد من صحة ما نسخ. وأما الطريقة الثانية فهي أن يجلس عدد من النساخ في أماكنهم وأن يملي عليهم شخص آخر من مخطوط أريد الحصول على عدّة نسخ منه. وبعد الإنتهاء من عملية النسخ، تجرى عملية المقابلة للتأكد من صحة النسخ ودقّته وأمانته.



عنوان كتاب بُلْغَة السّاغب وبغية الراغب لفخر الدِّين ابن تيمية،
وفيه يتضح ختم العلاَّمة ابن دحيان رحمه الله تعالى

هذا وقد كانت المكتبات العربية الإسلامية الضخمة تحوي قسما للتجليد وكانت ترسل الكتب إلى ذلك القسم لتجليدها بعد الفراغ من نسخها. وقد اختلفت أجور النسخ حسب الأزمان والأماكن والأحوال والأشخاص والنساخ. كذلك اختلفت سرعة النسخ من ناسخ إلى آخر. وقد كانت مهنة النسخ مهنة الصالحين والفضلاء الذين يريدون أن يكسبوا رزقهم حلالا وبكد يمينهم. وقد كان من أهم صفات الناسخ أن يتحلى بالأمانة فيما ينقل وينسخ، إذ يجب أن ينقل طبق الأصل وإلا فسد المعنى وضاعت الفائدة. ولهذا كانت مهنة النسخ من المهن المتعبة والمكروهة وحتى غير المحترمة. (أنظر الفصل الخاص بحركة الوراقين في الحضارة العربية الإسلامية).

قائمة المصادر

(1) أبو بكر الهوش. الجوانب الإدارية والفنية في المكتبات الإسلامية. — تراث الشعب. — ع6(1982). —ص18—28.

(2) ربحي مصطفى عليان. ادارة وتنظيم المكتبات في الإسلام. — منار الإسلام، العدد 6، المجلد 22.

(3) محمد ماهر حمادة. المكتبات في الإسلام: نشأتها وتطورها ومصائرها. — بيروت — مؤسسة الرسالة، 1986.

(4) يوسف العش. دور الكتب والمكتبات العامة وشبه العامة لبلاد العراق والشام ومصر في العصر الوسيط. — بيروت: دار الفكر المعاصر، 1991.



من لوحات كتاب طوق الحمامة

تصنيف العلوم عند العرب والمسلمين

مقدمة عامة:

يحتل التصنيف مكانة بارزة في علوم المكتبات والتوثيق والمعلومات، ذلك لأنه يتناول التنظيم المقنن للعلوم والمعارف الإنسانية، كما هي ممثلة بالأوعية والمصادر المختلفة للمعلومات. ويعتبر التصنيف العملية الأساسية الأولى من العمليات التي تقوم بها المكتبات ومراكز المعلومات لتنظيم مجموعاتها ومقتنياتها، من أجل وصول القاريء المناسب للكتاب المناسب بسرعة وبأقل جهد ممكن. ولهذا يعد التصنيف أساس فن المكتبات، ولهذا أيضاً حظي باهتمام كثير من الباحثين والمتخصصين، فلقيت أنظمته المختلفة ومشكلاته عناية قلّ أن حظي فرع آخر من فروع علم المكتبات والمعلومات بها، حتى أن تاريخ المكتبات يتصل اتصالاً وثيقاً بتاريخ التصنيف.

والتصنيف في أوسع معانيه يعني تجميع الأشياء المتشابهة معاً، أو عملية وضع الأشياء المتشابهة بعضها بجانب بعض، أي ترتيب الأشياء بناء على ما بينها من تشابه واختلاف. أما تصنيف الكتب فيعرف بأنه فن اكتشاف موضوع الكتاب والدلالة عليه برمز من رموز خطة التصنيف المتبعة في المكتبة.

ولا يقتصر التصنيف على العلوم أو الكتب التي تتضمنها، حيث أن له استخدامات عديدة في كثير من جوانب حياتنا اليومية. فالبيت يحتاج إلى التصنيف والمعارض والأسواق كذلك. فالأسواق المركزية تكون منظمة بحيث تجمع المنتجات من الصنف الواحد معاً، وبدون التصنيف لا تكون زيارة الأسواق والمعارض ممتعة

ومريحة. وحتى في التربية تصنف المدارس والمعلمون والطلبة وفق اعتبارات مختلفة.

ويعتبر التصنيف أساس الخدمات المكتبية الناجحة. والمكتبة بحاجة ماسة إلى تصنيف مجموعاتها تصنيفاً فنياً حتى تيسر للقراء والباحثين الحصول على مصادر المعلومات بسرعة وسهولة، فإذا لم يتم تصنيف المكتبة وفق خطة تصنيف معينة، فإن الباحث سيضل طريقه إلى المعلومات المرغوب فيها وسيجد صعوبة في الوصول إليها. ومن هذا المنطلق تقتضي الضرورة أن تتبنى المكتبة نظاماً للتصنيف يتحدد بموجبه مكان كل مادة أو وثيقة في المكتبة.

وللتصنيف فائدة كبيرة للقراء والباحثين وللعاملين في المكتبات. أما فائدته للقراء والباحثين فإنه، كما ذكرنا، يسهّل عليهم عملية الوصول إلى مصادر المعلومات، ويتيح لهم أيضاً فرصة التعرف على مجموعة الكتب والمصادر الأخرى التي تعالج موضوعاً معيناً. وأما فائدته للعاملين في المكتبات، فإن التصنيف يسهّل عليهم خدمة القراء، ويجعلهم قادرين على تلبية طلباتهم واحتياجاتهم في أسرع وقت وأقل جهد ممكنين. كذلك يمكّن التصنيف العاملين في المكتبات من التعرف على مواطن القوة والضعف في مجموعات المكتبة ومقتنياتها. هذا فضلاً عن أن عملية التصنيف تزيد في معلومات العاملين في المكتبات وثقافتهم العامة في مجال العلوم المختلفة.

التطور التاريخي لتصنيف العلوم:

لقد اهتم الإنسان منذ القدم بتصنيف العلوم والمعارف، وبذل المفكرون والعلماء والفلاسفة جهوداً كبيرة لوضع نظام لهذا التصنيف، دون أن يكون لدى أيٍ منهم أدنى تفكير في تطبيق هذه النظم في مجال المكتبات. فقد قسّم أفلاطون في

كتابه (الجمهورية) المعرفة إلى قسمين هما:

أولاً: عالم المحسوس، أي الطبيعيات.

ثانياً: عالم المعقول، أي الرياضيات والإلهيات.

أما أرسطو فقد صنَّف العلوم إلى ثلاثة أقسام رئيسية هي: العلوم النظرية كالهندسة والفلك والحساب، العلوم العملية كعلم الأخلاق والإقتصاد والسياسة، العلوم الإنتاجية مثل الشعر والبلاغة والجدل. كما صنَّفها توما الأكويني، وهو من الرهبان، إلى: المنطق، العلوم النظرية، العلوم العملية.

وقد استمر الفلاسفة في محاولاتهم ونشاطاتهم في مجال تصنيف العلوم. وكان من أشهر الفلاسفة الذين أثرت نظرياتهم على تصنيف الكتب فرانسيس بيكون الذي ضمن نظريته في (لائحة المعرفة البشرية). وقد اعتمد بيكون في تصنيفه على ثلاث قوى عقلية هي:

1- الذاكرة، ومنها انبثق التاريخ.

2- الخيال، ومنه انبثق الشعر والفنون.

3- العقل، ومنه انبثقت الفلسفة.

بالنسبة لتصنيف المكتبات القديمة فيعتقد بأن الآشوريين قسموا الألواح الطينية التي كانت تملأ مكتباتهم إلى قسمين: الأول يعالج علوم الأرض، أما الثاني فيعالج علوم الفلك والنجوم. أما كاليماخوس (310-240ق م) فيمكن اعتباره أول مفهرس ومصنف في تاريخ المكتبات. وقد فهرس أكثر من 90 ألف مخطوطة في مكتبة الإسكندرية القديمة، وصنَّف المكتبة إلى خمسة أقسام رئيسية هي: الشعر،

التاريخ، الفلسفة، الأعمال الأدبية، الخطابة. وقد قسَّم كاليماخوس هـذه الأقسام الرئيسية إلى أجزاء. كما استخدم الترتيب الزمني للكتب والترتيب الهجائي لأسماء المؤلفين.

بالنسبة لمكتبات الأديرة فقد رتبت فيها الكتب حسب موضوعاتها وحسب أحجامها. وقد كانت الكتب توضع في خزائن خاصة وتحمل كل خزانة رمزاً معيناً، وتوزَّع الكتب حسب أحجامها في رفوف مختلفة ويحمل كل رف رقماً خاصاً به. أما الكتاب نفسه فيحمل علامة المطبعة. أي أن الترتيب كان على النحو التالي: الخزانة – الرف – الكتاب – علامة المطبعة.

أما اليسوعيون فكانوا يرتبون الكتب المسيحية على الجانب الأيسر من مدخل المكتبة، والكتب غير المسيحية في الجهة المقابلة لها. وتميز المجموعتان أيضاً بنوعية التجليد، حيث المجموعة الأولى فاخرة التجليد والثانية مغلَّفة بأغلفة سوداء. ومن أنظمة التصنيف السائدة في تلك الآونة نظام التصنيف الذي وضعه جبرييل نوديه الفرنسي، وفيه قسَّم المعرفة إلى 12 قسماً على النحو التالي: الديانات، مصادر الكتب، الفنون الحربية، المجمع المقدس والنظم الكنسية، الجغرافيا والسياسة، الطب، التقاويم التاريخية، الفقه، الفلسفة، التاريخ، والآداب.

أما التطورات الحديثة لتصنيف العلوم فقد بدأت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ومنذ ذلك الحين صدرت الطبعات الأولى للأنظمة التالية:

- نظام التصنيف العشري، وضعه ملفيل ديوي عام 1976م.
- نظام التصنيف التوسعي، وضعه شارك كتر عام 1891م.

- نظام مكتبة الكونغرس الأمريكية، وُضع عام 1902م.
- نظام التصنيف الموضوعي، وضعه جيمس براون عام 1906م.
- نظام التصنيف التوضيحي، وضعه الهندي رانغاناثان عام 1933م.
- نظام التصنيف الببليوغرافي، وضعه هنري بليس عام 1935م.
- نظام التصنيف العشري العالمي، وضعه الاتحاد الدولي للتوثيق ويعتمد على نظام ديوي العشري.

تصنيف العلوم عند العرب والمسلمين:

لقد ظهرت في صدر الإسلام وما تلاه من عصور حركة فكرية وعلمية نشطة، نشأ عنها علوم شتى جديدة قام بوضع أصولها وأسسها كثير من العلماء العرب والمسلمين. هذا وقد تأثر العرب بمن سبقهم من العلماء والفلاسفة وخاصة اليونانيين، حيث استفادوا منهم وأضافوا إليهم. وقد ظهر بين العرب والمسلمين فلاسفة وعلماء اهتموا بتصنيف العلوم والمعرفة، فكان لهم دور كبير في هذا المجال، إنطلقت منه نظم التصنيف الحديثة في المكتبات العربية. وفيما يلي عرض لأهم جهود العلماء العرب والمسلمين في مجال تصنيف العلوم.

يعد جابر بن حيان (160هـ) أول من وضع تصنيفاً عربياً للعلوم. إلاّ أن هذا التصنيف مفقود ولم يصلنا. ثم جاء بعده الكندي (260هـ) وقسَّم العلوم في عصره إلى قسمين: العلوم الدينية والعلوم الدنيويَّة، وكل منهما يشمل عدداً من العلوم. كذلك قسَّم الكندي العلوم إلى: علوم نظرية وعلوم عملية وعلوم منتجة. وقد تأثر بآراء أرسطو في هذا التصنيف للعلوم.

أما الفارابي (399هـ) فقد صنّف العلوم في كتابيه: (التنبيه على السعادة)، و (إحصاء العلوم) إلى خمسة أقسام رئيسية وكل قسم إلى أجزاء، وكل جزء إلى مراتب. أما الأقسام الخمسة الرئيسية فهي:

أولاً: اللغة أو علوم اللسان، وتقسم إلى:

- تركيب الألفاظ وترتيبها.
- النحو والصرف.
- قواعد النطق والكلام.

ثانياً: المنطق بما يشمل من تقسيم وتركيب للأفكار. ويتضمن المنطق:

- الظروف الضرورية للمقدمات المنطقية.
- تعريف القياسات المنطقية المفيدة ووسائل اكتشاف البراهين الجدلية.
- اختيار الأخطاء في البراهين وفي التبرير المنطقي وطرق تفادي هذه الأخطاء.
- تعريف الخطابة والقياسات المنطقية اللازمة لعرض المناقشة أمام الجمهور.
- دراسة الشعر وكيف يمكن أن يتلاءم مع كل موضوع.

ثالثاً: العلوم التمهيدية وتشمل:

- علم الحساب (العملي والنظري):

– العملي وهو فحص الأعداد من الأجسام التي يتعاطاها الجمهور في المعاملات السوقية والمعاملات المدنية.

- النظري يفحص الأعداد المجردة وكل ما يلحقها.

• علم الهندسة (العملي والنظري):

- العملي كخطوط وسطوح الأجسام الخشنة والحديدية والحائط والأرض.

- النظري كخطوط وسطوح الأجسام على الأرض وتقسم كسطوح ومجسمات.

• علم المناظر.

وينقسم إلى فرعين: الفحص لما ينظر بالإشعاعات المستقيمة، والفحص عما ينظر إليه بالإشعاعات غير المستقيمة وهو علم المرايا.

•علم السماء (علم النجوم) ويشمل:

- علم التنجيم وحركات وأشكال الأجسام السماوية.

•الموسيقى:

- العملية وتشمل أصناف الألحان والآلات الطبيعية والصناعية.

- النظرية وتشمل المبادئ وأصول استخراج النغم وأوزان النغم وتأليف الألحان.

• علم الأوزان ويشمل تقدير الأثقال وفحص أصول الآلات التي ترفع الأشياء الثقيلة.

• علم صناعة الأدوات البسيطة والأدوات اللازمة لمختلف العلوم والفنون

كالفلك والموسيقى.

رابعاً: الفيزياء (العلوم الطبيعية) وتشمل:

- معرفة المبادئ التي تشترك فيها الأجسام الطبيعية.
- معرفة طبيعة وصفات العناصر.
- علم نشوء وتوالد وفساد الأجسام الطبيعية.
- علم تفاعلات العناصر لتكوين المركبات.
- علم الأجسام المركبة التي تكونت من العناصر الأربعة وصفاتها.
- علم المعادن.
- النباتات.
- الحيوانات.

خامسا: علم ما وراء الطبيعة ويشمل:

- معرفة جوهر الأشياء.
- معرفة أصول العلوم الجزئية والعلوم التي تتصل بالمشاهدة والملاحظة.

وفي القرن الخامس الهجري (900-1037م) بزغ نجم ابن سينا الذي تأثر بتصنيف الفارابي للعلوم. وقد ظهر تصنيفه في كتابه (في أقسام العلوم العقلية). ثم جاء فخر الدين الرازي المتوفي سنة 606هـ وألّف كتابه (حدائق الأنوار في حدائق الأسرار). وهو كتاب رُتبت فيه المواد حسب الموضوعات. وفيه ذكر للعلوم وأسماء الكتب المؤلفة في كل علم من العلوم مع ذكر اسم المؤلف ونبذه عن حياته.



(علماء مسلمون أسهموا في تصنيف العلوم)

وقد وصف الرازي ستين فرعاً من العلوم في كتابه المذكور.

أما إخوان الصفا فقد قسَّموا العلوم إلى ثلاثة أقسام رئيسية هي:

أولاً: العلوم الرياضية وتشمل: الكتابة، القراءة، الشعر، اللغة، النحو، الرجز، الحساب، المعاملات، السحر، العروض، الحرف والصنائع، الكيمياء، الحيل، الغرائم، البيع والشراء، السير والأخبار.

ثانياً: العلوم الشرعية الوضعية وتشمل: التنزيل، الفقه والسنن، التأويل، المواعظ والتذكار، الروايات والأخبار، تأويل المنامات.

ثالثاً: العلوم الفلسفية الحقيقية وتشمل أربع رسائل هي:

أ- الرسائل الرياضية: الحساب، الهندسة، الموسيقى.

ب- الرسائل النفسانية العقلية: المنطق، الشعر، الخطب، الجدل، البراهين، السفسطة.

ج- الرسائل الجسمانية الطبيعية: الأجسام، السماء، الكون، المناخ، علم المعادن، النبات والحيوان.

د- الرسائل الناموسية الإلهية: الله، الروحانيات، النفسانيات، السياسة.

وعندما جاء الخوارزمي (387هـ) وضع كتاب (مفاتيح العلوم) وفيه صنَّف العلوم إلى صنفين: علوم العرب وتضم العلوم اللغوية والدينية، والعلوم الدخيلة أو علوم العجم وتضم العلوم التي نقلها العرب عن غيرهم.

ويعد نظام التصنيف الذي وضعه ابن النديم (377هـ) (936-995م) في

كتابه المعروف (الفهرست) أول نظام تصنيف يصلح للتطبيق على الكتب. وقد قسَّم ابن النديم كتابه إلى عشرة أقسام أو إلى عشرة مقالات كما يسميها هو. وقد اتبع في تبويب كتابه التدرج الطبيعي والمنطقي، حيث يذكر أسماء المؤلفين وعناوين مصنفاتهم في ذلك العلم. وقد افتتح ابن النديم كتابه (الفهرست) بمقدمة عن فضل العلم والقلم والكتاب، وما ورد في القرآن الكريم والسنة النبوية والأقوال المأثورة من العلماء والمشاهير. ثم ينتقل بعد فيذكر جميع المقالات:

المقالة الأولى: وهي وصف للغات الأمم من العرب والعجم ونعوت أقلامها وأنواع خطوطها وأشكال كتاباتهم وأسماء الشرائع المنزَّلة في القرآن، وأسماء الكتب المصنفة في علوم القرآن وأخبار القراء وأسماء رواتهم والشواذ من قراءاتهم.

المقالة الثانية: ويذكر فيها ابتداء النحو وأخبار النحويين البصريين والكوفيين وأخبار الذين خلطوا المذهبين وأسماء كتبهم.

المقالة الثالثة: وفيها أخبار المؤرخين والرواة والنسَّابين وأصحاب السير وأخبار الملوك والكتّاب وأصحاب الدواوين وأخبار الندماء والجلساء وأسماء كتبهم.

المقالة الرابعة: وتضم أسماء الشعر والشعراء وأخبارهم وطبقاتهم عند الجاهلية والإسلاميين وصنَّاع دواوينهم وأسماء رواتهم.

المقالة الخامسة: علم الكلام والمتكلمين من الفرق وأخبار الزهاد وأسماء كتبهم.

المقالة السادسة: الفقه والفقهاء وما ألَّفوه من كتب، والمحدثين وأسماء كتبهم.

المقالة السابعة: الفلسفة والفلاسفة والعلوم القديمة وأسماء الكتب المؤلفة فيها.

المقالة الثامنة: الأسماء والخرافات والسحر والشعوذة وأخبار المصورين وأسماء الكتب المصنفة فيها.

المقالة التاسعة: مذاهب الحرنانية والثنوية والهند وأسماء كتبهم.

المقالة العاشرة: أخبار الكيماويين والصنعويين من الفلاسفة القدامى والمحدثين وأسماء كتبهم.

ثم جاء أبو حامد الغزالي (1085–1111م) ليصنف المعرفة وفق ثلاثة معايير أو أسس وعلى النحو التالي:

أولاً: مستوى الإلزام:

ا- المعرفة المطلوبة للفرد.

ب- المعرفة المطلوبة للجماعة.

ثانياً: المصادر:

ا- العلوم المنزلة.

ب- العلوم غير المنزلة.

ثالثاً: الوظيفة الإجتماعية:

ا- العلوم المحمودة.

ب- العلوم المذمومة.

أما ابن خلدون (1332–1406م) فقد قسَّم العلوم التي تدرس في العالم الإسلامي إلى قسمين رئيسين هما: العلوم الفلسفية العقلية، وهي التي يمكن أن يتعلمها الإنسان ويصل إليها طبيعياً بنفسه وعن طريق استخدام عقله وذكائه الذاتي، والعلوم المنقولة، وهي التي يمكن أن يتعلمها الإنسان فقط بالنقل، وان يتتبع (للوصول إلى المعرفة) العودة إلى مؤسس العلم وأصله. وفي حالة العلوم الدينية في أصل الوحي. وقد قسم ابن خلدون هذه العلوم على النحو التالي:

أولاً: العلوم الفلسفية العقلية وتشمل:

- المنطق.
- العلوم الطبيعية:
  - الطب، الفيزياء، الزراعة.
- علوم المخلوقات وراء الطبيعية أو الميتافيزيقا وتشمل:
  - علم الصفات الحقيقية للحروف الهجائية.
  - علم الكيمياء.
- العلوم التي تتصل بالكمية وتشمل:
  - الهندسة (البصريات المستوية والدائرية).
  - الحساب (خواص الأعداد، فن العدد، الجبر، التجارية، حساب الميراث).
  - الموسيقى.

– الفلك (عمل الجداول الفلكية، حركة الأجرام السماوية، علم التنجيم).

ثانياً: العلوم المنقولة وتشمل:

- القرآن والتفسير والتلاوة.
- الحديث، أقوال الأنبياء، وسلسلة المصادر التي نقلت عنها.
- الفقه والقانون الالهي.
- الدين.
- العلوم اللغوية.

وأخيراً جاء طاش كبرى زاده (968هـ) ليصنف العلوم في كتابه ((مفتاح السعادة ومصباح السيادة)). ويتفق معظم الباحثين في المجال على أن تصنيفه يعتبر أكمل التصنيفات العربية الإسلامية. حيث جعل التصنيف علماً مستقلاً بذاته ويعرفه بأنه (علم باحث عن التدرج من أعم الموضوعات إلى أخصها، ليحصل بذلك موضوع العلوم المتدرجة تحت ذلك الأعم، ويمكن التدرج فيه من الأخص إلى الأعم كذلك). ويشير التعريف إلى أن زاده قد استخدم في تصنيفه المنهجين الإستنباطي والإستقرائي، وبذلك جاء تصنيفه أقرب التصانيف إلى الأنظمة الحديثة.

وقد قسم زاده العلوم إلى ست دوحات. وقد مهد لكل دوحة بمقدمة قيمة توضح مجال العلوم التي تشمل عليها الدوحة، وتعلل كيفية تقصيها بالصورة التي وردت فيها، بحيث لا يترك القارئ عرضة للحيرة، ثم يقسم كل دوحة إلى عدد

من الشعب وكل شعبة إلى عدد من العلوم. وفيما يلي عرض لهذه الدوحات:

- الدوحة الأولى في بيان العلوم الخطية:

الشعبة الأولى: في العلوم المتعلقة بكيفية الصناعة الخطية.

الشعبة الثانية: فيما يتعلق بإملاء الحروف المفردة.

- الدوحة الثانية في علوم تتعلق بالألفاظ:

الشعبة الأولى: فيما يتعلق بالمفردات.

الشعبة الثانية: فيما يتعلق بالمركبات.

الشعبة الثالثة: في فروع العلوم العربية.

- الدوحة الثالثة في علوم باحثة عما في الأذهان من المعقولات الثانية:

الشعبة الأولى: في علوم آلية تعصم عن الخطأ في الكسب.

الشعبة الثانية: في علوم تعصم عن الخطأ في المناظرة والدرس.

- الدوحة الرابعة في العلم المتعلق بالأعيان:

الشعبة الأولى: في العلم الإلهي.

الشعبة الثانية: في فروع العلم الإلهي.

الشعبة الثالثة: في العلم الطبيعي.

الشعبة الرابعة: في فروع العلم الطبيعي.

الشعبة الخامسة: في فروع فروع العلم الطبيعي.

الشعبة السادسة: في العلوم الرياضية.

الشعبة السابعة: في فروع علم الهندسة.

الشعبة الثامنة: في فروع علم الهيئة.

الشعبة التاسعة: في فروع علم العدد.

الشعبة العاشرة: في فروع علم الموسيقى.

- الدوحة الخامسة في الحكمة العملية:

الشعبة الأولى: في علم الأخلاق.

الشعبة الثانية: في علم تدبير المنزل.

الشعبة الثالثة: في علم السياسة.

الشعبة الرابعة: في فروع الحكمة العملية.

- الدوحة السادسة في العلوم الشرعية:

الشعبة الأولى: علم القراءة.

الشعبة الثانية: علم رواية الحديث.

الشعبة الثالثة: علم تفسير القرآن.

الشعبة الرابعة: علم دراية الحديث.

الشعبة الخامسة: علم أصول الدين (الكلام).

الشعبة السادسة: علم أصول الفقه.

الشعبة السابعة: علم الفقه.

الشعبة الثامنة: في فروع العلوم الشرعية.

• الدوحة السابعة في علوم الباطن:

الشعبة الأولى: في العبادات.

الشعبة الثانية: في العادات.

الشعبة الثالثة: في ربع المهلكات.

الشعبة الرابعة: في ربع المنجيات.

هذا وقد أخذ حاجي خليفة في كتابه "كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون" عن طاشكبري زاده.

وهكذا تبدو واضحة تلك الجهود الفكرية المتعاقبة للفلاسفة والعلماء العرب والمسلمين في مجال تصنيف العلوم، والتي سبقت كثيرا نظم التصنيف السائدة حاليا في المكتبات. ويبدو أن العلماء المسلمين قد تأثروا بشكل أو بآخر بالجهود السابقة في هذا المجال، ولكنهم في نفس الوقت أسهموا بإسهامات أصيلة، وأثروا تأثيرا واضحا في الجهود اللاحقة في هذا المجال. وهذا يؤكد حقيقة تفاعل الحضارات والثقافات الإنسانية مع بعضها البعض.

وبعد ظهور أنظمة التصنيف الحديثة، بدأ المكتبيون العرب في التقليد والإقتباس من تلك الأنظمة. فحاولوا أن يترجموا ويعدلوا ويختصروا من أنظمة التصنيف الأكثر شيوعا. كما ظهرت بعض المحاولات لاعداد أنظمة عربية للتصنيف، وكانت معظمها فردية لم يكتب لها النجاح. ولم تحاول أية مؤسسة عربية وضع نظام لتصنيف المعرفة يصلح لأن تتبناه المكتبات في البلاد العربية. ولهذا فان المكتبات العربية في غالبيتها تستخدم نظام ديوي العشري أو نظام تصنيف مكتبة الكونغرس أو نظام التصنيف العشري العالمي.

قائمة المصادر:

(1) ابراهيم، زاهدة. تصنيف العلوم عند العرب. – مجلة مكتبة الجامعة. – مجلد 2 (1973) ص 26.

(2) إتيم، محمود. التصنيف بين النظرية والتطبيق. – ط2. – بغداد: مركز التوثيق الإعلامي لدول الخليج العربي، 1973.

(3) بدران أحمد. دراسات في المكتبة والثقافتين. – القاهرة: دار الثقافة للتربية، 1978. – ص 291–306.

(4) شرف الدين، عبد التواب. دراسات في المكتبات والمعلومات. – الكويت: دار السلاسل، 1983. ص 137–146.

(5) عليان، ربحي. تصنيف العلوم عند العرب والمسلمين.– مجلة الهداية. – رمضان (1992). – ص 30–37.

(6) موسى، جلال محمد. منهج البحث العلمي عند العرب. – بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1972. – ص 59–62.

(7) همشري، عمر أحمد وربحي عليان. أساسيات علم المكتبات والتوثيق والمعلومات. – عمان: المؤلفان، 1997. – ص 137–146.

عرض لكتاب

دور الكتب والمكتبات العامة وشبه العامة لبلاد العراق والشام ومصر في العصر الوسيط

تأليف الدكتور يوسف العش

الكتاب الذي بين يدينا قدم أصلاً كرسالة دكتوراه باللغة الفرنسية إلى جامعة السوربون في باريس ، وقد نشرت الرسالة بالفرنسية في شكل كتاب عن المعهد الفرنسي في دمشق عام 1967 م . وترجمت إلى اللغة العربية وصدرت عن دار الفكر المعاصر في بيروت وعن مركز جمعة الماجد في دبي عام 1991م. وقد قام بترجمة الكتاب عن الفرنسية نزار أباظة ومحمد صباغ. يقع الكتاب في 437 من الحجم المتوسط ويضم مقدمة الترجمة ونبذة عن مؤلف الكتاب وتمهيد حول تصنيف دور الكتب العربية العامة، بالإضافة إلى 13 فصلاً تقع في قسمين رئيسيين. كما يضم الكتاب خاتمة وقائمة بالمصادر والمراجع. ويعد الكتاب من الكتب الأولى في مجال مكتبات الحضارة العربية والإسلامية.

وتوضح مقدمة الترجمة على محاولة مؤلف الكتاب إبراز دور الجوانب المذهبية في نشأة المكتبات العربية الإسلامية ، حيث يشير إلى أن المكتبات التي أنشئت منذ بداية العصر العباسي قد خدمت مذاهب معينة. كما توضح أن تأسيس المدارس قد واكب ظهور مدارس الفقه الإسلامي بمذاهبه الأربعة.

ويذكر المؤلف في بداية كتابه بعض المصادر والأعمال السابقة في المجال سواء باللغة العربية أو اللغات الأجنبية ، ثم يتحدث عن الصعوبات التي واجهته في إعداد دراسته والتي تتلخص في:

* قلة المراجع المطبوعة في الموضوع.
* الرجوع للمصادر القديمة كالمخطوطات للبحث فيما بين السطور.
* الرجوع إلى المصادر المتعددة في موضوعاتها كالدين والفقه والتاريخ والجغرافيا والأدب.... الخ.
* صعوبة الوصول إلى المخطوطات المبعثرة في مكتبات سوريا واسطنبول وأوروبا والقاهرة.

وقد بدأ المؤلف كتابه بالتمهيد الذي حمل عنوان (تصنيف دور الكتب العامة)، حيث أورد الأسماء المختلفة التي سميت بها المكتبات في الحضارة العربية الإسلامية وهي على النحو التالي: بيت الحكمة، خزانة الحكمة ، دار الحكمة، دار الكتب ، خزانة الكتب، وبيت الكتب. وقد أوضح المؤلف هذه التسميات من النواحي اللغوية والفقهية والتاريخية.

وقد توصل المؤلف إلى استقرار الناس على إطلاق كلمتين على المكتبة كمكان وهي:

(أ) دار : وهو مصطلح يطلق على مجموعة خزائن كتب تشغل قاعة واحدة أو عدة قاعات.

(ب) خزانة: وهو مصطلح أقل تحديدا من الدار، وهي المكان الذي يحفظ فيه

الأشياء، وكلمة خزانة لا تكفي للدلالة على استقلالية المكتبة.

ويقول المؤلف أن الكلمات : بيت ،خزانة، ودار تدل على المكان. أما الكلمات : العلم ، الكتب، الحكمة، فتدل على المحتويات التي توجد في هذه الأماكن. وقد أطلقت (الحكمة) للدلالة على الفلسفة اليونانية التي نقلت إلى اللغة العربية. ويذكر المؤلف أن تاريخ المكتبة العربية العامة مر بثلاث مراحل هي: بيت الحكمة ، دار العلم ، والمكتبات الملحقة.

عصر بيت الحكمة:

يذكر المؤلف أن أول بيت من بيوت الحكمة كان لمعاوية بن أبي سفيان ، ومن ثم آلت هذه المكتبة إلى خالد بن يزيد بن معاوية. ويؤكد المؤلف اهتمام خالد بن يزيد بالكيمياء وكتبها، واشتغاله بتأليف الكتب، وقد اهتم برعاية العلماء وأنشأ حركة للترجمة.

ويشير المؤلف إلى اختفاء بيت الحكمة منذ معاوية حتى عهد هارون الرشيد، ولا يعني ذلك عدم وجودها ، بل ربما أُطلق عليها تسميات أخرى مثل خزانة الكتب. وفي نهاية العصر الأموي كانت المكتبات مزودة بالكثير من الكتب في جميع العلوم، باستثناء كتب الفلسفة التي كانت قليلة جدا.

وقد ازدهرت بيت الحكمة في عهد المأمون ازدهارا كبيرا، حيث جلب لها الكتب من بلاد الروم والفرس ، واهتم بالكتب اليونانية القديمة ونقلها إلى عاصمة الخلافة العباسية (بغداد). وازدهرت الترجمة أيام المأمون في بيت الحكمة، ومنحت المكافآت المجزية للمترجمين. كما قام المأمون أيضا بتكليف عدد من العلماء بتأليف الكتب حسب اختصاصاتهم .

وقد كان أمين المكتبة يسمى باسم (صاحب بيت الحكمة)، ومن أشهر الذين شغلوا هذا المنصب: سهل بن هارون، سعيد بن هارون، والصنوبري وغيرهم. وقد كان الموظفون يقيمون ويأكلون في بيت الحكمة، وكان المحدثون والعلماء يجتمعون فيها ويتناظرون أمام الخليفة. وقد كانت بيت الحكمة في فترة المأمون والفترة التي لحقتها إحدى مراكز المعتزلة، وفيها ظهرت فتنة خلق القرآن ، ويعتقد المؤلف أنها كانت مركزا للشعوبية. وبسبب انتقال الخلافة من بغداد إلى سامراء ، فقد ضعفت بيت الحكمة ، ولم تتعد كونها مكتبة تقدم خدمات الإعارة والمطالعة ، واقتصرت تسميتها على (مكتبة المأمون).

أما الشبيه أو المنافس أو المثيل لبيت الحكمة، فهناك مؤسستان مختلفتان تحملان اسم (خزانة الحكمة) . الأولى كانت لعلي بن يحيى المنجم، والثانية جمعها علي بن يحيى للفتح بن خاقان، وقد قام بإنشائها أبناء شاكر المعروفين باسم بني المنجم. وقد وجد إلى جانب بيوت الحكمة وخزائنها خزائن خاصة أخرى مثل: دار القراء (بيت الجمحي)، بيت ابن أبي ليلى، ودار عبد الله الأندلسي. وقد قامت هذه الدور بدور مماثل لتلك المكتبات ولكن على نطاق محدود وضيق.

وبشكل عام فإن العوامل التي ساعدت على إنشاء وإغناء عصر بيت الحكمة هي:

(1) حركة الترجمة الواسعة من اللغات المختلفة إلى اللغة العربية.

(2) حركة ونشاط علماء الفلك وغيرهم.

(3) حركة تشجيع العلماء على التأليف.

(4) بالإضافة إلى إرسال الحملات لشراء الكتب وجلبها من المناطق الأخرى.

وقد اعتبر المؤلف بيوت الحكمة خزائن شبه عامة، فبالرغم من كونـها مُلكـاً للخلفاء وللمهتمين بجمع الكتب المعروفـين ، مـن العـادة أن يتوجـه إليـها العلمـاء للبحث والترجمة والتأليف ، ويدخلها القراء والمطالعون للاستفادة من محتوياتها.

عصر دور العلم:

يقول المؤلـف أن المكتبـات العامـة ظـهرت في بدايـة القـرن الرابـع الهجـري (العاشر الميلادي) باسـم (دار العلم) ، وهي تعتمد في نشوئها على بيوت الحكمـة في كل عناصرها؛ بل تعد حلقة مكملة لبيوت الحكمة. وقـد اعتمـدت دور العلـم بشكل رئيسي على مبدأ وقف الكتب.

بالنسبة لدار العلم الفاطمية في القاهرة، فقد أنشأها الحاكم بأمر الله الفاطمي لتكون مشابهة لدار الحكمة التي أنشأهـا المـأمون في بغـداد. وقـد اعتبرهـا المؤلـف امتدادا لبيت الحكمة، وقال أنها مرت في ثلاث مراحل:

* المرحلة الأولى: نشأتها عام 395هـ وهـي الفـترة الـتي أراد الحـاكم بـأمر الله أن يثبت ميله لأهل السنة وتعاطفه معهم.

* المرحلة الثانية : بعد عـام 410هــ ، وفيـها أصبحـت مركـزا تبشيريـا للدعـوة الإسماعيلية.

* المرحلة الثالثة : في عام 513هـ ، عندما أغلقت لأنها أصبحت مركـزا مناهضـا لمذهب الدولة، ثم أعيد فتحها لتصبح مرة أخرى مركزا للدعـوة الإسماعيليـة، إلى أن انتهت مع بداية عصر صلاح الدين الأيوبي عام 567هـ .

وبعد أن يتحدث المؤلف بنوع من التفصيل عن دار العلـم في القـاهرة يقـدم

عددا من مكتبات هذا العصر (عصر دور العلم) ومنها:

* دار علم الموصل التي أنشأها أبو القاسم غفار بن محمد أبو حمدان الموصلي الشحام وكانت غنية بكل صنوف المعرفة.

* مكتبة ابن سوار في البصرة، أوقفها علي بن سوار الكاتب، وتعد هذه أول مكتبة موقوفة في الإسلام.

* دار العلم لسابور في بغداد ، أنشأها سابور وزير بهاء الدولة وجلب إليها كتبا لأشهر الخطاطين والعلماء ، حتى بلغت كتبها عشرة آلاف وأربعمائة مجلد، وعين عليها مشرفا وعهد بإدارتها إلى ثلاثة أشخاص،حتى بلغ عدد الذين يعملون فيها ثلاثة عشر رجلا ، وكانت الأموال المخصصة لها كبيرة، وفيها كانت تقام الدروس والمحاضرات . وقد ساهمت في تطوير علوم العربية دون إهمال للعلوم الأخرى .

* دار العلم في طرابلس الشام، أنشأها أبو الحسن علي بن أحمد صاحب طرابلس وقاضيها، وكانت تعد أغنى ما امتلك المسلمون من مكتبات. بلغ عدد كتبها أكثر من مئة ألف مجلد . وقد أحرقها الصليبيون.

* دار العلم في القدس. بعد وقوع القدس تحت سيطرة الدولة الإسماعيلية عام 904م ، قاموا بتحويل كنيسة للروم إلى دار علم . ولما استولى الفرنجة على القدس عام 1098 م أعادوا دار العلم إلى كنيسة مرة أخرى.

* دور علم أخرى: بالإضافة إلى دور العلم الرئيسية السابقة ذكر المؤلف دور العلم التالية:

-دار العلم للشريف الرضي أبو الحسن محمد بن الحسين.

-دار العلم بالفسطاط وقد أنشئت زمن الفاطميين .

-دار العلم لأبي البقاء البصري، وهي أول دار بالبصرة.

-دار العلم لابن المارستانية، بناها عبيد الله بن علي بن نصر.

-خزانة سيف الدولة، وصفها المؤلف بأنها دار العلم في حلب.

أما خزائن العلم المعاصرة لدور العلم فيذكر منها المؤلف ما يلي:

خزانة كتب جامع حلب، مكتبة الجامع الأموي، خزائن المساجد في القاهرة، مكتبة العمراني الموصلي، ومكتبة محمد بن عمران المرزباني. أما المكتبات الشبيهة بدور العلم فيذكر منها المؤلف: دار الكتب في شارع ابن أبي عوف ببغداد ، دار الكتب للحكيم أرسطاطاليس أيام الفاطميين، ودار الكتب لابن شاه مردان.

ويستنتج المؤلف من خلال عرضه لدور العلم مايلي:

(1) أنها قامت على نظام الوقف .

(2) أنها كانت مستقلة في مباني خاصة.

(3) أنها مكتبات عامة للجمهور .

(4) أن الدعوة المذهبية هي الأساس لدور العلم.

(5) كان الطلاب يقيمون فيها بسبب إقامة العلماء فيها.

أما الفرق بين بيوت الحكمة ودور العم فيلخصها المؤلف فيما يلي:-

* دور العلم كانت توظف العلماء لتعليم الطلاب، أما بيت الحكمة فكان العاملون فيها متفرغون لأعمال الترجمة والتأليف .

* الصبغة التي غلبت على بيوت الحكمة صبغة المعتزلة ، بينما غلبت على دور العلم صبغة الشيعة.

* أعطيت الفلسفة في بيوت الحكمة أهمية أكثر من دور العلم .

* اعتمدت دور العلم بشكل رئيسي على الوقف.

وقد خصص المؤلف الفصل الثالث للمرحلة الثالثة في حياة المكتبات العربية الإسلامية وهي مرحلة المكتبات الملحقة . وقد تحدث عن المكتبات الملحقة في بغداد وذكر منها: خزائن المدرسة النظامية في بغداد ، المكتبة المستنصرية، خزائن المدارس الأخرى في بغداد مثل: مدرسة الجيلية ، مدرسة ابن هبيرة ، مدرسة الفخرية، مدرسة الجوزية، مدرسة شارع ابن رزق الله ، مدرسة عبيد الله، مدرسة البشيرية، ومدرسة المسعودية . أما خزائن المساجد في بغداد فيذكر المؤلف خزانة مسجد الزيدي ، وخزانة مسجد المستجد.

ويذكر المؤلف خزائن الرباطات في بغداد والتي منها: رباط المأمونية ، رباط المرزبانية ، رباط الشونيزي، رباط الحريم الطاهري، رباط الأخلاطية، ورباط باتكين. ومن مكتبات المشاهد في بغداد يذكر المؤلف : مكتبة مشهد أبو حنيفة، ومشهد يونس بن جعفر، ومشهد عون ومعين.

أما المدن الأخرى في العراق والتي كانت لديها مكتبات أو خزائن للكتب فيذكر منها المؤلف: جامع البصرة، المدرسة البدرية في الموصل، مشهد حسام الدين

في ماردين، ومدرسة أبي الحسن في ماردين ، ودامعة ميافارقين، ومجموعة أبو القاسم المغربي.

وبالنسبة لخزائن الكتب في الشام فيذكر المؤلف الأماكن التالية: الجامع الأموي في دمشق ، الخزانة الفاضلية، التربة الأشرافية، مشهد ابن عروة ، حلقة الحنابلة ، بيت الملك المحسن، كتب الكندي ، كتب الفخر المالكي، مصحف الجامع، مجموعة ابن الطحان، ومكتبة مسجد درب المدنيين . أما الخزائن الملحقة بالمدارس في دمشق فيذكر منها : العادلية ، الشبلية، الرواحية، البادرائية، الناصرية، ومدرسة السيفية.ويذكر المؤلف خزائن دور الحديث في دمشق ومنها: دار الحديث النورية، ودار الحديث الأشرفية، ودار الحديث الضيائية. ومن الخزائن الملحقة بالبايمارستانات في دمشق يذكر المؤلف: البيمارستان النوري، وخزانة الدخوارية، والخزانة الملحقة برباط السميساطية . ومن خزائن الترب في دمشق: خزانة البهنسية ، وخزانة البلورية.

ويرصد الكتاب خزائن الكتب الملحقة بمدينة حلب، ومنها: النورية، الظاهرية، الشرفية ، السلطانية، مدرسة الدوادار الناصري ، خزانة مصحف الجامع، جامع منكلي بغا، البدرية ، ومسجد السفاحية.

ثم ينتقل الكتاب للحديث عن خزائن الكتب الملحقة بالقاهرة ومنها: الفاضلية، الصاحبية، الكاملية، الظاهرية، المنكوتمرية ، الطيبرسية، الحجازية، العوكلانية، الجاي، المحمودية ، الأشرفية، الملكية، الجمالية، العثمانية، وخزانة اليمارستان المنصوري الكبير. ومن خزائن الرباطات بالقاهرة يذكر المؤلف: الصلاحية ، رباط الآثار ، البكتماري، والشيخوتية. أما خزائن الكتب بالمساجد في

القاهرة فيذكر الكتاب: خزانة كتب المسجد الحاكمي والمسجد الخطيري.

أما مميزات المكتبات الملحقة فهي على النحو التالي:

* كثرة عددها وانتشارها الواسع، وصغر حجمها.
* كان يرتاد هذه المكتبات الطبقة العليا من العلماء والمعروفين.
* مجموعات الكتب كانت في الغالب في العلوم الدينية.
* اعتمدت هذه المكتبات كثيرا على الوقف الذي أغنى مجموعاتها . أما الأشخاص الذين كانوا يوقفون الكتب فهم العلماء والمؤلفين والمحبين للكتب من عامة الناس.
* هدفها تعليمي في الغالب وخدمة الباحثين.

بعد ذلك يتحدث الكتاب عن صفات الكتب في المكتبات العامة، وطرق وقف الكتب، وفهارس المكتبات ، وتصنيف العلوم في هذه المكتبات ، ومباني المكتبات وأثاثها والعاملين فيها والموازنة، وساعات العمل في المكتبات، والإعارة الخارجية.

وقد اتبع المؤلف في كتابه منهجا صارما التزم به في معظم فصول الكتاب، وتتميز منهجيته بالمعالم التالية:

* إتباع المنهج التاريخي في عرضه لموضوع الكتاب، مع قدرة على التعامل مع النصوص التاريخية المتناثرة من مصادرها الأولية.
* الرجوع إلى الكثير من الوثائق والمصادر في التاريخ والتراجم والأدب العربي

والفقه الإسلامي وغير ذلك .

* الرجوع إلى المخطوطات المؤلفة عن المكتبات ومراجعتها.

* الاستفادة من محفوظات وسجلات المحاكم الشرعيةووثائقها.

* وظف المؤلف الشواهد التاريخية التي جمعها من المصادر المختلفة توظيفا يدل على قدرته العلمية على استخلاص النتائج.

* وثّق المؤلف معلوماته بشكل موفق.

* أعدّ المؤلف قائمة بيليوغرافية بالمصادر والمراجع التي استخدمها وأعطى معلومات كاملة عنها وعن أماكن وجودها ورتبها حسب المؤلفين.

عرض لكتاب

المكتبات في الإسلام

تأليف: الدكتور محمد ماهر حمادة

صدر كتاب المكتبات في الإسلام للدكتور محمد ماهر حمادة عام 1970م عن مؤسسة الرسالة في بيروت. يقع الكتاب في 232 صفحة من الحجم المتوسط(*) .

وللمؤلف وهو أستاذ في علم المكتبات العديد من الكتب والدراسات والمقالات في علم المكتبات بشكل عام والمكتبات في الإسلام بشكل خاص، ومن بين كتبه:

- تنظيم المكتبات المدرسية، 1969.
- علم المكتبات والمعلومات، 1986.
- المصادر العربي والمعرفة، 1986.
- المكتبات في العالم: تاريخها وتطورها، 1981.

وقد عرض المؤلف في مقدمة كتابه سبب تأليفه لهذا الكتاب، وقد عزاه إلى قلة الكتب المؤلفة في هذا الباب التي تسرد تاريخ المكتبات وتطورها.

يستعرض المؤلف في الفصل الأول الذي يحمل عنوان (ما قبل المكتبات

(*) اعتمد هذا العرض على ما جاء في كتاب: دور الكتب والمكتبات في الحضارة العربية الإسلامية.

الإسلامية) العلوم والمعارف التي كان بوسع العرب الاطلاع عليها قبيل بزوغ فجر الإسلام وبداية الرسالة المحمدية، والإشارة إلى أن انعزالهم عن العالم الخارجي المحيط بهم باستثناء ما كان يقوم به التجار من الرحلات الموسمية أضاع عليهم فرصا للاطلاع على منتجات الحضارات السابقة وثقافاتهم.

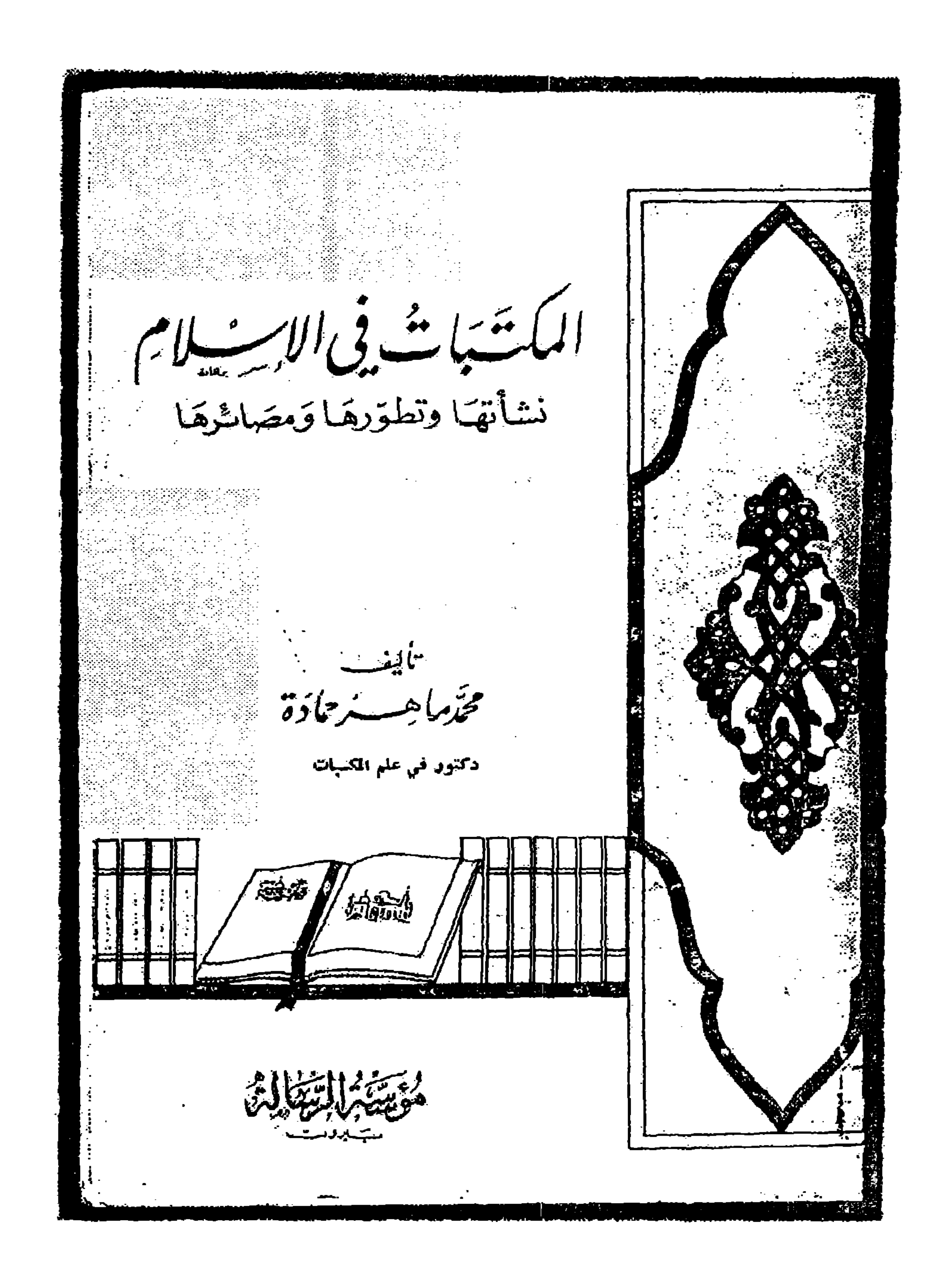
ويستعرض الباحث أيضا مراكز العلم والمعرفة التي كانت سائدة آنذاك، فيشير إلى الثقافة اليونانية والسريانية والفارسية والقبطية التي اتصلت ببعضها اتصالا يصعب الفصل بينها، ثم يشير إلى تطور مراكز العلم في بلاد فارس، والاسكندرية وقصة حرق مكتبتها من قبل المسلمين عند فتحهم لمصر، وهنا يسهب المؤلف في العرض لإثبات براءة المسلمين من عملية الإحراق مؤيدا ذلك بعدة دلائل وشواهد.

أما الفصل الثاني وعنوانه (فجر المكتبات الإسلامية) فيتحدث المؤلف فيه عن انتشار العلم والتعلم والتعليم في طول البلاد الإسلامية وعرضها. ولعل ذلك عائد إلى اهتمام الإسلام بالقراءة والمعرفة ورفع شأن العلماء والإشادة بفضلهم في الدنيا والآخرة، وقد استشهد المؤلف لذلك بآيات وأحاديث كثيرة وآثار مشهورة عن السلف الصالحين. ويحاول المؤلف أن يفسر السبب في النهضة العلمية الشاملة معتبرا أن اهتمام المسلمين بالكتاب باعتباره الوعاء المتضمن للمعرفة هو السبب الأصيل لهذه النهضة. ثم يتحدث المؤلف عن التدوين ونشأته ويوليه أهمية كبيرة، باعتباره الأساس العلمي الذي استند إليه نظام التأليف في الإسلام. ومن ثم يشير المؤلف هنا إلى دور عثمان بن عفان في هذا الصدد في جمع كلمة المسلمين على مصحف واحد، وذلك خوفا من التحريف أو التعطيل أو المغالاة فيه.

ثم ينتقل المؤلف للحديث عن اختراع الورق أو "الكاغد" كما يسميه العرب، باعتباره عاملا حاسما في نشر المعرفة وغزارة المؤلفات. وبهذا الاختراع يسدل المؤلف الستار على عهد فجر المكتبات للبدء بعصر جديد هو ازدهار المكتبات والكتب في الإسلام.

ويشير المؤلف في هذا الفصل أيضا إلى قلة المصادر التي وصلتنا من العصر الأموي والتي تصل إلى درجة الانعدام؛ وليس ذلك – كما يقول – بسبب اضمحلال العلم وقلة التدوين والتأليف في هذا العصر، بل أن الشواهد والأدلة التاريخية تثبت عكس ذلك تماما. فالنقل والتدوين من اللغات الأجنبية السائدة في ذلك الوقت تمت في العصر الأموي، وبإشراف من خالد بن يزيد بن معاوية حكيم بني مروان، كما أن بداية نقل الدواوين من اليونانية إلى العربية تمت زمن الخليفة عبد الملك بن مروان. أما معظم ما أنتجه هذا العصر فكان يتركز في العلوم الدينية (علوم القرآن، والحديث الشريف، والسيرة النبوية، والأنساب، والشعر الجاهلي.... إلخ). ولا يقدم المؤلف تأويلا واضحا لقلة المصادر المكتوبة التي وصلتنا من هذا العصر.

في الفصل الثالث (ضحى المكتبات الإسلامية) ينفي المؤلف مقولة أن بزوغ الحضارة الإسلامية كان بابتداء عهد الخلافة العباسية، بل يعتبر هذا العهد امتدادا لعهد الخلافة الأموية ففيه بدأت البذور الأولى للغراس تنمو، والثمار تنضج وتينع، غير أن حادثتين أثرتا في هذا العصر وهما: أن عاصمة الخلافة انتقلت إلى بغداد بدلا من دمشق ليبدأ تأثير الفرس على أنظمة الحكم والإدارة، وتميز هذا العصر أيضا بالصراع المكشوف والعلني بين الفرس والعرب.


المكتبات في الإسلام
نشأتها وتطورها ومصائرها
تأليف
محمد ماهر حمادة
دكتور في علم المكتبات
مؤسسة الرسالة

ويؤكد المؤلف بأن حركة الترجمة من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية قد وجدت العناية الفائقة، ونشطت حركة التأليف والكتابة بدرجة كبيرة وذلك بتشجيع من الخلفاء العباسين أنفسهم، واهتمامهم ورعايتهم، وزاد ذلك بعد انتشار الورق في جميع أرجاء الدولة الإسلامية، فابتدأ التشجيع في عهد الخليفة المنصور ثم الرشيد ثم ابنه المأمون، إذ تولت الدولة في هذه الأثناء العناية بالترجمة والنقل.

ومن العلامات البارزة في هذا العصر جهود الرشيد والمأمون في جلب الكتب والمؤلفات من شتى أصقاع الأرض، إما عن طريق فتح المدن وأخذ الكتب، أو شرائها أو طلبها وخاصة من بلاد الروم، وقد عهدوا بتعريب هذه الكتب إلى فريق كبير مؤهل من العلماء والمترجمين الذين برعوا في شتى نواحي المعرفة الإنسانية. وفي هذا الصدد يحاول المؤلف أن يقسم عهد النقل في الإسلام إلى ثلاث مراحل:

1. دور ما قبل الرشيد والمأمون.
2. دور الرشيد والمأمون والبرامكة.
3. دور ما بعد المأمون.

ويشير المؤلف هنا إلى اختراع الورق وانتشار صناعته وتأثيره الكبير في النهضة العلمية الكبيرة السائدة في ذلك الوقت، ومشاركة العلماء والأدباء في هذه الحركة من خلال الاشتغال بمهمة الوراقة والمكتبات.

الفصل الرابع: أنواع المكتبات الإسلامية وقسم المؤلف في هذا الفصل المكتبات إلى الأصناف التالية:

1. مكتبات المساجد والجوامع:

وقد عدها المؤلف أول المكتبات نشوءا في الإسلام، وقد انتشر هذا الصنف من المكتبات في المساجد الكبيرة في أرجاء الدولة الإسلامية مثل مكتبة الحرم المكي، والحرم المدني، والجامع الأزهر، وجامع الزيتونة وجامع بني أمية .. إلخ. وكان مصدر هذه المكتبات جملة الأوقاف التي يوقفها كبار المسلمين وسراتهم.

2. المكتبات الخاصة:

وقد انتشر هذا الصنف من المكتبات في أنحاء العالم الإسلامي، وكان الوزراء والأغنياء ورجال الدولة يحرصون على اقتناء مجموعات ضخمة من الكتب، وقد ذكر المؤلف أمثلة كثيرة على هذه المكتبات مثل: مكتبة علي بن يحيى المنجم، ومكتبة العالم الفيلسوف الكندي، ومكتبة الوزير ابن العميد، والصاحب ابن عباد، والواقدي، وجعفر بن محمد الموصلي الشافعي (ابن حمدان) والوزير مؤيد الدين العلقمي، وجمال الدين القفطي، وغيرهم من العلماء والأدباء والوزراء والكبراء.

3. المكتبات الأكاديمية:

وقد ركز المؤلف هنا على مكتبة دار الحكمة في القاهرة، التي أسسها الفاطميون في القرن الرابع الهجري وذلك لنشر مذهبهم الشيعي، حيث وجدت بها المناظرات والمحاضرات التي تناصر منصبهم، وجلبت إليها كتب كثيرة من شتى العلوم ووضعت بها خزائن خاصة للكتب، كما قسمت إلى عدة أقسام: الفقه، والقرآن الكريم، والتنجيم وغيرها، ولعل أبرز ما يميزها هو سهولة تصنيف هذه المكتبة. وأورد المؤلف أيضا "مكتبة مراغة" في أذربيجان التي أسسها المغول مثالا واضحا على المكتبات الأكاديمية التي انتشرت في مشرق الدولة الإسلامية.

4. المكتبات الخلافية (مكتبات الخلفاء):

وقد كانت تخص الخلفاء والحكام، ومن الأمثلة على هذه المكتبات، المكتبة التي أنشأها السامانيون في بخارى وذلك لنشر مذهبهم الإسماعيلي وكانت كبيرة جدا، وقد كان يمنع دخولها إلا للخاصة.

وقد اهتم الخليفة الناصر في بغداد بمكتبة المدرسة النظامية والرباط الظاهري وأثراها بالكتب. واهتم الخليفة المستنصر بالله بمكتبة المدرسة المستنصرية، أما الخليفة المستعصم بالله فقد أنشأ خزانتين للكتب. إضافة إلى ذلك المكتبة التي أسسها سيف الدولة الحمداني في حلب، وكانت مكتبة كبرى.

أما في عهد الخلافة الفاطمية فقد اهتم الفاطميون بالمكتبات اهتماما منقطع النظير، وأنشأوا دارا للعلم بجوار الجامع الأزهر، وأما عن مكتبات الخلفاء في الأندلس فمنها مكتبة عبد الرحمن الأوسط، ومكتبة عبد الرحمن الناصر، والمكتبة الأشهر تلك التي أنشأها الخليفة الحكم الثاني المستنصر بالله.

الفصل الخامس (المكتبات العامة): ذكر المؤلف في هذا الفصل ميزات هذه المكتبات، إذ أشار إلى أن المطالعة فيها حرة، وأن الإعارة الخارجية تتم دون رهن من المستعير، إضافة إلى ذلك وقف بعض العلماء والوزراء مكتباتهم الخاصة للعامة بعد موتهم. ويركز المؤلف في سرد بحثه على مكتبتين هما: مكتبة "سابور" في بغداد في القرن الخامس هجري، ومكتبة "بني عمار" في طرابلس الشام في القرنين الخامس والسادس الهجريين. ثم سرد المؤلف أنواع المكتبات العامة وهي:

1. مكتبات المدارس:

حيث تبرز إلى الصدارة مكتبة المدرسة النظامية، التي أنشأها الوزير نظام

الملك في بغداد، باعتبارهـا أول مدرسـة في الإسـلام تقـوم علـى تأسيسـها الدولـة، وتنشأ لها فروع أخرى في الأمصار الإسلامية المختلفة، ومكتبة المدرسة المسـتنصرية التي أنشأها الخليفة العباسي المستنصر بالله.

2. مكتبات المشافي (المستشفيات):

وقد تحدث المؤلف هنا عن المارستانات الـتي أنشأنـها الخلفـاء في جميـع أنحـاء الدولة الإسلامية مثـل المارسـتانات الـذي أنشـأه عضـد الدولـة البويـهي، ومكتبـة المارستان التي أنشأهـا نـور الديـن الشـهيد في دمشـق وسـميت المكتبـة "النوريـة"، ومكتبة المارستان المنصوري في القاهرة.

3. مكتبات الترب والمقابر:

حيث كانت تلحق المكتبات بقبور الملوك والحكام، إضافـة إلى ذلـك كـانت الكتب تلحق بالخانقاه أيضا.

وقد ركز المؤلف في الفصل السادس (تنظيـم المكتبـات الإسـلامية) علـى مـا يلي:

- البناء: لم يكن للمكتبات في الصدر الأول مـن الدولـة الإسـلامية أبنيـة خاصـة بها، ولكـن مـع تطـور الزمـن وضخامـة المكتبـات بـدأ التوجـه نحـو اسـتقلال المكتبات في أبنية خاصة بها، ومن الأمثلة على ذلـك مكتبـة دار الحكمـة الـتي استقلت ببناء، خاص في القاهرة.
- غرف النساخ: حيث كانت تلحق غرف خاصة بهم في مباني المكتبات.
- تزويد المكتبات بالأثاث اللازم لها.

- وجود عدد من الغرف في المكتبات لكل منها وظيفتها، فهناك غرف للمطالعة، وغرف للبحث والمناظرة، وغرف المحاضرات وغرف خاصة للموسيقى.
- تزويد المكتبة بالحبر والأقلام والأوراق لمساعدة طلبة العلم على النسخ.
- تزويد المكتبات بالأدوات الفلكية.
- أما بالنسبة لإدارة المكتبة فكانت تحت إشراف ثلاثة أشخاص تختلف مسمياتهم باختلاف الزمان والمكان.
- إيجاد دواء للعث والأرضة يستعملونه لمنع تفتت أوراق الكتب.
- اهتم المسلمون بالفهرسة والتصنيف والتنظيم لمكتباتهم لتسهيل استعمالها.

وكان هناك نوعان من الفهارس:

أ- فهارس مكتوبة في مجلدات تستعمل كالكتب.

ب- فهارس تعلق على مدخل كل قسم تتضمن أسماء الكتب ومؤلفيها.

وكان ترتيب الكتب على الرفوف يتم بطريقة إلقائها فوق بعضها البعض، فتكون الكتب ذات الحجم الكبير في الأسفل، وذات الحجم الصغير في الأعلى، وكان عنوان الكتاب واسم مؤلفه يكتبان على طرف الصفحة من الخارج.

ويبدو أن المؤلف لم يستطع تحديد مالية المكتبات، وذلك لأن المكتبات لم تتضمن محتوياتها سجلات مالية خاصة بها. أما نظام الإعارة فقد كان يسمح به في المكتبات دون مقابل، وفي بعض الأحيان مقابل رهن، وذلك يعود لاشتراط الواقف.

- ظهور علم الببليوغرافيا، ومن أمثلة ذلك كتاب الفهرست لابن النديم، وكتاب إحصاء العلوم للفارابي، ومفاتيح العلوم للخوارزمي، وحدائق الأنوار في حقائق الأسرار لفخر الدين الرازي، ودرة التاج للشيرازي.
- أما الطرق التي تحصل فيها الكتب، فهي: المصادرة، الشراء، الوقف، النسخ، الهبات، الهدايا.

وتطرق المؤلف إلى تجارة الكتب، التي ازدهرت مع اختراع الورق، وانتشاره وظهور أسواق الوراقين. أما بالنسبة لأثمان الكتب، فقد كان يتوقف على صفات عدة هي:

أ. جودة الخط وشهرة الخطاط.

ب. نسبة الكتاب إلى شخص مشهور.

ج. شهرة مؤلف الكتاب.

وقد وجد النساخ في المكتبات في العصور الإسلامية المختلفة، ويبدو أنهم كانوا يتناوبون على العمل فيها، وقد تعدى عدد النساخ في بعضها المائة.

الفصل السابع: (المكتبات والكتب والكتاب) وتحدث المؤلف في هذا الفصل عن بعض المواضيع المتفرقة المتعلقة بالكتب والمكتبات ومن أهم ما أشار إليه:

1. تأليف الكتاب باسم أحد الأمراء أو الولاة أو السلاطين وإهداؤه له، وذلك في محاولة من المؤلفين لنشر أعمالهم وارتفاع أسمائهم لتأمين العيش الكريم لأنفسهم. كما فعل أبو الفرج الإصفهاني بإهدائه كتابه "الأغاني" للأمير سيف الدولة الحمداني وكتاب "القانون المسعودي" الذي أهداه البيروني للسلطان

محمود الغزنوي، وغيرهم كثير. وقد انتشرت هذه العادة في جميع أرجاء الدولة الإسلامية في الشام ومصر والأندلس والمغرب.

2. إهداء الكتب، فقد كانت الكتب مع جودة خطها وتجليدها تعد من أفضل الهدايا وأنفسها وأعظمها أثرا.

3. رحلة الكتب: فقد كانت حرية انتقال الأفكار والكتب في أوج ازدهارها رغم التضييق السياسي الذي اعترى الدولة الإسلامية في بعض العصور المتأخرة، فقد عمل الخلفاء والحكام على إرسال مبعوثيهم إلى جميع أرجاء المعمورة لاستجلاب الكتب وشرائها وإحضارها للإستفادة منها. وعمل الخلفاء على طلب أنفس الكتب من قبل حكام الدول الأخرى كالدولة البيزنطية وغيرها.

4. اضطهاد الكتب والمكتبات: وقد عرض المؤلف أمثلة من عمليات حرق الكتب وإتلافها، كما فعل أبو حيان التوحيدي الذي حرق كتبه قبيل وفاته. إضافة لما حصل لبعض كتب الصاحب بن عباد؛ إذ تم حرق كتب الأوائل وعلم الكلام. وقد كانت عمليات إتلاف الكتب وإحراقها نتيجة لعمليات التضييق على العلماء والأدباء والخلافات المذهبية الحادة.

واختتم المؤلف هذا الفصل بالحديث عن مصير هذه المكتبات، ثم انحطاطها وعدم قدرتها على التطور. وقد أرجع هذا الانحطاط في مستواها إلى عاملين داخلي وخارجي:

1. العامل الداخلي: تعرض الدولة الإسلامية للثورات والاضطرابات والتفكك، وانقسامها لعدة دويلات صغيرة.

2. العامل الخارجي: الغزو المغولي والغزو الصليبي، وما رافقهما من هجمات مستمرة على الدولة الإسلامية، وعلى دور العلم وعملية الإبادة التي واجهتها الكتب والمكتبات.

أورد المؤلف في الفصل الثامن: "انتقال تراثنا المكتبي إلى أوروبا وتأثيره في نهضتها" أن انتقال هذا الكم الهائل من الكتب التراثية إلى أوروبا أحدث ثورة معرفية هائلة وذلك بسبب اهتمام حكام أوروبا وغيرهم بجلب الكتب من الدولة الإسلامية، ووضعها في مكتباتهم، وترجمتها من العربية إلى اللاتينية، وبذلوا في سبيل ذلك كل جهدهم. وقد ذكر المؤلف أن انتقال التراث الإسلامي إلى أوروبا قد تم من خلال الطرق التالية:

أولا: عن طريق صقلية.

ثانيا: عن طريق الاندلس.

ثالثا: عن طريق الحروب الصليبية.

وينتهي الكتاب بخاتمة وقائمة بالمصادر والمراجع وكشاف هجائي. ويعد الكتاب من أوائل الكتب التي صدرت في موضوع المكتبات في الإسلام، وقد اعتمد عليه الكثير من الباحثين. والكتاب موثق، ويضم قائمة غنية بالمصادر.

عرض لكتاب
المكتبات في العصور الإسلامية

تأليف: الاستاذ منصور محمد سرحان.

يعد موضوع المكتبات في الحضارة العربية الإسلامية من بين الموضوعات التي لم تعط حقها التي تستحق من الدراسة والبحث والتأليف، ولا تزال عوامل تطور المخطوط العربي الإسلامي والأنواع المختلفة للمكتبات العربية الإسلامية والكثير من الموضوعات ذات العلاقة، غير معروفة لدى الكثيرين في العالم العربي. وعلى الرغم من الدور الكبير الذي لعبته المكتبة في حضارتنا العربية الإسلامية إلا أنها عولجت بشكل جزئي في بعض المقالات القصيرة المتناثرة في الصحف والمجلات العربية أو في شكل فصل في كتاب يتحدث بشكل عام عن تاريخ المكتبات أو الثقافة العربية الإسلامية. ولم يعالج الموضوع بشكل شامل إلا (حسب علمي) في كتابين هما: المكتبات في الإسلام للدكتور محمد ماهر حمادة وكتاب الكتب والمكتبات في الحضارة العربية الإسلامية لكاتب هذه السطور.

لذلك جاء كتاب (المكتبات في العصور الإسلامية) للاستاذ منصور سرحان ليسد فراغاً لا يزال قائما في هذا المجال، بل في هذا المعلم الناصع والمضيء في حضارتنا العربية والإسلامية. صدر الكتاب حديثا (1997م) عن مكتبة فخراوي في البحرين ويقع في 200 صفحة من الحجم المتوسط.

مؤلف الكتاب هو الاستاذ منصور محمد سرحان من مواليد البحرين عام 1945م، حاصل على الليسانس في التاريخ من جامعة بيروت العربية ودرجة

البكالوريوس في علم المكتبات من جامعة بومبي بالهند عام 1980م ودرجة الماجستير في علم المكتبات من كلية ليدز للتكنولوجيا في بريطانيا عام 1985م. كما حصل المؤلف على دبلوم الادارة التنفيذية من جامعة البحرين عام 1990م. ويعمل المؤلف مديرا لادارة المكتبات العامة بوزارة التربية والتعليم بدولة البحرين، وهو رئيس جمعية المكتبات البحرينية، وقد شارك في العديد من المؤتمرات العربية والدولية في مجال المكتبات والمعلومات.

وللمؤلف العديد من البحوث والدراسات والمقالات المتخصصة في مجال المكتبات والمعلومات، ونشر له قبل هذا الكتاب الكتب التالية:

(1) الكتاب والمكتبات، 1983م

(2) الببليوغرافيا الوطنية لدولة البحرين: الجزء الأول 1992م.

بالتعاون مع الدكتور ربحي مصطفى عليان.

(3) الببليوغرافيا الوطنية لدولة البحرين: الجزء الثاني، 19994م.

بالتعاون مع الدكتور ربحي مصطفى عليان.

(4) **Bahrain National Bibliography, 1995**

(5) واقع الحركة الفكرية في البحرين، 1993م0.

(6) مراسلات ابراهيم العريض الأدبية، 1996.

يقع كتاب (المكتبات في العصور الإسلامية) في سبعة فصول رئيسية، كما يضم مقدمة وصورا لبعض الكتب والمخطوطات الإسلامية القديمة وقائمة بالمصادر. ويقول المؤلف في مقدمة الكتاب:"منذ أن أصدرت كتاب (واقع الحركة

الفكرية في البحرين) عام 1993م، كنت أجمع مادة كتابي هذا. واخترت هذا الموضوع بالذات كمادة بحث جديدة نظرا لقلة المصادر الموثقة التي نشرت عن المكتبات في العصور الإسلامية المختلفة. ونظرا لاتساع مفهوم العصور الإسلامية، فقد حددت الفترة الزمنية التي جمعت فيها مادة الكتاب حتى نهاية القرن السابع الهجري". وقد حاولت أن يكون الكتاب على محدودية صفحاته مرآة تعكس الاحداث والتطوارت التي أدت إلى تأسيس المكتبات في العالم القديم بصورة محدودة ومقتضبة، والعالم الإسلامي بصورة شاملة ومركزة.

الفصل الاول في الكتاب بعنوان (مكتبات العالم القديم) ويهدف إلى تقديم فكرة عن اهتمام الحضارات القديمة على اختلافها بالكتب والمكتبات. ويعرض الفصل إلى مكتبات وادي الرافدين (بلاد ما بين النهرين) ومن بينها مكتبة لكش ومكتبة نيبور ومكتبة نينوى. ثم يتحدث باختصار شديد جدا عن مكتبات مصر القديمة.أما المكتبات القديمة في سوريا وبلاد فارس وتركيا واليونان والامبراطورية الرومانية فيقدمها بشكل مختصر. ولا نعرف لماذا لم يتناول الفصل المكتبات في الحضارات الأخرى كالحضارة الصينية مثلا، ولماذا توقف عند الحضارة الرومانية ولم يمتد الفصل ليغطي مكتبات العصور الوسطى؟ وعندما تناول الفصل المكتبات القديمة في تركيا لم يشر إلى مكتبة برغاموم التي تعد من أشهر المكتبات في التاريخ القديم.

مرحلة التمهيد لبزوغ المكتبات الإسلامية هو موضوع الفصل الثاني في الكتاب، وفيه يتناول علوم وثقافة العرب قبل مجيء الإسلام وعلوم وثقافة العرب في عهد الرسول والخلفاء الراشدين. ويتطرق الفصل كذلك إلى قصة حرق مكتبة

الاسكندرية بنوع من التفصيل ويدافع عن التهمة الموجهة للمسلمين بخصوص احراقها من خلال ثمان معطيات تضحض هذه التهمة. وكان من الأفضل لو عولج موضوع مكتبة الاسكندرية مع المكتبات اليونانية. وعلى الرغم من أن الفصل مخصص لبزوغ المكتبات الإسلامية إلا أنه تطرق بشكل موجز للعوامل التي مهدت لهذا البزوغ مثل الكتابة العربية والخط العربي وصناعة الورق في الإسلام وبداية حركة التدوين والتأليف والترجمة والنقل في الحضارة العربية الإسلامية، وهي العوامل التي مهدت فعلا لظهور المخطوط العربي وبالتالي المكتبة العربية. وبدلا من مناقشة هذه العوامل في هذا الفصل خصص لها فصلا في الكتاب ولكنه بعيد عن الموضوع (الفصل السادس)، والغريب في الأمر أنه تحدث عن عوامل بزوغ المكتبات بعد أن تحدث عنها في الفصل الثالث!

المكتبات الرئيسية في العصور الإسلامية خصص لها المؤلف الفصل الثالث من الكتاب. والمكتبات الرئيسية من وجهة نظر المؤلف هي تلك المكتبات التي تخصص لها الدولة ميزانية لشراء الكتب والاثاث والصرف على العاملين. علما بأن هذا المعيار غير كاف لتقرير المكتبات الرئيسية في الحضارة العربية الإسلامية وذلك لأن الكثير منها لم تنشئه الدولة الإسلامية ومع ذلك فقد بلغ شأنا من الشهرة. والمكتبات الرئيسية التي تناولها الفصل هي مكتبة بيت الحكمة في بغداد، ومكتبة دار العلم أو دار الحكمة في القاهرة، والمكتبة المستنصرية في قرطبة. ومن بين المكتبات الشهيرة في الحضارة العربية الإسلامية على سبيل المثال لا الحصر (مكتبة بنو عمار) في طرابلس الشام، التي بدأت خاصة ثم تحولت إلى مكتبة عامة. ويعد هذا الفصل (الثالث) من أفضل فصول الكتاب توثيقا للمصادر.

يمكن القول أن الحضارة العربية الإسلامية قد عرفت جميع أنواع المكتبات التي نعرفها في عصرنا الحاضر، ولكنها أعطتها تسميات مختلفة، إلا أن الأهداف والانشطة والخدمات متشابهة إلى حد ما. وقد خصص المؤلف الفصل الرابع من الكتاب للحديث عن أنواع رئيسية من المكتبات الإسلامية وهي: المكتبات الخاصة، مكتبات المساجد ومكتبات المدارس.

المكتبات الخاصة هي تلك التي يمتلكها الأفراد ويتصرفون بها كيف يشاؤون وتوجد في المنازل وان كان بعضها له مبان خاصة ليحولها أصحابها إلى مكتبات عامة. ويقدم الفصل معلومات مختصرة عن سبعة عشر مكتبة خاصة اشتهرت في الحضارة العربية الإسلامية. ولم يوضح المؤلف لماذا اعتبر هذه المكتبات شهيرة ومتميزة، كما أن المعلومات التي يقدمها عن هذه المكتبات غير موثقة ولا نعرف مصادرها. كذلك لا نعرف لماذا بدأ المؤلف هذا الفصل بالحديث عن المكتبات الخاصة وليس مكتبات المساجد أو الجوامع التي تؤكد المصادر أنها أولى المكتبات في الإسلام. وقد عالج الفصل موضوع المكتبات الخاصة بنوع من التفصيل لينتقل بعد ذلك للحديث عن مكتبات المساجد ومكتبات المدارس في الإسلام بنوع من الاختصار، مبينا مفهومها وأمثلة عليها من مختلف البلاد الإسلامية.

إزدهار وتنوع حركة الكتابة والتأليف في العصور الإسلامية هو عنوان الفصل الخامس للكتاب، ويضم الفصل أهم الكتب التي ألفت وكان لها الأثر الكبير في مجرى الحياة الفكرية والثقافية في تلك الفترة، مقسما تلك المؤلفات وفق المجالات التالية: السيرة النبوية، اللغة، الأدب، الفلسفة، الطب، الصيدلة، علم الاجتماع، علم الفلك والنجوم، الرياضيات، الكيمياء، الببليوغرافيا، التراجم،

التاريخ والجغرافيا. وكان من الأفضل لو جاء هذا الفصل في بداية الكتاب وقبل الحديث عن المكتبات الإسلامية لأنه سبقها ولأنها (المكتبات الإسلامية) كانت نتيجة له. ويلاحظ على الفصل غياب التوثيق لمادته رغم أهميتها.

عندما انتشرت حركة التأليف والكتابة في الحضارة العربية الإسلامية، وانتشرت صناعة الورق في المدن الإسلامية الرئيسية مثل بغداد، ظهرت طبقة جديدة تعرف بطبقة الوراقين، تمارس صناعة الوراق التي يعرفها ابن خلدون بأنها عملية الانتساخ والتصحيح والتجليد وسائر الأمور الكتابية. لقد لعبت حركة الوراقين دورا رئيسيا ومهما في إنتاج المخطوط الإسلامي ونشره وتسويقه في البلاد الإسلامية وخارجها، ولولاها لبقي المخطوط الإسلامي محدودا ولبقيت المكتبات الإسلامية فقيرة في مقتنياتها.

ونظرا لأهمية الوراقة وحركة الوراقين في تاريخ المكتبات العربية الإسلامية وتطورها، فقد خصص لها المؤلف فصلا كاملا في كتابه وهو الفصل السادس، وفيه يبين الوظائف والأعمال المختلفة التي يقوم بها الوراق وازدهار هذه الحركة مع تطور صناعة الورق. كما يتطرق الفصل للحديث عن أدوات الوراقين ودكاكينهم وأسواقهم والمشاهير منهم.

الفصل السابع في الكتاب يعد من أكثر فصوله متعة للقراءة، وفيه جمع المؤلف الحكم والطرائف والنوادر الخاصة بالعلم والكتاب. ويبدأ الفصل بما جاء في القرآن الكريم في فضل العلم، كما يرصد الآيات القرآنية التي ورد فيها كلمة الكتاب مبينا رقمها في السورة التي جاءت فيها الآية. والجدير بالذكر أن كلمة كتاب وردت 230 مرة في القرآن الكريم. ولم يكن هناك أي داع لرصدها جميعا

في الكتاب لتحتل أكثر من عشر صفحات فيه، وكـان مـن الأفضـل ذكـر بعضـها والاشارة إلى (المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم) الذي يقدمها كاملة للقارئ.

بعد ذلك يتناول الفصل ما جاء في فضل العلـم وطلبـه مـن أقـوال الرسـول صلى الله عليه وسلم وعظماء المسلمين. إلا أن الكتـاب، كونـه غـير متخصـص في الدين الإسلامي لم يذكر نص الحديث كاملا ولا رواتـه ولا مصـدره، وقـد ضمـت القائمة بعض الأحاديث غير الصحيحة كما أعلم مثل (اطلبوا العلم ولو بـالصين). كما ضمت القائمة بعض الأقوال التي لم نعرف هل هـي أحـاديث نبويـة شريفـة أم أقوال لعظماء المسلمين. وبعض الأقوال ليس له علاقة مبـاشرة بـالعلم أو الكتـاب مثل (الخط الحسن يزيد الحق وضوحا). كمـا تضـم القائمـة أقـوالا لا أعتقـد أنـها لأناس يعدون من عظماء المسلمين من وجهة نظري الخاصة.

كذلك يقدم الفصل ما قيل في فضل العلـم والكتـاب والكتـاب مـن الشعـر للعديد من الشعراء الذين يذكر أسمهم أحيانا ويغفل أحيانا أخرى ويكتفـي بعبـارة: قال شاعر أو قال أحدهم أو قال آخر أو وقيـل .. الخ. وينتـهي الفصـل بمجموعـة مـن الطرائـف والنـوادر عـن العلـم والكتـاب. ولم يشـر المؤلـف إلى مصـادر هـذه الطرائف والنوادر في نهايتها لأنه لم يوثقها جميعا، واكتفـى بذكـر المصـدر في نهايـة الكتاب مع قائمة المراجع.

ويضم الكتاب عـدة ملاحـق أهمـها مجموعـة مـن الصـور الجميلـة والرائعـة لبعض المخطوطات الإسلامية الـتي جمعـها مـن مصـادر مختلفـة أهمـها مكتبـة بيـت القرآن في البحرين، حيث يقدم الكتاب صورة ملونة لصفحة من المخطوط وتعليق مختصر اسفل الصورة. وكـان مـن الأفضـل لـو تناثرت هـذه الصـور بـين فصـول

الكتاب بدلا من تجميعها في نهاية الكتاب. كذلـك يضـم الكتـاب ضمـن ملاحقـه تقويم عصر الجاهلية إلى فتح مكة مـن إعـداد الأديـب الشـاعر البحريـني الأسـتاذ إبراهيم العريض.

قائمة المصادر والمراجع في نهاية الكتاب ضمت 35 مصدرا في مجـال الكتـب والمكتبات في الحضارة العربية الإسلامية. وقدمت معلومات كاملة عن كل مصـدر باستثناء عدد الصفحات أحيانا. وقد تم ترتيب القائمة بطريقة موفقة ووفق القواعد الفنية. إلا أن القائمة اقتصرت على الكتب ولم تضم مقـالات للدوريـات أو أوراق مؤتمرات أو رسائل جامعية. كما أنها اقتصرت على المصادر العربية ولم تضم كتبـا انجليزية.

الكتاب بشكل عام يعد إضافة نوعية جديدة لموضوع المكتبـات في الحضـارة العربية الإسلامية. وقد عالج الموضوع بنـوع مـن الشموليـة وبلغـة عربيـة سـليمة، وبأسـلوب مشـوق في العـرض والمناقشـة. كمـا أن الكتـاب متمـيز في الطباعـة والإخراج ويضم غلافا جذابا وهو مجلد بتجليد فاخر يحفظه ويحميه، إلا أن لا يخلو من الأخطاء الطباعية التي أصبحت للأسف الشديد سمة من سمات الكتاب العربي.

ختاما، فان كتاب (المكتبات في العصور الإسلامية) من الكتب التي تسـتحق القراءة من قبل العامـة ومـن قبـل البـاحثين والمختصـين والمـهتمين بقضيـة الكتـاب والمكتبات في الحضـارة العربيـة الإسـلامية. وهـو مـن الكتـب المناسـبة للمكتبـات المدرسية والمكتبات العامة والمكتبات المتخصصة في علوم المكتبات والتوثيق، وحتى المكتبات الأدبية والتاريخية.

خاتمة.

يبدو واضحا أن الحضارة الإسلامية قد ازدهرت لمدة طويلة من الزمن وخاصة في الفترة الواقعة ما بين القرن السابع والقرن الثالث عشر للميلاد. وكانت البلاد الإسلامية خلالها تشكل مركزا عظيما من مراكز الإزدهار الحضاري والتقديم الفكري الذي كانت أوروبا محرومة منه، حيث كانت تعيش العصور الوسطى (العصور المظلمة)، حيث سيطر فيها الجهل والتعصب والظلم وسيادة الإقطاع على حياة البشر الروحية والمادية.

إن هذا الوصف للعصور الوسطى ينطبق على أوروبا وحدها، ولا ينطبق على العالم العربي والإسلامي، فعصور أوروبا الوسيطة والمظلمة، هي عصورنا الزاهية والمضيئة، وجهلهم يقابله علمنا ومعارفنا الواسعة. ففي الوقت الذي كان فيه شارلمان، ملك أوروبا الغربية، يحاول أن يتعلم توقيع اسمه وكتابة بعض الكلمات باللاتينية، كان الرشيد والمأمون يعاصرانه، وكان المأمون يبحث أدق المسائل الفلسفية المتعلقة بالقضاء والقدر والعقل وحرية الإرادة، والقرآن الكريم. وفي الوقت الذي كانت فيه المكتبات العربية الإسلامية تمتلئ بالألوف وأحيانا بمئات الألوف من المخطوطات، كانت مكتبات أوروبا مقصورة على الأديرة، وأغلب كتبها تبحث في اللاهوت وتحفظ في خزائن حديدية مقفلة، لا يطلع عليها إلا الرهبان. لكن هذه الصورة تغيرت مع الزمن، وكان أحد الأسباب، بل السبب الرئيسي، انتقال التراث العربي الإسلامي المخطوط إلى أوروبا بعدة طرق أهمها صقلية وجنوب إيطاليا وإسبانيا من خلال التجارة أو الاحتكاك الحضاري المباشر أو الحروب.

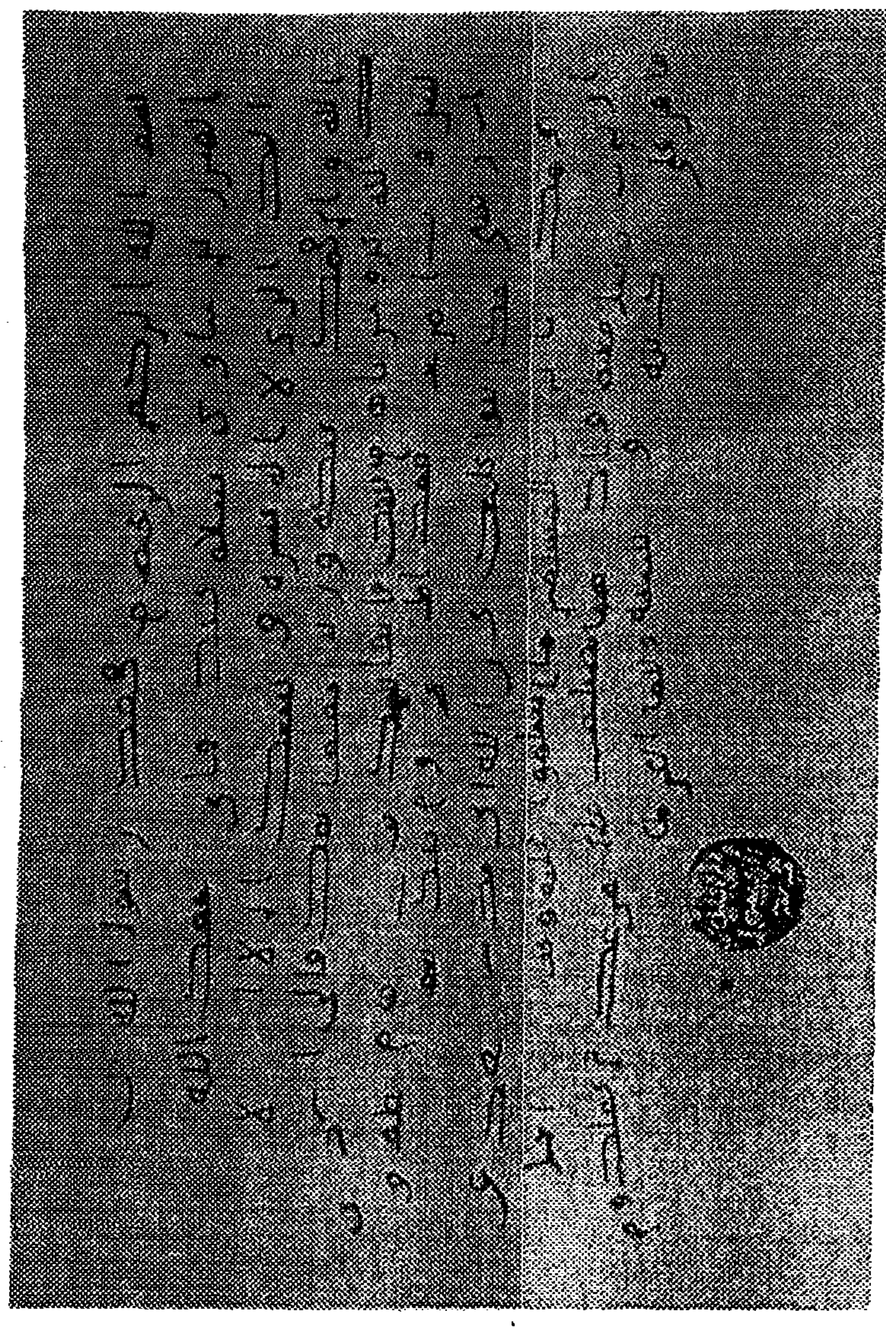
لقد عرفت الحضارة العربية الإسلامية أنواعا مختلفة للمكتبات يمكن حصرها في مكتبات المساجد ومكتبات الخلفاء ومكتبات المدارس والمكتبات الخاصة والعامة. وقامت بتزويدها بالمخطوطات وتنظيمها بشكل جيد. كما قدمت الخدمات المكتبية المختلفة مجانا لطلبة العلم والباحثين.

وبشكل عام فقد مرت المكتبات العربية الإسلامية بأدوار ومراحل مختلفة عبر تاريخها تتلخص فيما يلي:

أولا: دور الحضانة أو البداية (القرن الأول الهجري) وقد انصب الاهتمام في هذه المرحلة على التدوين وخاصة تدوين القرآن الكريم والحديث الشريف. ولهذا تعتبر نسخ القرآن الكريم وكتب الحديث الشريف النواة الأولى لمكتبات المساجد في الإسلام التي ظهرت أولا.

ثانيا: عصر النمو والتطور والازدهار (القرن الثاني وحتى بداية السابع الهجري) وتبدأ هذه المرحلة بعد تأسيس الدولة العباسية بفترة وجيزة، وبلغ أوجها زمن المأمون الذي شجع العلم والعلماء وفي هذه المرحلة ظهرت الأنواع المختلفة للمكتبات العربية الإسلامية.

ثالثا: النهاية (القرن السابع الهجري حتى بداية العصر الحديث). وقد تقهقرت المكتبات العربية الإسلامية في هذه المرحلة وانتهت نتيجة عوامل داخلية تعرض لها العالم الإسلامي أو عوامل خارجية كغزو المغول الذي أحرق مكتبات بغداد والغزو الصليبي الذي دمر مكتبات بلاد الشام، وأما الإسبان فقد أحرقوا كثيرا من المكتبات العربية الإسلامية في الأندلس.



(رسالة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المنذر بن ساوى)



من لوحات كتاب طوق الحمامة

قائمة المصادر

(1) ابراهيم زاهدة. تصنيف العلوم عند العرب. – مجلة مكتبة الجامعة. – مجلد2 (1973) ص 26.

(2) ابراهيم علي العوضي. دور الكتب والمكتبات في الحضارة العربية الإسلامية: – عمان: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1997.

(3) ابن النديم، محمد بن اسحق. الفهرست. – القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، 1384هـ.

(4) أبو بكر محمد الهوش. رحلة الكتاب العربي حتى ظهور الوراقة. – تراث الشعب. – مج2، ع7 (1982). – ص 40– 54.

(5) أبو بكر الهوش. الجوانب الإدارية والفنية في المكتبات الإسلامية. – تراث الشعب. – ع6 (1982). – ص 18–28.

(6) أحمد جمال العمري. حوانيت الوراقين وقيمتها العلمية. – المجلة العربية، س2، ع6 (1978) ص 16.

(7) أحمد السيد دراج. صناعة الكتابة وتطورها في العصور الإسلامية. – مكة: رابطة العالم الإسلامي، 1981.

(8) أحمد شوقي النجار. – الأبجدية العربية: لمحة ونظرة. – الدارة. – مج8، ع2 (1982). – ص 158–177.

(9) بشير كعدان. تاريخ الخط العربي. – المجلة العربية. – س4، ع6 (1980). –

ص 81–90.

(10) ربحي مصطفى عليان. الإسلام والمكتبات. – مجلة الأقصى. – ع 785 (1987). – ص 48–51.

(11) ربحي مصطفى عليان. تصنيف العلوم عند العرب والمسلمين. مجلة الهداية. – رمضان (1992). – ص 30–37.

(12) ربحي مصطفى عليان. تطور الكتابة والتدوين والتأليف في الحضارة العربية الإسلامية. الخفجي. – م20، ع1 (نيسان 1990). – ص 30–35.

(13) ربحي مصطفى عليان. الكتب والمكتبات في الحضارة العربية الإسلامية. – البحرين: بيت القرآن، 1996.

(14) ربحي عليان وعمر همشري. المكتبات عبر العصور. (في) أساسيات علم المكتبات والتوثيق والمعلومات. – عمان: المؤلفات، 1988.

(15) ربحي مصطفى مصطفى عليان. المكتبات في الحضارة العربية الإسلامية. – أنباء الجامعة. – ع182 (1987). – ص 30–32.

(16) ربحي مصطفى عليان. مكتبات المساجد. – الهداية. – ع 161 (1991). – ص 74–77.

(17) ربحي مصطفى عليان. مكتبات المساجد والمكتبات العامة في الحضارة العربية الإسلامية. – مجلة الخفجي. (1990). – ص 8–11.

(17) ربحي مصطفى عليان. مكتبة الإسكندرية القديمة: دراسة تاريخية. – المجلة الثقافية. ع 17 (1988). – ص 45–54.

(18) رمزية محمد الأطراقجي. بيت الحكمة وأثره في الحركة العلمية. – المؤرخ العربي. – ع 14 (1980). – ص 317–355.

(19) شعبان عبد العزيز خليفة. المخطوط العربي: دراسة في نشأته وملامحه البيليوغرافية. – مجلة الفيصل. – ع 35 (1980). – ص 107–117.

(20) صلاح الدين المنجد. دراسات في تاريخ الخط العربي. – بيروت: دار الكتاب الجديد، 1979.

(21) عبد الستار الحلوجي. لمحات من تاريخ الكتب والمكتبات. – ص2. القاهرة: دار الثقافة للطباعة والنشر، 1982.

(22) عبد الستار الحلوجي. المخطوط العربي منذ نشأته إلى آخر القرن الرابع الهجري. – الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 1978.

(23) عبد اللطيف الصوفي. لمحات من تاريخ الكتب والمكتبات. دمشق: دار طلاس للدراسات والنشر، 1987.

(24) عمر أحمد همشري وربحي عليان. أساسيات علم المكتبات والتوثيق والمعلومات. – عمان: المؤلفان، 1997. – ص 137–146.

(25) فيليب حتي. تاريخ العرب من أقدم العصور حتى الآن. – الطبعة السادسة. – لندن: ماكميلان، 1956.

(26) كوركيس عواد. الورق أو الكاغد: صناعته في العصور الإسلامية. – مجلة المجتمع العلمي العربي بدمشق، العدد 23ص.

(27) لطف الله قاري. الوراق والوراقون في التاريخ الإسلامي. – الرياض: دار الرفاعي، 1982.

(28) محمد أبو الفرج العش. نشأة الخط العربي وتطوره: الخط العربي قبل الإسلام. – الدارة. – س 5، ع 1 (1979). – ص 108–125.

(29) محمد شريفي. الخط العربي في الحضارة الإسلامية. – المجلة العربية للثقافة. – مج 2، ع 2 (1982). – ص 113–134.

(30) محمد صالح محي الدين. مكتبات بغداد وموقف المغول منها. – مجلة كلية العلوم الإقتصادية. – ع 5 (1981). – ص 81–112.

(31) محمد طه الحاجري. الورق والوراقة في الحضارة الإسلامية، مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد 12، 1965.

(32) محمد ماهر حمادة. الحاكم بأمر الله ودار الحكمة. – المجلة العربية. – س 4، ع 3 (1980). – ص 59–61.

(33) محمد ماهر حمادة. الكتب والمكتبات في الأندلس. – مجلة كلية العلوم الإجتماعية. – ع 6 (1982). – ص 345–367.

(34) محمد ماهر حمادة. مكتبات الفاطميين الخلافية. – المجلة العربية. – س 4، ع 9 (1980). – ص 58–61.

(35) محمد ماهر حمادة. المكتبات في الإسلام. – بيروت:مؤسسة الرسالة، 1978.

(36) محمد ماهر حمادة. المكتبات في الإسلام: نشأتها وتطورها ومصائرها. – بيروت: مؤسسة الرسالة: 1986.

(37) محمد ماهر حمادة. المكتبات في العالم: تاريخها وتطورها. – الرياض: دار العلوم، 1981.

(38) محمد مهيدات. حريق مكتبة الإسكندرية. رسالة المكتبة. — م 13. — ع 2 (حزيران 1987) . — ص 20—25.

(39) محمود عباس حمودة. تاريخ الكتاب الإسلامي. — القاهرة: دار الثقافة للطباعة والنشر، 1979.

(40) منصور محمد سرحان. المكتبات في العصور الإسلامية. — البحرين: دار مخراوي، 1967.

(41) موسى، جلال محمد. منهج البحث العلمي عند العرب. — بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1972. — ص 59—62.

(42) ميري عبودي. فتوحي. فهرسة المخطوط العربي. — بغداد: وزارة الثقافة والإعلام، 1980.

(43) ناجي معروف. الوراق البغدادي، مجلة كلية الدراسات الإسلامية، المجلد الثالث، 1969—1970.

(44) هونكه، زيغرد. شمس العربي تسطع على الغرب. — بيروت: دار الآفاق الجديدة، 1986.

(45) هيسل، ألفريد، تاريخ المكتبات. القاهرة: دار الثقافة للطباعة والنشر، 1980.

(46) يوسف العش. دور الكتب والمكتبات العامة وشبه العامة لبلاد العراق والشام ومصر في العصر الوسيط. — بيروت: دار الفكر المعاصر، 1991.